صدام المصالح
وحوار الحضارات



حسن إبراهيم أحمد

صدام المصالح وحوار الحضارات

صدام المصالح وحوار الحضارات

حسن ابراهيم أحمد

صدام المصالح وحوار الحضارات

تأليف: حسن ابراهيم أحمد.

الطبعة الأولى: عام ٢٠٠٤.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

الإخراج الفني : مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع.

تصميم الغلاف : فيصل حفيان.

يطلب هذا الكتاب على العنوان التالي :

مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع .

دمشق – سوريا .

هاتف :٥٦٢٧٠٦٠ – فاكس : ٥٦١٣٢٤١.

ص.ب :٣٠٥٩٨

مقدمة

يقع الحديث عن الحضارات وعلاقاتها، تحت تأثير الرجّة الكبيرة التي أحدثتها مقولة ((صدام الحضارات))، وتقسيم العالم تقسيماً فيه الكثير من العسف إلى كتل متصارعة متصادمة، ليست بعيدة عن السياسات أو الأمنيات التي تقع في خلفية عمل قوى تجد من مصلحتها تعميم مناخ الصدام، ولقناعتها بالقدرة على إحراز النصر فيه.

الصدامات عبر التاريخ يصعب حصرها، لكن أغلبها معروف البداية والنهاية، (من - إلى)، كما هو معروف الأهداف المباشرة وغير المباشرة، المعلنة والمضمرة: المستندة إلى قيم الخير والحق والجمال أو المرذولة المستندة إلى الأطماع والمصالح.

الصراع مستمر في الحياة لا يتوقف، وليس من مصلحة الحياة ولا في خيرها أن يتوقف، كذلك ليس في خيرها أن يتحول إلى صدامات مدمرة، مع ذلك فهذه موجودة وكثيرة، وباعتبار أنها محدودة في الزمان والمكان، وكثيراً ما تؤدي إلى الحوار أو تتضمنه فإن ما هو خارج هذا الزمان وهذا المكان الذي يحدث فيه الصدام، هو مساحة للحوار. هكذا هو الواقع، وهذا ما نريد إثباته.

الصدام تقوده المصالح، ولا يعني هذا أن الحوار لا مصالح غائية تدفعه أو تقوده الحوار مدفوع بمصالح غايتها تأمين حياة أكثر يسراً وسهولة وطمأنينة وسلاماً، وهذه مصالح غاية في النبل والرقي كانت في صلب كل الأديان الكبرى المتدة، كما في صلب المشاريع التي توخت إنقاذ الإنسانية من قبل الفلاسفة والمفكرين والقادة، أو نشاط الجماعات. والصدام مدفوع بمصالح أخرى تفوح منها روائح كريهة، روائح الأنانية واستغلال الأقوى للأضعف، واستخدام القوة والجبروت،

وتجيير جهد الفقراء لصالح الأغنياء. وحديث أرباب الصدام عن القيم والمبادئ، وتغطية أطماعهم وبطشهم بشعارات تفوح منها رائحة القيم الرفيعة، هي ترضيات إعلامية، قد تكون مشفوعة ببعض الفتات، هذه الأهداف والشعارات المعلنة أو المرفوعة كيافطات، تخفي وراءها كل ما هو خبيث وبشع، وهذا الم يعد يخفى على أحد.

إذن، حديث الصدام بين الحضارات والذي تدعمه ثقافات مختلفة، لا يصمد أمام شواهد التاريخ والواقع، أو لا يصمد أغلبه، وما بدا منه مصدقاً لصدام الحضارات، يحتاج إلى من يوضح حقائقه المستورة وأهدافه الخفية.

الحضارات لم تعدم الوسائل ولا السبل لتخليق قنوات لا حصر لها للحوار، حوارها كان ممتداً من يوم وجد الإنسان إلى اليوم، وبالتأكيد إلى الغد - بالرغم من أحلام العتاة - وهذا الحوار الممتد هو الذي أشار إليه أوتوشيروماتسور المدير العام لمنظمة اليونسكو في الكلمة التي ألقاها في الرباط في ٢٠٠٣/٧/١٢، يقول: ((إن الحوار بين الثقافات والحضارات ليس في الواقع رغبة تندرج في سياق ((الأعمال الخيرية)) بل هو حقيقة تاريخية ينبغي على كل امرئ أن يعيها. فما من حضارة على الإطلاق إلا وأغنتت بالاتصال والتفاعل والتبادل مع الحضارات الأخرى، وحتى في إطار الحضارة الواحدة ذاتها، فإن الاسهامات هي أيضاً متعددة، وعلى هذا فإن الحضارات هي في حوار دائم ومستمر - لا مع الحضارات الأخرى فقط - ولكن مع نفسها أيضاً، لذا يمكن القول بأن كل حضارة هي بشكل عميق حضارات ذات ثقافة عالمية، وبالتالي لا يمكن تصنيفها في مراتب، أو اعتبار بعضها مقابلاً للبعض الآخر)).

هذا الحوار ليس حواراً سياسياً إرادوياً يجري حول الموائد وفي لقاءات السياسيين والقادة، ومع أن هذا هام جداً في تأمين المناخات المساعدة، وإزالة العراقيل من وجه القوى المتحاورة، فإنه ليس حوار الحضارات الذي نتحدث عنه. حوار الحضارات، عملت وتعمل على تخليقه، حسب الظروف والأساليب المتاحة والضرورية وهي تعرف كيف تفعل ذلك، كما دلت التجارب، ومهمتنا المساعدة في صنع المناخات لذلك، وإزالة ما أمكن من العقبات.

ما كتب في الموضوع كثير، لكن الكثير منه ـ على ما فيه من فوائد جمة ونظرات دقيقة هي موضع احترامنا ولا شك ـ لم يضع الأمور في نصابها حسب الرؤية التي انطلقنا منها، والتي ندعي صحتها، ونعمل في هذا الكتاب على جعلها مقنعة بالتحليل النقدي، والأدلة التاريخية والواقعية.

الكتاب ليس عملاً ثقافياً فكرياً غايته إبراز دور الثقافة والحضارة العربية والإسلامية والدفاع عنها، مع أن ذلك ليس عيباً ولا منقصة، بل هو واجب، وقد قام الكثيرون بأداء هذا الدور، باقتدار قد لا نمتلكه، ونحن نقدر جهدهم. لكن غاية الكتاب هي وضع الأمور في نصابها، تحديداً بإبراز أن الصدام موجود وتقوده المصالح والجبروت، والحوار موجود ولم ولن يختفي، وهو الأبقى أو هو الأصل في علاقة الحضارات ببعضها، بينما الصدام هو الاستثناء الذي تسعى إليه قوى موجودة، سواء داخل حضارة واحدة، أو بين حضارتين.

وننوه إلى أن ما يجده القارئ من تركيز على الحضارة العربية الإسلامية في كثير من المواقع، ليس سوى دليل حضورها في الذهن أكثر، بالتالي استمداد الأمثلة منها ودوران الحديث حولها وحول علاقاتها نتاج الغلبة لها على غيرها في تكوين الكاتب الثقافي، مع أن طيف الأمثلة والتحليلات من خارج هذه الثقافة، واضح لا تفتقده عين المدقق.

أرجو لهذا العمل أن يكون إضافة لا تصنف في الركام الكمي فقط، بل تضيف إلى التراكم النوعي جزئية، صغيرة كانت أو كبيرة.

أيضاً أنا مؤمن بأن الأفكار والآراء فيما كتبت وما سأكتب ـ ربما ـ محكومة بالنسبية، وخاضعة للنسبية في الأحكام والتقويم.

٢٠٠٣/٧/٢٨

المؤلف



مدخل

((لا وجود لحضارة دون جماعة بشرية، والعكس صحيح))(١) . إلى هذا الحد يعتبر المفهوم (الحضارة) لصيقاً بالإنسان، بل إلى هذا الحد يعتبر وجود أحد الطرفين (الإنسان ـ الحضارة) ملازماً أو مكملاً للآخر، بل يعتبر كل من الطرفين مشروطاً بالآخر، فلا حضارة دون إنسان، ولا إنسان دون حضارة، هذا الاشتراط ينفي صفة التحضر عن المادة التي لا تخضع ليد الإنسان وعقله، وعن الإنسان الذي لا يتجاوز شرط الطبيعة، شرط الفردية.

يحيلنا الكلام السابق أيضاً، إلى مفهوم النسبية في الحضارة، كما يحيلنا إلى تاريخيتها.

إنها مستوى معين من تطور أساليب العيش مرهون بالمراحل التاريخية ومستوى التطور فيها، فالعصا التي استعان بها الإنسان البدائي ليصل إلى الثمرة، هي منتج حضاري (ثقافي)، كما أن المدية الصوانية التي استخدمها لتقطيع فريسته منتج حضاري، يساهمان في رسم الخط البياني لتطور الإنسان باعتباره كائناً حضارياً. وإذا كان الخط يبدأ بالعصا وحجر الصوان، فإنه ينتهي بالطائرة والصاروخ والقمر الاصطناعي والإنترنت.. إلخ. مروراً بطقوس السحر والأغاني والرقصات، وصولاً إلى الأدب الرفيع والسينما والموسيقا... إلخ.

فالحضارة إذاً، كما يراها ديز موند موريس، هي خروج من مملكة علم البيولوجيا للدخول في مملكة الثقافة (٢).

إلى أي حد يجب أن يكون هذا الخروج؟ لا يهم.

إن أي خروج محسوب، يدل على تطوير خبرة متراكمة يدخل في باب الثقافة، ويصنف كمكتسب حضاري، لأنه يعمل على إزاحة عنصر من عناصر البيولوجية أو الطبيعة، ليحل محله ما ثبت أنه ناجح بالتجربة. بل ما يثبت أن عقلاً بشرياً عمل وخطط ولم تترك الأمور للطبيعة والغرائز.

وقد عملت الاثنولوجيا، أي علم دراسة الشعوب بوصفها خالقة وحاملة للحضارة(٣). على تتبع ودراسة التطور الحضاري للإنسان منذ بدايات ظهوره ككائن مختلف.

والحضارة ليست قيماً ومعايير ثابتة تظهر على مسرح التاريخ دفعة واحدة، أو كائناً ينمو إلى درجة محددة لا يستطيع تجاوزها. إنها كائن عضوي كالإنسان، تنبع من الواقع وتتغذى بالوراثة، وتنمو بالتجربة الجديدة، وتستجيب لكافة أنواع المؤثرات الداخلية والخارجية(٤). فهي بهذه الصفة قابلة للاكتساب والتطور غير محكومة بالنقص، باعتبار أنها تورث. ولا تكون حضارة"(جديدة") إلا إذا أضافت إلى سابقاتها، وهي ما لم تضف إلى ما سبقها لا تستحق اسم (حضارة) أي أن من سماتها المحافظة على الموروث الذي يثبت جدواه، والإضافة عليه.

هكذا تبرز العلاقة الجدلية بين الإنسان والحضارة، فالإنسان ابن للحضارة، ابن للمكتسب الإنساني، والحضارة نتاج إنساني فـ ((من الطبيعي اعتبار الإنسان نتاج الحضارة والتاريخ من جانب، بينما الحضارة والتاريخ هما نتاج العمل الاجتماعي المنظم للإنسان))(٥).

هذه الجدلية تركت آثاراً واسعة، ودلالات لا تحتاج إلى إثبات، فهي تثبت ذاتها، سواء في الشخصية الإنسانية أفراد وجماعات، أو في الواقع الملموس بكل جزئياته وتشعباته، فالتطور الحاصل في كلا الأقنومين يصل حد الإبهار، سواء على مستوى التطور المادي أو على مستوى الوعي.

وهنا يبرز أحد أهم الخلافات أو الاختلافات في فهمنا للحضارة!

هل الحضارة هي الثقافة أم غيرها؟ هل يتطابق المفهومان أم يزيد أحدهما على الآخر؟

هناك من يدمجهما في مفهوم واحد وكأنهما ينطويان على الدلالة ذاتها، وهناك من يفصل بينهما مفرقاً بين المفهومين وهناك من يجعل تطور أحدهما يوصل إلى الآخر.

ففي الإشارة إلى حقبة من حقب تطور المصطلحين، يقول تيري إيجلتون: (ولقد تعقب ريموند وليامز بعضاً من تاريخ كلمة ((الثقافة)) المعقد، وميز ثلاثة من معانيها الحديثة الكبرى، فقد خرجت هذه الكلمة من جذورها الأصلية الممتدة في

تربة العمل الريفي لتعني في البداية شيئاً قريباً مما تعنيه كلمة civility (الكياسة)، ولتغدو في القرن الثامن عشر مرادفاً إلى هذا الحد أو ذاك لكلمة civilization (الحضارة) بالمعنى الذي يشير إلى سيرورة عامة من التقدم الفكري والروحي والمادي. فالحضارة كفكرة تساوي بين آداب السلوك والأخلاق على نحو له دلالته، فإن تكون متحضراً يعني ألا تبصق على السجادة كما يعني ألا تدق أعناق من أسرتهم في الحرب: فكلمة ((الحضارة)) ذاتها تشتمل على ضرب من التعالق الذي تكاد أن تضيع فيه الحدود بين التصرف المؤدب والسلوك الأخلاقي، الأمر الذي يمكن أن نجده في انكلترا في كلمة ((جنتلمان)).)(٦).

المثقف عند د. نصر حامد أبو زيد : ((هو الإنسان المنخرط - بطريقة أو أخرى - في عملية إنتاج الوعي))(٧). والملاحظ أن التعريف يحيل الثقافة إلى مفهوم الوعي، وهذا يبعدها عن حيز المادة، في حين توحد بينهما آراء أخرى.

غيره يرى أن الثقافة هي ((نمط حياة يجري اكتسابه اجتماعياً لا غريزياً ويتم نقله بين الأجيال بالتعلم))(٨). حيث لا نرى فصلاً في المعاش بين ما هو مادة وما هو وعي، وقوله (نمط حياة) يتضمن الفكرة وما به تتحقق هذه الفكرة إذا كان من شروط تحققها أن تتحول إلى مادة، إلى تكنولوجيا.

ويعطي إيجلتون كلاً من المصطلحين بعداً اجتماعياً عندما يعتبر الحضارة برجوازية في حين أن الثقافة أرستقراطية وشعبية في آن معاً (٩).

وإذا كان د. أبو زيد يوقف الثقافة على رجل واحده، فيحرمها من البعد المادي، والتعريف الثاني يترك الباب مفتوحاً لما يدخل في إطار ((نمط الحياة)) باتساعه أو ضيقه، بمرونته أو صلابته، فإن آخرين لا يتركون الباب موارباً، فيما هون - ولو اجرائياً على الأقل - بين مفهومي الثقافة والحضارة فيحيل أحدهما على الآخر، فيكون هو أو ما يقترب منه.

ينقل عن عالم الانتروبولوجيا الشهير ((تايلور)) قوله: ((الحضارة أو الثقافة بمعناها الاثنوغرافي الواسع هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع))(١٠)

وإذا كان التعريف يبدأ بعطف الثقافة على الحضارة، أي باكتسابهما حكماً واحداً، أو المماهاة بينهما، فالملاحظ الابتعاد عن إدخال أية عناصر مادية في تحديد مفهوم الحضارة أو الثقافة، والاكتساب، هنا يبتعد في تقديري بشكل واضح عن حقل المادة. الجديد هنا الخلط بين المفهومين واعتبارهما مفهوماً واحداً، مع إبقائه بعيداً عن المادة.

كما الملاحظ التركيز في بعض هذه التعريفات على دور الاكتساب في الحصول على المستوى المطلوب، والمشروط اجتماعياً.

وفي نقلة أخرى، يعتبر د. حيدر إبراهيم علي الثقافة : ((كا ما يبدعه أو ينتيجه الإنسان بيده أو جسمه أو عقله مثل الصناعة والعمل والتفكير والتأمل))(١١) ولا يترك هذا التعريف مجالاً لاعتبار المادة و الإنتاج باليد والجسم، خارج مكونات الثقافة، حيث يتم إخراجها من حيز الوعي أو الفكر إلى مجال النشاط الجسدي وما ينتج عنه من معطيات مادية.

والأكثر صراحة ووضوحاً في اعتبار المنتج المادي أحد مكونات الثقافة هو محمد الخطيب الذي يقول: ((وتشمل الثقافة كذلك كل ما يصنعه الإنسان من عناصر المادة مثل الملبس والمباني والآلات والأدوات التي تزداد كثافة كلما تقدم الإنسان))(١٢)

وإذا كنا قدر رأينا أن هناك من فرق بشكل حاسم بين الثقافة والحضارة، وهناك من قارب بينهما بدرجات متفاوتة إلى حد المماهاة، فإن هناك من يشير إلى الوحدة الجدلية بينهما كما أشرنا، مخرجاً العلاقة إخراجاً منطقياً أو فلسفياً، فيبقي على الفرقة والوحدة في آن معاً. يقول إدريس هاني: (إذن المسألة هي أن الثقافة في اعتقادي هي مرحلة القوة من الحضارة، والحضارة هي مرحلة الفعل من الثقافة، هذه هي العلاقة الجدلية بين الثقافي والحضاري)(١٣) ويتابع:

((إذن إذا نظر إلى الحضارة من حيث قوة الدفع فهي ثقافة. أما إذا نظر إليها من زاوية مادية فتسمى عند البعض مدنية)) (١٤).

والباحث مع إشارته إلى الوحدة الجدلية بين الثقافة والحضارة، لا يزيل الحدود بينهما، فالحدود صارمة، إذ الثقافة تنتهي عند نقطة التحول إلى حضارة، عندما

تتحول إلى تكنولوجيا، عندما تدخل عالم الصنائع، مستعيراً مصطلحاً خلدونياً، استخدمه ابن خلدون للتفريق بين حياة البداوة (اللاتحضر) وحياة التحضر، وهو لفظ ((المدنية)). لقد أرسى بذلك تخوماً واضحة لكل من الطرفين وكأن الفصل بين خطة المعركة وتنفيذ المعركة أو الفصل بين فكرة الآلة والآلة أمر ممكن، إنه يستسهل ذلك، ويظهر استسهاله بتعريف الحضارة ((هي نمط في العمران يقوم على مبدأ القوة. وأبرز سمات هذه القوة ومصاديقها، قوة الصنائع)) (١٥).

في التعريف السابق انحياز واضح لما هو مادي، ضد ما هو وعي في تكوين الحضارة، فهي (نمط في العمران) ومعروف ما تحيل إليه لفظة عمران من إشادة الأبنية وغير ذلك من معطيات مادية، وهي تتحدد بـ ((مبدأ القوة)) التي أبرزها (قوة الصنائع) لا قوة الأفكار. القوة المنتجَة لا القوة المنتجِة. في هذه الحالة يمكن وصف ألمانيا الهتلرية بالمتحضرة جداً، ويمكن وصف إلقاء القنابل الذرية على هيروشيما وناغازاكي، عمل حضاري رفيع.

هو بهذا يغلّب الجانب المادي في فهمه للحضارة، ويكرس الفصل بينها وبين الثقافة، صانعاً حدوداً واضحة لكليهما في الحياة. علماً أن الحدود لا يجوز أن تدخل هذه الحقول إلا من أجل الدراسة، لأن تحديد التخوم بمثل هذه الصرامة لا يعود إلا بالضرر، لما فيه من تفكيك المتداخل.

وطبيعة فهم الباحث للحضارة أدى إلى النتيجة التي تقول أن لا صراع بين الحضارات، كما لا حوار بينهما، لأنه لا يعترف بوجود أكثر من حضارة في وقت واحد، وهذا ما لا نؤيده فيه ببساطة. وإن كنا نرى أن الحضارات لا تتصارع بل المصالح هي التي تتصارع، يقول: ((أن أنسب عنوان للحوار، هو الحوار الحضاري بين الثقافات. وليس ثمة على الإطلاق شيء اسمه الحوار بين الحضارات، لسبب بسيط جداً وهو أنه ليس ثمة حضارات تتعاصر في آن واحد.... الحضارات لا تتحاور، الحضارات تتناوب))(١٦) وهو يؤكد ((أن لغة الإنتاج والإبداع والصنائع، هي لغة الحضارة السائدة منذ اكتشف الإنسان النار. فالقول بـ ((الحوار بين الحضارات)) جهل مركب بالحضارة و ((الصدام بين الحضارات)) سالبة بانتفاء الموضوع)) (١٧).

تحديد الحضارات على أساس مادي (القوة والصنائع، أو قوة الصنائع). عدم الاعتراف بوجود أكثر من حضارة في وقت واحد. الفرز بين الثقافة والحضارة بشكل صارم. نفي الصراع أو الحوار عن الحضارات لحصره في مجال الثقافات فيصبح (الحوار الحضاري بين الثقافات. هذه قضايا تثير الانتباه في فهم الباحث للحضارة والثقافة، علماً أنه بتحديده الحوار الحضاري بين الثقافات يشير إلى بعض الارتباك، أو يعيد مصطلحاته إلى الحدود الغائمة، وكأنه نسي أنه أشار إلى الوحدة (الجدلية) بين الحضارة والثقافة، وإذا كانت هذه الوحدة موجودة فكيف تصارع أحداهما دون الأخرى؟!

واستباقاً لكل مناقشة نقول، إن الحضارات لا تموت، وما يموت لا يستحق اسم حضارة، الحضارات كلها باقية (بقاء بعض عناصرها في غيرها) بشكل متفاوت، وهي غير متصارعة، ليس لأنه لا توجد سوى حضارة واحدة في وقت واحد، بل لأن الحضارات طورت أشكالاً لا حصر لها من الحوار، إنما الصدام فهو بين المصالح التي تظهر في كنف الحضارات.

إن العجلة السومرية حاضرة في كل منتج حضاري تكنولوجي حتى مركبات الفضاء، والبارود الصيني حاضر في كل سلاح ناري أنتجته البشرية وصولاً إلى تفجير الذرة، والصفر العربي لم تستغن ولن تستغني عنه الرياضيات مهما بدت حديثة، وجبر الخوارزمي يحقق حضوره ولم يلق إلى مستودعات المتاحف، وأفكار الطباعة عند الصينيين لم تغب عن غوتنبرغ وهو يخترع المطبعة، كما أنها موجودة بشكل ما في المطابع الإلكترونية الحديثة، والأرقام الهندية لن تصبح البشرية في غنى عنها لا الآن ولا في المستقبل!!

إن ذاكرة الإنسانية المتعددة المنابع كانت ولا تزال قادرة على استيعاب ما تنجزه الشعوب وهي تروي بعرقها ودمها وعقلها قصة حضارة بشرية ساهمت وتساهم في إنجازها كل شعوب الأرض، ولن تستغني عن جزئية لا بديل لها، إذا كانت لا تزال ضرورية لحياة الناس وتقدم الشعوب ولنطمئن إلى أن توزيع الحصص الحضارية، ليس إرادوية سياسية أو فكرية تاريخية، بل هو فعل حضاري ممتد،

وإذا كنا نشاهد فعل السياسة القوى والطاغي، فلا شك أن الفعل السياسي ينتهي ويبقى الفعل الحضاري لا نهاية له!

أين تنتهي حدود الثقافة، وأين تبدأ حدود الحضارة؟ هل يعتبر حضور المادة هو ذلك التخم الذي عنده تبدأ الحدود؟ تفترق أو تلتقي؟ ربما.

الثقافة تحيل إلى الوعي، وحدود الثقافة هي حدود الوعي كما رأينا لدى البعض، لكن عندما تقتحم المادة أسوار الوعي، يتشيأ فيصبح حضارة. هل تصح الترسيمة هكذا؟ على الأقل هذا ما فهمناه من النقاش مع إدريس هاني، كصوت مختلف مع أن هناك من يشاركه في جانب الفهم المادي، أو التحديد المادي للحضارة، يقول أيجلتون: ((فالحضارة مجردة ومغتربة، ومتشظية، وميكانيكية، ونفعية، ومستعبدة لإيمان شديد بالتقدم المادي، أما الثقافة فكلية، وعضوية ومحسوسة، لا غاية لها سوى ذاتها، فضلاً عن قدرتها على التذكر والاستعادة))(١٨).

لقد أصبحت مشروعية فهم الثقافة والحضارة مفتوحة على احتمالات كثيرة وتقديرات وطرق فهم وتعاط مع الموضوع. لكن كيف فهم الحضارة دارسوها الكبار ومؤرخوها؟ ما الذي درسوه ليسموه حضارة؟ أو باعتباره حضارة؟

لنترك لـ ((ول ديورانت)) أحد أشهر دارسي الحضارات ومؤرخيها، أن يقدم لنا فهمه لحدود الحضارة كما رسمها، وكما تناولها بالدراسة في كتابه الضخم ((قصة الحضارة)).

هو يرى أنها تتألف من عناصر أهمها:

اقتصادية: وقد تطورت من الالتقاط والصيد إلى الحراثة والزراعة فالصناعة والتجارة.

سياسية: حيث بدأت الحكومة فنشأت الدولة والقانون ونظمت الأسرة... إلخ.

خلقية: كالزواج والأخلاق الاجتماعية والدين.

عقلية: كالعلم والآداب والفنون والقوانين والفلسفات... إلخ.

وهو لا يغفل عن قوة العمل في تطويعها للعناصر المختلفة لجعلها ملائمة للدخول في إطار ما يطلق عليه حضارة بمعناها الأكثر رقياً، عبر تاريخية التطور الإنساني (١٩).

ويرى أنها بهذا المعنى أو بهذه العناصر نشأت في الشرق الأدنى: بلاد الرافدين، مصر، بلاد الشام، فارس.... إلخ.

حاولنا أن نقدم فيما مضى فسحة لفهم حجم الاختلاف على مفهومي الثقافة والحضارة أو التوافق عليهما، مركزين على تنوع وغنى في تحديد المفهومين يحيل إلى الاختلاف أكثر مما يحيل إلى التوافق، تمكيناً للحصول على طيف المعاني الواسع، وزوايا التناول الرحبة، والتي في رأينا حصرت التفكير في بعد المادة أو قربها من المفهوم الواحد، فالحضارة والثقافة شيء واحد لولا اكتساب الحضارة لقوة البعد المادي الذي يعتبر محدداً لأبعادها، و ((إذا كان ول ديورانت قد ألصقها بالنشاط الزراعي، فإن ابن خلدون ألصقها بالنشاط الصناعي))(٢٠) وهي في رأي ديورانت قد تبدأ في كوخ الفلاح لكنها لا تزدهر إلا في المدن، لكن ابن خلدون يقابل بين الحضارة والبداوة، إذ البداوة عنده تساوي البعد عن الصنائع (٢١).

ولا بأس من الإشارة إلى التماهي بين مفهومي المدينة والحضاره في أذهان البعض، فمفهوم التمدن الذي يقابله البداوة، لا يتطابق مع التحضر الذي هو سكن الحواضر (المدن) كنقيض للتبدي والترحال. أيضاً لا بأس من إشارة إلى ما يورده إدريس هاني من أن القرآن استعمل عبارة القرن والقرون أو القرية والقرى للتعبير عن الكيانات الحاضرة، ولم يستخدم القرآن لفظ الحضارة أو مشتقاتها إلا في مورد واحد ((وأسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر))(٢٢).

وكما يكتسب مفهوم الحضارة بعده الاجتماعي فكذلك يكتسب بعده الطبقي في المجتمع: ((فهذا المصطلح ينتمي في واقع الأمر إلى معجم الطبقة الوسطى الأوروبية ما قبل الصناعية، حيث يعبق بآداب السلوك، والدماثة، والكياسة، والتهذيب وأناقة التعامل)) كما يرى إيجلتون (٢٣) ويبدو أن الرجل ممن يؤمنون بالأثر الكبير للمهن على أخلاق وحياة أصحابها، حيث ((أن التهذيب يسير مع التجارة جنباً إلى جنب، ذلك أن التجارة هي ما يحطم الغلظة الريفية، ويقحم البشر في علاقة معقدة، وبذا يصقل ما لديهم من نتوءات حادة وحواف قاطعة)) وقد ((كان لا بد لـ (الحضارة) من أن تكتسب صدى إمبريالياً أيضاً، وهو ما كان كافياً لتسويد صفحتها في أعين بعض الليبراليين))(٢٤).

هوامش المدخل

١ - محمد الخطيب، الانثولوجيا، دار علاء الدين، ط١ /٢٠٠٠ ص٨

٢ - ديزموند موريس، القرد العادي، دراسة للتطور العضوي والجنسي والاجتماعي للإنسان، ترجمة: ميشيل أزرق، ط٢ دار الحوار - اللاذقية/١٩٩٥ ص١٧

٣ - محمد الخطيب، المرجع السابق، ص٧.

٤ - المرجع السابق ص٩.

٥ - د. عبد الرحيم الكريمي، صراع أم حوار بين الحضارات.. أم صراع ضد هيمنة النظام العالمي الجديد، مجلة النهج، العدد /٢٣/ السنة /١٩/ شتاء/٢٠٠٢ ص١٣٤.

٦ - تيري ايجلتون، فكرة الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية ص٢٨.

٧ - د. نصر حامد أبو زيد، الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي، ط١/٢٠٠٠ ص١٥.

٨ - فراس السواح، دين الإنسان، دار علاء الدين ، ط١/١٩٩٤ ص١٢٤.

٩ - تيري إيجلتون المرجع السابق ص٣٣.

١٠ - محمد الخطيب، المرجع السابق، ص٢١.

١١ - د. حيدر إبراهيم علي، العولمة وجدل الهوية الثقافية، عالم الفكر، المجلد الثامن والعشرون، العدد الثاني، أكتوبر، ديسمبر/١٩٩٩ ص٩٨.

١٢ - محمد الخطيب، المرجع السابق ص٢١.

١٣ - إدريس هاني، حوار الحضارات، المركز الثقافي العربي، ط١/٢٠٠٢ص١٣٤.

١٤ - المرجع السابق ص١٣٥.

١٥ - المرجع السابق ص٩٣.

١٦ - المرجع السابق ص١٣٢.

١٧ - المرجع السابق ص١٦١.

١٨ - تيري ايجلتون، المرجع السابق ص٣٣

١٩ - ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الأول، نشأة الحضارة، الجزء الأول، ترجمة : زكي نجيب محمود، الإدارة الثقافية - جامعة الدول العربية، ط١٩٦٥/٣.

٢٠ - إدريس هاني، المرجع السابق ص١٠٠.

٢١ - المرجع السابق ص١٠١,٢٢.

٢٢ - قرآن كريم، الأعراف /١٦٣/ نقلاً عن إدريس هاني المرجع السابق ص٩٥.

٢٣ - تيري ايجلتون، فكرة الثقافة، ص٣٠.

٢٤ - المرجع السابق ص٣١.

القسم الأول

في حقل الصدام

الفصل الأول:

التأسيس للصدام

الفصل الثاني:

الذات العملاقة والآخر القزم

الفصل الثالث:

الدين والأبواب المفتوحة

الفصل الرابع:

الصدام ترعاه المصالح

التأسيس للصدام

لماذا يكون الضجيج كبيراً حول أعمال العنف والشر، في حين تمر أعمال الخير والبناء على صفحة الحياة مروراً خجلاً دون إثارة أو ضجيج؟

لماذا نرى أن هناك مركزية تأريخية حول الأحداث الأكثر عنفاً، في حين نرى أن هناك مجانبة للأحداث التي تضفي الطمأنينة على الحياة البشرية؟ هل هذا مكر الحياة والتاريخ أم أنه نتاج إرادوية بشرية مغرضة؟

إن مسار التاريخ أصبح مرتهناً لمحطات أو أحداث كبرى مرت بها البشرية، تكاد تتوارى عن هذا المسار كل تلك المحطات التي كانت تحيل حياة الناس إلى السهولة والاطمئنان، في حين تبرز الأحداث التي شكلت قسراً لهذا المسار. فحروب نبوخذ نصر، وأعمال الاسكندر المقدوني، وفتوحيات الدولة الرومانية، أو أعمال هانيبال، والفتوحات الإسلامية، ثم الحروب الصليبية، واستعمار الغرب لشعوب العالم، والحربان العالميتان الأولى والثانية، وما يتبعهما من حروب ضد الإرهاب وضد أسلحة الدمار الشامل وفي سبيل حقوق الإنسان، وما بين هذه الأحداث من آلاف الحروب والصراعات، يؤكد تمركز حركة التاريخ حول العنف ومفاعليه.

ومن أبرز الشواهد في أيامنا على التمركز حول أحداث العنف، هو اعتبار أحداث الحادي عشر من أيلول محطة فارقة بين ما قبل أيلول وما بعد أيلول/٢٠٠١، وكذلك سيكون بعد حرب الخليج الثالثة، أي غزو العراق.

حتى الأحداث التاريخية الكبرى التي تعد أحداث إنقاذ للبشرية، يؤشر تاريخها إلى محطات تؤكد الولع باعتبار الأعمال العنيفة هي محط النظر ومولدة الحديث.

ولو طبقنا ذلك على الإسلام كحدث كان مجيئه تبشيراً بخلاص البشرية، فإن الغالب على تاريخه هي أحداث العنف والصدام. تعذيب المسلمين الأوائل، الهجرة، معركة بدر، معركة أحد، حنين، الأحزاب، تبوك، فتح مكة.... إلخ.

وفي تاريخه اللاحق: مقتل عمر، مقتل عثمان، معركة الجمل، صفين، مقتل علي، الفتوح، الثورة العباسية... إلخ.

لو جربنا أن نهمل من تاريخ هذه المرحلة أحداث العنف، ماذا سيبقى منها، كمؤشرات ومحطات تأريخية؟ كذلك بالنسبة إلى تاريخ البشرية!

هل نردد مع من يرددون أن العنف هو محرك التاريخ وهو قابلته؟ وإذا كان الأمر كذلك أليس هناك ظلم وتبخيس للمعاني الحقيقية للحياة، ولكل القوى الطامحة إلى أن تحياها بمحبة وبكل الخير متجاوزة إعاقتها؟

هل العنف والصدام هو الهدف المبتغى، أم أنه الوسيلة؟ وإذا كان كذلك فكيف تغيب الغاية الحقيقة للحياة، ولكل القوى الساعية إليها ويحل محلها، إحدى أقذر وسائلها على صفحات التاريخ؟

يقول د. عادل العوّا معرفاً العنف: ((العنف إذن ضغط جسدي أو معنوي، ذو طابع فردي أو جماعي ينزله الإنسان بالإنسان، بالقدر الذي يتحمله على أنه مساس بممارسة حق أقر به بأنه حق أساسي أو بتصور للنمو الإنساني الممكن في فترة معينة))(١)

ليس التفكير في العنف أو الحوار هو الذي فرض نفسه بشكل مستقل، إن الذي فرضه هو التفكير في مآل البشرية، وأهم الطرق التي عليها أن تسلكها لخلاص فاعل، إذا كانت الطرق التي سلكتها فيما مضى محكومة بالأعمال العنيفة الصدامية التي تركت بصمتها، ليس على الماضي فقط، بل كأنها أصبحت جينات حضارية، ليس للحياة إذا أصرت على الاستمرار إلا أن تتوارثها!!

في هذا السياق يأتي التبشير بصراع (صدام) الحضارات، وكأن مهمة الحياة هي تزويد التاريخ بسلسلة لا تنتهي من الصدامات وأعمال العنف دون الإفساح في المجال لأساليب أخرى.

إننا نختلف بداية مع هذا الرأي، لكن اختلافنا معه لا يمنع وجوده أو يلغيه، ولا يمنع سيطرته على ساحة التفكير في العقد الماضي ربما أكثر من أية مرحلة أخرى. ربما كان السبب في ذلك هو الحجر الثقيل الذي ألقاه صامويل هنتنجتون في بركة الفكر، فرجّها رجّاً لم تهدأ بعده!

لقد شاهدنا تنويعات على هذه المعركة سنمر عليها لاحقاً مثل مقولة جلبير الأشقر ((صدام الهمجيات)) التي هي عنوان كتاب له، ومقولة المفكر إدوارد سعيد ((صدام الجهالات)) وهي عنوان مقال له، ومقولة (صدام المصالح) التي نراها محركاً من محركات التاريخ، لا بل أهم محركاته وأكثرها فاعلية.

يقول جلبير الأشقر: ((يا له من تفكير معكوس ذلك الذي تمثل في إطلاق ((صدام الحضارات)) على ما هو، بصورة جلية جداً، ((صدام همجيات)).)) (٢)و((لكل حضارة همجيتها)) (٣) و ((كلما كانت حضارة ما أغنى وأقوى، كلما كانت همجيتها مؤذية أكثر)) (٤)

وإذا كان الأشقر يشير بكلامه أو بكتابه كاملاً إلى الصراع الذي دار بعد الهجوم على مركز التجارة العالمي بنيويورك بين أمريكا وما أطلقت عليه الإرهاب الذي صورته متمثلاً بالإسلام السياسي وأبرز ممثليه المنظمة التي يقودها أسامة بن لادن وحلفاؤه من الطالبان الأفغان، فما لا شك فيه أن إشارته ((صدام الهمجيات)) هي من التنويعات على ((صدام الحضارات)) لصاحبه هنتنجتون.

الملفت أن هذا العنوان أصبح يوجه حركة التفكير في العلاقات بين الأمم والشعوب، من خلال التعامل معه، والردود عليه، حتى أصبح الخروج منه محاولة لا تلبث أن تعود إليه من خلال الدوران حول الفكرة.

ومع أن العنوان ((صدام الحضارات - إعادة صنع النظام العالمي)) يدل على إرادوية فجة، لا بل تتسم بالوقاحة الفكرية كما تتسم أعمال أمريكا الذي هو ترجمان لها بالوقاحة السياسية، فلم يجد المفكرون والباحثون مناصاً من التعامل معه ومع الفكرة، لما شكلته من صدمة للفكر، ورجة لساحته، عندما يجدون أن النظام العالمي كما تحلم به قوى السيطرة يتطلب من يتبنى فكرة إعادة صنعه حسب متطلبات السطوة والسيطرة، وهذا ما أسسه هنتنجتون على أسس ثابتة - أو

حاول ذلك - حين قال: ((إن الثقافة والهويات الثقافية والتي هي على المستوى العام هويات حضارية هي التي تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة)) (٥).

كما يرى أن احتمالات العنف قائمة بين من ينتمون إلى حضارات مختلفة: ((الصراعات الأكثر ترجيحاً أن تمتد إلى حروب أوسع هي الصراعات القائمة بين جماعات ودول من حضارات مختلفة))(٦) ، واستقراء التاريخ لا يدفعنا إلى الانسجام مع هذا الرأي، لما سنبينه لاحقاً من أن الصدامات العنيفة تصنعها المصالح وتضاربها سواء بين المنسجمين أو المختلفين حضارياً.

كما أن رأيه حول أن الحضارة إذا كانت: ((مكونة من دول، فإن هذه الدول ستكون بينها علاقات أكثر مما بينها وبين دول من حضارات أخرى))(٧) لا يصمد أمام الامتحان، كما يبين استقراء العلاقة بين الدول العربية، ذات الوشائج العميقة والمتعددة، والذي يظهر أن علاقات هذه الدول بين بعضها - وفي أكثر الأحيان - لا تقاس بعلاقاتها مع الدول الأجنبية في حقول متعددة، وكذلك الأمر بين الدول الإسلامية ببعضها، فعلاقة تريكا بالغرب تفوق علاقتها بالدول الإسلامية، وعلاقة إيران بكثير من الدول الإسلامية غير جيدة، وعلاقة كوبا بأمريكا لا تتأسس على الود لاختلاف المصالح، ومثل ذلك كثير.

لم تكن خيبة الفكر، في اعتبار المقولة تمهيداً وتأسيساً وتثبيتاً لنوايا وأغراض، كما لسياسات وأعمال، فهذا معروف في التاريخ، أن يكون الفكر مطواعاً لقوى البطش وهادياً لها، إن الخيبة كانت في تهافت المقولة ذاتها، وفي فجاجة طرحها. فالدكتور محمد عابد الجابري يرى أن الانشغال بمقال صدام الحضارات الذي يتصف بكل ما يعتري المقال الصحفي من وجوه النقص، سواء على مستوى المادة أو على مستوى الصياغة، لم يكن له كل هذه المبررات.(٨)

وواضح أن حديثه قبل أن يتحول المقال إلى كتاب يستجر تعليقات أكثر حيث ينطوي على سلبيات أكثر.

كما ينقل الجابري عن ((باري بوزان)) الصحفي المرموق وأستاذ الدراسات الدورية في الجامعات البريطانية، رأيه بأن هنتنجتون لم يفعل سوى أنه قسم العالم إلى مركز وأطراف. (٩)

وهذا ما يذكرنا بمقولات د. سمير أمين، لكن من الاتجاه المقابل.

الوضع في العالم يبدي تنافراً شديداً، لوضوح الاصطفافات وما تولده قبالتها من ردود أفعال، بل ما تولده من حالة كارثية أحياناً، تخفيها الأحداث والأطماع تحت الوجه الناعم لما يظهر على السطح، يقول د. علي نوح: ((إذن نحن نعيش عصر العولمة والأصوليات في آن معاً. وبالتالي نحن نسير باتجاه القطيعة المعرفية والثقافية أكثر مما نسير نحو الحوار والتفاعل، رغم ما قيل ويقال عن تحول العالم إلى قرية صغيرة بفعل ثورة المعلومات أو المعلوماتية))(١٠) وواضح ما في جمعه بين العولمة والأصوليات من تناقض يتربص بالعالم والحضارة.

إن كتاب هنتنجتون هو تكريس للأصوليات وشرعنة لها بإكسابها الأبعاد الحضارية من جهة، وإكسابها الأبعاد الدولية سياسياً وفكرياً، إنه كتاب ينضح بالخدمة للأصولية الغربية كما سنرى. وفي هذا ما فيه من ردود على منطق العولمة، وهذا ما سنعود إليه لاحقاً أيضاً.

إنها تعيد تكريس منطق العزلة لدى الحضارات، وهو ما أشار إليه شبنجلر الذي رأى أن روح الحضارات هو العزلة فالانغلاق، إذ أن الإنسان في حضارة بعينها لا يستطيع بأي حال أن يفهم لغة الحضارة الأخرى وما ينطق به مصير الآخر. (١١)

ومع أن هذا الكلام لا يصمد أمام النقد التاريخي والعلمي الرصين، فلا يزال يعاد طرحه وإنتاجه لأغراض واضحة الشبهة، وأصحابه يضربون بكل تجارب الشعوب والتواصل بينها عرض الحائط.

من هنا تأتي أهم مساوئ ما يطرحه هنتنجتون، فهو هنا صوت الشيطان المؤذن بالخراب والشر، عندما يصبح صوت القوى المبشرة والساعية للهيمنة والتسلط، مضحية بتراث عالمي كبير من الحوارات والتواصل في سبيل مصالحها.

لقد فرض هنتنجتون منذ عام /١٩٩٣/ قناعاته ورؤاه لواقع العالم ومستقبله، على مساحة التفكير الاستراتيجي والعلاقات بين الشعوب والحضارات والدول.

والمجموعات والتجمعات على مستوى العالم. لقد وضع الحضارات التي أثبتت تعاونها عبر التاريخ لبناء العالم على الصورة التي نراها اليوم، في وضع تناحري، يتنكر الناس فيه لبعضهم وينتقلون من ساحة القبول والوئام إلى عالم التنابذ والكره.

لم يكن العالم يوماً من صناعة هنتجتون ومن يمثل، ولا من تطبيق شخصية أو حضارة ما، بالرغم من أن البشرية عبر تاريخها أنتجت شخصيات عملاقة لا حصر لها في مجالات التنظيم والقيادة.

كانت كبريات الشخصيات تفرض رؤية مهيمنة، دينية أو دنيوية، على فئة من الناس ومساحة من الأرض تكبر أو تصغر، وآثار هذه الشخصيات من الأنبياء والقادة الزمنيين باقية تدل على أهميتهم وأهمية ما قدموه للبشرية عندما أصبحوا عامل توحيد لمجموعات بشرية تهتدي بتفكيرهم ورؤيتهم للحياة.

ولقد أثبتت هذه التجمعات قدرتها على التضافر والتعاون لبناء العالم الذي نعيش، كما أثبتت قدرتها على تحييد العناصر الصانعة للفرقة عندما تحتاج البشرية أن تعيش بوئام، بالرغم من الكثير من الصراعات الجزئية المحدودة أو الواسعة التي خاضتها البشرية والتي كانت تعكر صفو العلاقات الدولية، لكن سرعان ما كانت القوى التي تغلب مصالح البشرية جمعاء على مصالح الفئات التي تصطنع الحروب والنزاعات، وتعود البشرية إلى سيرتها في تكريس مناخات التعايش والتصالح واستبعاد عناصر الفرقة والتناحر.

هناك عادات تختلف بين الشعوب، وهناك قناعات وتفارقات تبرزها الأيام والأحداث توحي بأن التباعد بين جزئيات إنسانية أو وحدات بشرية، هو من الصلابة بحيث لا تقدر عليه الأيام، لكن الزمن يظهر أنه كفيل بتغيير ما من مواصفاته الثبات والصلابة. يورد الفيلسوف كارل ربوبر عن هيرودوت - أبو التاريخ - أقصوصة شائقة وإن كانت بشعة إلى حد ما، عن ملك الفرس ((داريوس الأول)) الذي أراد أن يلقّن الإغريق المقيمين في إمبراطوريته درساً. وكان من عادة الإغريق أن يحرقوا موتاهم، ونقرأ في كتاب هيرودوت أن داريوس ((استدعى الإغريق الذين يعيشون في بلاده، وسألهم عن الثمن الذي يرتضونه كي يلتهموا أباءهم حين يتوفون. فأجابوه أن لا شيء البتة على ظهر الأرض يمكن أن يغريهم بفعل هذا. حينئذ استدعى

داريوس الكلاتيين الذي يأكلون آباءهم بالفعل، وفي حضور الإغريق بمعونة من يترجم لهم، سأل الكلاتيين عن الثمن الذي قد يرتضونه لكي يحرقوا جثث آبائهم حين يتوفون. فكان أن تعالت صرخاتهم وناشدوه ألا يذكر مثل هذه الشناعة))(١٢).

ومع ما لهذه الحكاية من دلالة في التمترس في المواقع والحفاظ على العادات، فإن الأيام كانت كفيلة بأن ترقق حواشي العادات، وأن تتغير هذه الأفعال الشنيعة بدون تدخلات أو قسر عبر حوار المجموعات البشرية التي تساهم في تناقل وصيانة القيم الحضارية.

لا تستطيع أية مجموعة بشرية (حضارة) الادعاء أن العالم من صنعها، وأن ما وصلت إليه البشرية يحمل توقيعها وحدها أو بصمتها المنفردة. إن ما وصلت إليه البشرية هو بتوقيع مجموع الشعوب التي مرت على مسرح الحياة في هذا الكون حسب أقدارهم ومكانتهم وأدوارهم، لقد كانوا سماداً للتاريخ (حسب تعبير غرامشي) جعله يخصب بواسطة قيم (العمل).

لماذا يحاول هنتنجتون أو غيره من منظري الجماعات فرض رؤية أحادية على المتعدد، ويغلبون التناحر على المسالمة؟

لا شك أن في ذلك مصالح لقوى يمثلها هؤلاء، وبنظرة متفحصة نرى أن من له المصلحة في خوض صدام ما، هو من يرى نفسه قادراً على انتزاع النصر، حتى ولو كان هناك وعي أو تفهم بأن الصراعات المسلحة لا تجلب المنافع في حصيلتها النهائية، بل إنها كفيلة بجلب الكوارث والمآسي على المستويات الفردية والجماعية.

إن التحدث باسم القوة الأمريكية المتغطرسة يظهر دون مواربة في دعوة الولايات المتحدة إذا أرادات الحفاظ على (مصالحها)، إلى اتخاذ إجراءات في وجه السيناريوهات المحتملة للصراعات على مستوى العالم والتي يقدم بعض النماذج لها، فهنتنجتون يرى أنه للحفاظ على الحضارة الغربية في وجه القوة الغربية (المتدهورة) يصبح من (صالح) الولايات المتحدة والدول الأوروبية:

١ - تحقيق تكامل سياسي واقتصادي وعسكري.

....

٤ - كبح القوة العسكرية التقليدية وغير التقليدية للدول الإسلامية والصينية.

....

٧ - المحافظة على التفوق التكنولوجي والعسكري على الحضارات الأخرى.(١٣)

أخلص من هذا إلى الإشارة بأن الحديث يتم باسم (صالح الولايات المتحدة والدول الأوروبية) بشكل واضح وصريح. هذا الفكر والتنظير والتبشير بالخراب والدمار المستقبلي، والذي ينتج عن علاقة الحضارات التي عرفت كل أشكال التعاون، يتم لمصلحة جهة ما أو حضارة ما، لتبرير تسلطها وهيمنتها، ولإقناع العالم أن سيادة الهمجية الأمريكية، وسعيها لجعل العالم، وخاصة بلادنا العربية والعالم الإسلامي حطاماً يسهل عليها إعادة تشكيله، هو قضية مبررة، بل وتساير منطق الحضارات (المصطنع) في أن على الأقوى أن يحطم الأضعف كي يكتب له البقاء بطمأنينة ودون منغصات.

إن تقزيم الآخرين في سبيل الحصول على القوة المطلقة من دون منافسة، ليس سمة من لا تعاني قوتهم كدراً، ولا يخافون من أي جانب ضعف فيها. إن تقزيم الآخرين يؤكد عدم قدرة الذات على التسامي والارتفاع، بالتالي لا تكون الذات كبيرة إلا إذا كان الآخرون صغاراً، ولهذا تعمل أمريكا على تصغير الآخرين وتحطيمهم، لأن هناك استشعاراً لعوامل تنخر لب الحضارة والمجتمع الأمريكي يصرح بها هنتنجتون، وهو يؤكد: ((في عالم الصدام الحضاري والإثني الناشيء، يعاني اعتقاد الغرب في عالمية ثقافته من ثلاث مشكلات: فهو اعتقاد زائف، ولا أخلاقي، وخطر))(١٤) كما يورد رأي الفيلسوف الياباني(تاكيشي أومي هارا): ((بأن الإخفاق التام للماركسية.. والتفكك الدرامي للاتحاد السوفييتي ليسا سوى نذر لسقوط الليبرالية التي هي تيار التحديث الرئيسي... وستكون الليبرالية هي حجر الدومينو الذي عليه الدور في السقوط)) (١٥)

ويعتبر هنتنجتون أن ما هو أهم من النواحي الاقتصادية والسكانية، وهو مشكلات الانهيار الأخلاقي والانتحار الثقافي والتفكك السياسي في الغرب. وإن تجليات الانهيار الأخلاقي التي يشار إليها غالباً تتضمن:

١ - زيادة في السلوك غير الاجتماعي مثل الجريمة وتعاطي المخدرات و أعمال العنف بشكل عام.

٢ - التفكك الأسري.

٣ - التدهور في الرأسمال الاجتماعي أي عضوية المؤسسات التطوعية.

٤ - الضعف العام في أخلاقيات العمل وصعود توجهات الانغماس الذاتي.

٥ - تناقض الالتزام بالتعلم والنشاط الفكري، ويظهر ذلك في المستويات المتدنية للتحصيل الدراسي في الولايات المتحدة. (١٦)

هذا الكلام بحرفيته يقوله هنتنجتون، وفيه ما فيه من إيحاء باستشعار نقاط ضعف وسقوط، ونذر شؤم على حضارة تتسيد العالم وتدعي تفوقها. إن هذا الشعور بالتفوق كما يسميه صاحبه هو شعور زائف إلى حد ما، وللتعويض لا بد من تقزيم الآخرين.

إن الإنسان العادي لا يبدو عادياً بين العمالقة، بل يبدو عادياً بين العاديين أمثاله، ولكي يبدو عملاقاً لا بد أن يكون بين الأقزام.

هكذا يبدو السعي لتقزيم الآخرين وتحطيمهم ضرورة، عكس ما فعله مفكرون غربيون آخرون، مثل ول ديورانت وروجيه عارودي وغيرهم ممن درسوا الحضارات.

هوامش الفصل

١ - د. عادل العوا، التسامح-من العنف ـ إلى الحوار، دار الفاضل، دمشق، ط١/٢٠٠٢ ص١١٤.

٢ - جلبير الأشقر، صدام الهمجيات ـ الإرهاب، والإرهاب المقابل والفوضى العالمية قبل ١١ أيلول وبعده، نقلة إلى العربية: كميل داغر، راجعه: المؤلف، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١ أيلول /٢٠٠٢/ ص ٨٩

٣ - المرجع السابق ص٩١.

٤ - المرجع السابق ص ٩٢.

٥ - صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات ـ إعادة صنع النظام العالمي، سطور، ط٢ /١٩٩٩/ ص ٣٧.

٦ - المرجع السابق، ص٤٨.

٧ - المرجع السابق ص٧٠.

٨ - د. محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١ /١٩٩٧/ ص ٨٤.

٩ - المرجع السابق ص ٨٧.

١٠ - د. علي نوح، مقال بعنوان: العالم المعاصر في حوار أم صراع حضارات؟ ، مجلة المعرفة، العدد /٤٧٣/، شباط ص٩٦.

١١ - أديب ديمتري، نفي العقل، كنعان للدراسات والنشر والتوزيع، ط١/١٩٩٣/ ص٢٣٢.

١٢ - كارل ر. بوبر، أسطورة الإطار ـ في دفاع عن العلم والعقلانية، تحرير: مارك أ. نوترنو، ترجمة: أ.د. يمنى طريف الخولي ـ سلسلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت، عدد: إبريل/مايو/٢٠٠٣ رقم /٢٩٢/ ص ٦٢.

١٣ - صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، مرجع سابق، ص ٥٠٤.

١٤ - المرجع السابق ص ٥٠٢.

١٥ - المرجع السابق ص ٤٩٥.

١٦ -المرجع السابق ص ٤٩٦.

الذات العملاقة والآخر القزم

كل الحضارات الكبرى عبر التاريخ اعتبرت نفسها مركزاً للكون عندما كانت في حالة من التسيّد والعنفوان. ولا يزال أبناء هذه الحضارات يخامرهم الشعور بذلك. ويعبرون عنه، خاصة عندما يشعرون بالحاجة إلى التعويض عن الواقع الرديء الذي لا يشاكل الماضي المجيد ولا شك أننا كعرب خير من يمثل هذه الحالة، فلا يزال تاريخنا ملاذاً لنا ونموذجاً يستعاد تعويضاً عن حاضر فرّطنا به وفشلنا في تجييره لصالحنا. فـ ((الأنوية الحضارية هي ملازمة لكل أشكال الحضارات، ليس ثمة حضارة قامت في التاريخ لم تنظر لنفسها وكأنها مركز العالم)) (١)

إن الشعور بانتفاخ الذات انتفاخاً حضارياً يستتبع النظر إلى الآخر باعتباره قزماً، وعند هذه النقطة توضع حجر الأساس للصدام، فالكبير يرى أن من حقه أن يزيح الصغير عن طريقه لأنه لاحق له أولا تتيح له امكاناته منافسة أو مزاحمة الكبير، بالتالي عليه آن يتطوع في خدمته أو يلاقي مصيراً بائساً.

إذن، حالة الغرب الحالية، أي الإفراط في التمزكز حول الذات، ليست حالة فريدة في التاريخ، لكنها الأكثر جبروتاً وعدوانية وتغطرساً، بل الأكثر تمدداً وشعوراً أنه من حقها أن تكون كذلك، ومن واجب الشعوب، بل من الأضمن لها ولسلامتها، ألا تكون في حالة من المواجهة مع هذه الذات المتمددة والمتغطرسة والمتسحلة بكل عناصر التفوق والقهر التي لم تكن تمتلكها أية حضارة أخرى كما تمتلكها

الحضارة الغربية التي عملت على توسيع حاجات الناس، وعملت على التحكم بإشباع هذه الحاجات.

ويبدو أن مثل هذه الذات المتغطرسة، لا تشعر أن لعنفوانها بداية أو نهاية، وإذا شعرت بأن هناك بداية فهي أبعد عن الشعور بأن هناك نهاية. يترجم هذا الشعور إغلاق حركة التاريخ والحياة بعد أن وصلت إلى مالا مطمح بعده، حسب نظرية فوكوياما ((نهاية التاريخ))، وتأبيد الديمقراطية الليبرالية كملاذ للبشرية إذا أرادت البقاء.

الحضارات وملء الفراغ

تقوم الحضارات على التعاقب، فترث اللاحقة السابقة. والوراثة لا تعني أن الموروث مات وانتهى، فالحضارات ليست جسماً مادياً حياً يتفسخ، إنها قيم ومعاني ورموز تعمل على مبدأ التراكم، وهذا ما به تقوم الحضارات فتسمى حضارات، إذن عندما يبقى هذا يعني أن الحضارة باقية حتى ولو مات ناسها، ولم تعد قيمها ورموزها ترضي طموح الحياة، لكنها تبقى في صميم لاحقاتها من الحضارات. فلا بد للحضارة اللاحقة أن تتمثل وتطوي في حركتها الصاعدة ما سبقها من قيم وخبرات الحضارات السابقة. يقول أدونيس: ((إذا لم تر في المركبة الفضائية الدولاب السومري فأنت لست حديثاً))(٢) .

لا تبدأ الحضارة الجديدة من البداية، بل تبدأ من حيث انتهت إليه سابقتها على مبدأ التراكم.

ولو لم يحدث ذلك لما حدث التطور، ولا تكون الحضارة حضارة ما لم تستثمر ما وصلت إليه سابقاتها وتضيف إليه مما تستطيع ابتكاره، وإذا لم تبتكر جديداً فلا تستحق اسم حضارة، لأنها تعيش على وبما أوجده غيرها، مما لا ينتسب إليها. فكيف تكون حضارة وليس لها ما به تكون حضارة؟!

إذن، العاملان الرئيسيان في أية حضارة لتستحق هذا الاسم:

١ - الموروث القادر على الاستمرار، أي العطاء في المستقبل.

٢ - تطوير هذا الموروث والانتقال منه إلى ما هو أفضل.

وفي الدليل على ذلك نشير إلى أن السومريين هم أول من أوجد كتابة في التاريخ، كما أوجدوا العجلة والمحراث والنظام العشري، وقسموا الدائرة إلى /٣٦٠/ درجة، وقسموا السنة إلى ٣٦٥ يوماً، ووضعوا أسس الرياضيات والفلك وبنوا المعابد وأسسوا نظم الحكم والإدارة وصاغوا الشرائع المكتوبة. (٣)

وإلى المعنى ذاته تشير د. نجاح كاظم، فتقول: ((ونجد الإشارة إلى أن النظام الستيني (تقسيم الساعة إلى ٦٠ دقيقة وغيرها) ثم تطويره من قبل السومريين والبابليين في حضارة وادي الرافدين، وتقسيم اليوم إلى ٢٤ ساعة تم تطويره من قبل الفراعنة في مصر القديمة. أما جهاز الساعة فقدتم تطويره من قبل العباسيين في بغداد)) (٤). على هذه الأسس وبالعمل على تطويرها من قبل اللاحقين، وهكذا بالتتابع والتوارث والتطوير نصل إلى ما نراه ملء العقل والبصر في عصرنا هذا.

والسؤال الذي يخطر على البال: ماذا كان سيحصل لو أنه كان على كل حضارة أن تبدأ بتجاربها لإيجاد ما أوجده السومريون وغيرهم مما استغرق آلاف السنين، ليمحي من جديد وتبدأ غيرها بداية جديدة؟ هل كنا غادرنا البدايات؟

يظهر هذا الكلام بعض التعارض أو الرد على ما طرحه إدريس هاني، الذي يرى: ((أن أنسب عنوان للحوار، هو الحوار الحضاري بين الثقافات. وليس ثمة على الإطلاق شيء اسمه الحوار بين الحضارات، لسبب بسيط هو أنه ليس ثمة حضارات تتعاصر في آن واحد.... الحضارات لا تتحاور، الحضارات تتناوب)) (٥) ويرى أن ((لغة الإنتاج والإبداع والصنائع، هي لغة الحضارة السائدة منذ اكتشف الإنسان النار. فالقول بـ ((الحوار بين الحضارات)) جهل مركب بالحضارة، و((الصدام بين الحضارات))، سالبة لانتقاء الموضوع))(٦) فهو لا يرى أنه يوجد في العالم أكثر من حضارة واحدة هي المتغلبة والسائدة، والحضارات التي مرت سابقاً تحولت بفعل الزمن إلى ثقافات (تراثات).

لكن، إذا لم تكن هناك حضارات بالقوة ذاتها تتعايش في وقت واحد، فهذا لا يعني أن الحضارات الأخرى أو السابقة غير موجودة، إن ما هو موجود منها، هو ما به كانت وتكون حضارة، ولولاه لما سميت كذلك، وهذا عندما يكون في

حالة احتكاك مع قادم جديد، فإن الحضارة التي ينتمي إليها تكون موجودة وفي حالة حوار مع القادم الجديد. وهذا من أكبر أدلة حوار الحضارات وتوارثها لبعضها. وأيضاً هذا ينفي عن الثقافة أنها تعني ما لم يعد حياً في الحضارات، أي ما أصبح موروثاً خارج الاستعمال كما يفهم من كلام هاني.

صحيح أن توالد الحضارات ووجودها يمكن أن يطبق عليه مبدأ أصراع النقائض، المولد للجديد، وإن من سنن الحياة أن يتوارى ما لا يثبت جدارته وقدرته على البقاء، ليحل محله ما هو أجدر بالحياة وتطويرها، سواء على مستوى الحضارات العام أو على مستوى جزئيات كل حضارة. هذا ما نقصده بملء الفراغ الحضاري والبقاء للأجدر والأقوى حسب دوران. و ((الحضارة كالحياة، تفني ما بلغت به حد الكمال)) كما يقول ديورانت.

إن قانون ملء الفراغ يقضي بأن يحل الأقوى مكان الأضعف، أن تعمل حضارة ما بقوانينها ومعطياتها الداخلية على سد فراغ ناشىء عن قصور أو ضعف غيرها، فضعف تطور العلوم عند العرب في العصر الحديث أوجد فراغاً هائلاً لديهم بالنسبة إلى أمم أخرى، فكان تمدد العلوم الغربية لملء الفراغ أمراً طبيعياً وتلقائياً وضرورياً ولا يمكن وصفه بالمؤامرة، التي دأب البعض على ترديده. فالمؤامرة فعل سياسة لا فعل حضارة، يتطلب تواطأ وتوافق طرفين، والأمر لا يعدو كوننا في حالة من الضعف يجعلنا نصف سعي الآخر للهيمنة وتحقيق الذات أنه يدخل في باب المؤامرة، والحقيقة أن فراغاً حضارياً حصل عندنا فتمدد الغرب وسد هذا الفراغ برضانا وفعلنا وتحت أعيننا، وإذا لم يكن لدينا ما ندفع به الآخرين فلا يعني أنهم متآمرون علينا وأننا ضحيتهم، نحن ضحية ضعفنا لا ضحية مؤامرات موهومة.

إذا كنا نصف مثل هذا بأنه مؤامرة على العروبة والإسلام، فعلينا أن نصف فعلنا عندما سيطرنا على مواقع الكثير من الحضارات والشعوب، وشمل انتشار الحضارة العربية الإسلامية الغرب بعد إحكام القبضة على الأندلس، بأنه مؤامرة دبرناها ونفذناها بحق هذا الغرب البريء. بل وبحق غيره من الشعوب التي شملها التمدد الحضاري للعرب والإسلام. إن ديناميكية صعود الحضارات وزوالها لا تتوقف، سواء شاء فوكوياما أم لم يشأ.

الحضارة لا تنشأ من فراغ كما بينا، بل ترث ما قبلها وتعمل على تطويره، فإذا كانت قفزاتها الحضارية قفزات واسعة، بدا الفارق بين الموروث والمتحصل كبيراً فكأن هناك قطيعة، لكن الحقيقة أن حسن التعامل مع هذا الموروث هو الذي كان بمثابة المحرض والدافع الذي اختزن إمكانية الانطلاق منه. من هنا نرى تأكيد أكثر الحضارات على ارتباطها بماض ما وحسن تفعيل هذا الماضي والافتخار بهذا التفعيل وبالقيم المختزنة التي كانت عامل دفع نحو التجاوز.

الدكتور صلاح قانصوه في مقدمته لترجمة كتاب ((صدام الحضارات)) يتحدث عن الخصائص الحضارية التي يزعم هنتنجتون أن الغرب يتميز بها فيجعل في مقدمتها، التراث الكلاسيكي، (تراث اليونان والرومان) والمسيحية الغربية (الكاثوليكية والبروتسنانية دون الأرثوذكسية) واللغات الأوروبية، كل هذا أدى إلى ما لحق ذلك من الفصل بين السلطتين وحكم القانون والتعددية الاجتماعية والنزعة الفردية... إلخ. (٧).

ويشير هنتنجتون إلى أن احتكاك الآخرين بمثل هذا التراث الذي احتكت به شعوب الغرب، كان احتكاكاً عقيماً وغير خلاق، وحده الغرب عرف كيف يفجر هذا التراث ويحفز قوى النهوض والتطور فيه، يدل على ذلك إشارته إلى احتكاك الإسلام بالفكر اليوناني دون أن يؤدي ذلك إلى مثل ما حدث في أوربا، مشيراً إلى أن مثل هذا الأمر سمة للحضارات الأخرى، يقول: ((استيعاب الصين للبوذية الهندية، كما يرى الباحثون، لم ينجح في ((تهنيد)) الصين الصينيون طوعوها لأهداف واحتياجات صينية وظلت الثقافة الصينية صينية كما هي. وإلى يومنا هذا هزم الصينيون كافة المحاولات الغربية المضنية لتحويلهم إلى المسيحية... وبالمثل استقبل العرب التراث الإغريقي وثمنوه واستخدموه لأسباب منفعية أساساً.. إلا أنهم عرفوا أيضاً كيف يتغاضوا عن كافة عناصر الفكر اليوناني التي قد تؤدي إلى صراع (الحق المبين) في مبادئهم وتعاليمهم القرآنية)) (٨).

إن الإشارة إلى استخدام الفكر اليوناني من قبل العرب لأغراض منفعية يعني عدم قدرتهم اكتشاف واستخدم ما يختزنه من طاقات عرف الغرب كيف يوظفها

في سبيل النهوض الحضاري، ويعزو ذلك إلى التعارض مع العقيدة. كل هذا للتأكيد أن الغرب وحده هو المؤهل وهو الذي استطاع تفجير الطاقات التي يختزنها هذا التراث، بالتالي يصبح من حقه أن يشير إلى أن : ((مفهوم الحضارة العالمية إنتاج مميز للحضارة الغربية)) و((في نهاية القرن العشرين فإن مفهوم (الحضارة العالمية)) يساعد على تبرير بسط السيطرة الثقافية الغربية على المجتمعات الأخرى وحاجة تلك المجتمعات إلى تقليد الممارسات الغربية)) (٩) إن هذه الدعوة تذكرنا بدعوة شارل مالك لـ ((الدخول في حذاء الغرب))

قبل هنتنجتون يتحدث من هو أرفع مقاماً وأعلى كعباً في مجال الفكر والفلسفة عن أن الذروة الحضارية الغربية هي ثمرة طبيعية لما ورثته عن اليونان والرومان، يقول الفيلسوف كارل بوبر متحدثاً عن تفاؤلية العقلانية الإغريقية، تفاؤلية العقلانية في عصر النهضة - تفاؤلية العقلانية الأوروبية، مشيراً إلى جذور العقلانية الأوربي لدى اليونان، مما لا نجده عند غيرهم ((وهذا هو ما أسميه التفاؤلية الأبستمولوجية، وأحسب أن وجود هذا الاتجاه التفاؤلي مقصور على أوربا في قرنين أو ثلاثة للعقلانية الإغريقية وثلاثة قرون أو أربعة للنهضة الأوروبية الأمريكية))(١٠). وقد عقبت المترجمة أ.د. يمنى طريف الخولي بقولها:((هذه الثورة الأوروبية أو الغربية الفارغة لا تنم إلا عن جهل بوبر المطبق بذخائر الحضارات الأخرى...))(١١) وتقول الاستاذة المترجمة في المقدمة التي تكتبها لترجمتها كتاب بوبر ((أسطورة الإطار)): ((إن قيم التنوير في الفلسفة الغربية تمثلت في طريق التقدم الواحد والوحيد الذي يرسمه العقل والذي قطعه الإنسان الأوربي باقتدار، ومن حقه وواجبه أن يفرضه على الشعوب الأخرى المختلفة طوعاً أو كرها)) وتقول عن بوبر الذي يعد آخر التنويريين العظام أنه لم يبرأ من وصمة الفكر الاستعماري ((ويناقش أحياناً حق الدول المتقدمة بل واجبها في فرض وصايتها على الدول المتخلفة ولتفكر ملياً: هل تعطيها الحرية أم ليس بعد!)) (١٢)

هل هناك تمركز يفوق هذا؟ وهل يؤسس هذا التمركز للصدام أم لا؟

تبرز النرجسية الغربية واضحة، لا بل يتجاوز هنتنجتون حدود النرجسية إلى حد إبراز الآخرين بصورة أقزام، متغافلاً عن أن مستوى التطور العام في زمن اتصال

العرب بالفكر اليوناني لم يكن يسمح بالوصول إلى ما وصلت إليه أوربا نتيجة هذا الاتصال، وينطوي هذا الموقف على اعتبار التراث اليوناني متفوقاً على غيره من تراثات الشعوب الأخرى، بالتالي إن اعتماد الحضارات الأخرى على هذا التراث للنهوض، سيعطيها ميزة على غيرها وهذا واضح في الكثير من أدبيات الغرب وغير الغرب، مع أنه ينطوي على تبخيس الحضارات الأخرى وتراثاتها.

إذا كان من الممكن القول إن التراث اليوناني لم يعد منذ الأزمنة القديمة حكراً على الأوروبيين، بل ربما أخصب في غير بلادهم، فقد كان هذا التراث الفلسفي بحاجة إلى رجل كابن رشد لشرحه وتقديمه حتى للأوروبيين بعد أن يضيف إليه ويغذيه بشحنات عربية إسلامية. لكن الأوروبيين يضيفون هذا التراث إلى غيره مما أوجدته الحضارات التي طورها أوربيو العصور القديمة، ليعلنوا عن احتكار كل هذه الميزات مجتمعة حتى ولو ظهرت متفرقة كعوامل مساعدة في حضارات أخرى، يقول عبد الله العروي: ((إذ بقدر ما تتسع وتتضمن الدراسات التاريخيه، بحثاً عن جذور ما يتقوى اقتناع الأوروبيين بأن حضارتهم تمتاز بالخصوصية التالية: العقل اليوناني، القانون الروماني، الفيودالية الجرمانية، الأخلاق المسيحية، استقلال المدن، التقشف البروتستانتي، الولع بالتقنيات والعلوم. يقر الدارسون الغربيون أن هذه العناصر توجد مجتمعة في الحضارة الأوروبية ولا توجد متلازمة إلا فيها، حتى وإن وجدت متفرقة في سواها)) (١٣)هكذا إذن تتخلق ذات حضارية متفوقة يحق لها أن تكون قدوة تقود الآخرين.

إن هذا التمركز الغربي عمل على تثبيت فكرة ((الغرب الأبدي)) المضاد لـ ((الشرق الأبدي)) من أجل تأكيد عناصر التطور المستمر في الغرب وغلبة عناصر الثبات في الشرق(١٤).

استبعاد الآخرين:

إن فكرة حضور الذات المتفوقة الطاغية والعظيمة، تنطوي على فكرة عدم قدرة الذوات الأخرى على التسامي و المنافسة، بالتالي البقاء في حالة فراده، وحالة

الفرادة هذه تشير إلى أن كل ما حول الذات المتفردة وما يرتبط بها ماضياً وحاضراً ولاحقاً يجب أن يتصف بالتميز والتسامي، لهذا: ((أقام الفكر الغربي المتمركز حول ذاته تعارضاً بين اللغات والشعوب الهندية الأوروبية من جهة، واللغات والشعوب السامية... وتم إقرار التضاد الآتي: إن ((الأوروبيين)) المتحدرين عن الجنس الإغريقي يتسمون بميل فطري إلى ممارسة الحرية والعقل، بينما يتصف (الشرقيون) باستمرائهم العبودية، وعجزهم عن الممارسة العقلية الصحيحة)) ويعد غوبينو أبرز دعاة هذه النظرية.(١٥)

إن ترزيل الآخرين واستبعادهم من حيِّز القيم الحضارية، هو أول ماتبرزه العنصرية والمركزية الغربية، ومثل هذا النهج لا يستطيع قيادته إلا المفكرون والقادة، ويجري استثمار ذلك في تبرير السيطرة على شعوب العالم، فـ ((غوبينو يقول: ((الفحص الأول يبرز واقعة هامة: العرق الأبيض لا يظهر قط في الحالة البدائية التي نرى فيها العروق الأخرى)) وينقل د. عبد الله ابراهيم عن (فولتمان) قوله: ((العرق الشمالي هو بالجوهر مستودع الحضارة الأمين)) وغوبينو يقول كذلك: ((إن المسيحية هي أعلى تظاهر للثقافة)) في حين اعتبر ((رينان)) أن اللغات الهندية الأوربية بلغت درجة الكمال، بينما اللغات السامية شنيعة التركيب))(١٦)

هذا وغيره أدى بالمركزية الغربية إلى أن لا تقدم رؤية للعالم فقط بل قدمت مشروعاً سياسياً هو: ((مشروع تجانس الانسانية المستقبلي من خلال تعميم النموذج الغربي، وخطورة هذا المشروع أنه سوغ منطقياً التوسع الغربي، واحتلال العالم، وإبادة الحضارات وأحياناً إبادة شعوب بأكملها)) (١٧)

لا عجب إذاً أن نرى هنتنجتون وريث كل هذه الغطرسة والغرور والتمركز، يرى أن الحضارات تتصادم لأن المشروع الغربي قد طال أمده ولم يحسم المعركة مع العالم الآخر، فلا بد من الصدامات لتحقيقه، خاصة أن الغرب لا يزال يرى أن مشروعه يتعزز ويكتسب الأحقية في الوجود كما يرى فوكوياما.

يبدو أن المشروع الغربي لا يكفيه تعميم نموذجه الحضاري الذي نراه في كل جزئية من جزئيات حياة الشعوب من النظرية السياسية وقاذفات القنابل إلى دبابيس

الورق وأحمر الشفاه، بل هو يريد العالم وآثار السياط الغربية بادية على جلده، حتى يتم إرضاء الغرور والنرجسية الغربية.

إن التمركز الغربي يقوم على استحضار وإبراز دونية الآخر، هذه الدونية تجعل التفريط به واحتقاره وحتى إبادته عملاً يكتسب شرعية حضارية، لأن الحياة حسب المشروع الغربي تليق بالسادة المتحصلين على الفضائل والميزات الغربية، من هنا نرى انخراط كبار مفكري الغرب بتبرير المشروع والتنظير له، فهيغل مثلاً يرى أن الشرق سحري وهو مجاز مركب من الخيال والخرافة والأسطورة والتأمل، وحكم على الشرقي بالثبات والسكون والذهول الدائم، حيث أول حكم يصدره بشأن الصين هو((ثبات الجوهر الصيني)). والهند في مخيلته لوحة رومانتيكية ملتبسة المكونات وغير واعية بذاتها، إنها ((بلد الشوق والحنين... عالماً ساحراً جذاباً)).

حتى ماركس ينخرط في رسم الصورة السلبية لشعوب الشرق وصولاً لتبرير الاستعمار، فيرى في الهند مجموعات رعوية كانت دوماً أساساً لنهوض الطغيان الشرقي، وإن انكلترا فجرت الثورة الاجتماعية في هندستان، بالتالي فإنها - كائنة ما كانت جرائمها - الأداة غير الواعية التي استخدمها التاريخ في إحداث تلك الثورة. وقال انجلز في احتلال فرنسا للجزائر : ((إن فتح الجزائر واقعة مهمة وموائمة لتقدم الحضارة... فإن البرجوازي المعاصر..... لأفضل من الولي الإقطاعي، أو اللص قاطع الطريق ومن الطور الهمجي في المجتمع الذي ينتميان إليه)) (١٨).

لقد اقتضى التمركز على الذات والنظرة الشوفينية الغربية المغلقة، تغييب فضائل الأمم والشعوب والأدوار الحضارية التي أدتها على مسرح التاريخ عن المناهج الدراسية للطلاب في المدارس والجامعات الأوروبية، وهذا عكس ما تفعله مناهج الأمم الأخرى التعليمية، كل هذا للإبقاء على الذات منتفخة ومحوراً، يقول عبد السلام الشدادي في لقاء مع جاك دريدا : ((إن طالباً يدرس الفلسفة في المدرسة العليا ((بفرنسا)) يتعلم كل شيء عن الفلسفة الغربية ولا شيء أو تقريباً لا شيء عن الفلسفة العربية، ولا عن الفكر النظري الهندي أو الصيني، ولا عن ((اللافلسفة)) اليابانية، وإن مفكراً غربياً حديثاً يعالج مشكلة الدين بوصفها مشكلة عامة

يظل مركزاً على التراث الفلسفي والديني الغربيين ولا يمتلك رد الفعل ولا المؤهلات الضرورية ليدمج في تفكيره التراث الوافر الغني للمجتمعات الأخرى))(١٩).

روجه غارودي قبل ذلك كان قد أشار في كتابه ((حوار الحضارات)) إلى أنه تخرج في أقسام الفلسفة بالجامعات الفرنسية دون أن يسمع عن الفلسفات العربية الإسلامية أو الهندية أو الصينية.

التمركز واستبعاد الآخرين ليس نتاج العفوية، إنه مخطط، حيث ينقل الشدادي ((وكما يذكر بذلك جان لوك نانسي، فإن أوربا بوسعها أن تعين لنفسها الأصول الأكثر تنوعاً، غير أنها تجهر دائماً بتأسيس ذاتي مطلق، والتأسيس الذاتي المطلق يعني انعدام الأب والأم، والنمو دون جذور ودون أرض والارتقاء إلى السماء دون سلم)) (٢٠). علماً أن هناك اعترافات غربية بلا علمية هذا التمركز وإلغاء دور الآخر في المساهمة بالتكوين الأوروبي، حيث يقول جاك دريدا ((وحدانية الأصل ستكون دائماً خدعة في تاريخ الثقافة)) كما ينقل الشدادي.(٢١)

الملمح الجرمي (الدموي) للمشروع الغربي:

كان الثمن الذي تطلبه المشروع الغربي في التمركز لكي يتحقق ويؤتي ثماره باهظاً، كان باهظاً إلى الحد الذي يصعب تصديقه، ويبدي تناقضه مع القيم التي أعلنها، وكانت أساليبه ونتائجه مثيرة للاشمئزاز، لقد كان ميكيا فيلياً أكثر من اللازم. إنه يتلخص بمفهوم ((الإبادة))، إبادة من لا يحقق وجوده نفعاً لهذا المشروع، أو يشكل عائقاً له. أما الوسائل فهي لطخة عار على صفحات التاريخ، والهدف هو الاستحواذ على العالم.

لقد لاحظ أدم سميث:(كان النجاح الأوربي ناتجاً عن تمكن أوربا من ثقافة العنف وانغماسها فيها) كما يورد نعوم تشومسكي(٢٢).

كما يعتقد كلاوس كنور أن الانكليز أكثر القوى الاستعمارية الأوربية ممارسة وتعمداً للإبادة وأن هدفهم النهائي هو إفراغ الأرض من أهلها وتملكها ووضع اليد على ثرواتها. (٢٣)

إنه مما يلفت الانتباه عبر التاريخ استعانة أصحاب المشاريع الكبرى صعبة التحقيق أو ذات الأثمان الباهظة، بالمبررات الدينية المطواعة وتجيير أعمالهم الخبيثة والإجرامية للدين وخدمة الآلهة.

يقول وليم براد فورد، حاكم مستعمرة بليموث مبرراً قتل الهنود الحمر: ((فمما يرضي الله ويفرحة أن تزور هؤلاء الهنود وأنت تحمل إليهم الأمراض والموت. هكذا يموت /٩٥٠/ من كل ألف منهم، وينتن بعضهم فوق الأرض دون أن يجد من يدفنه. إن على المؤمنين أن يشكروا الله على فضله هذا ونعمته)) (٢٤)

وفي ذروة وصف مفزع يقدمه ((توما أورتيث)) أحد الآباء الدومنيكان:((كما يمكنني التأكيد على أن الرب لم يخلق قط جنساً يفوقهم امتلاء بالرذائل والخصال الحيوانية، مجرداً من أي مزيج يجمع بين الصلاح والثقافة)) ويؤكد ((أوبيدو)) أنه لا يصح اختزال الهنود الحمر إلى مرتبة الحيوانات كالجواد والحمار، بل إلى الأشياء الجامدة كالخشب والحجر والحديد(٢٥). و((إن كولومبوس لم يستطع أبداً أن يعترف بأن للهنود ذاتية خاصة بهم. ولهذا فإنه اكتشف أمريكا إلا أنه لم يكتشف الأمريكيين)) (٢٦).

كل هذا من قبيل التبريرات الفكرية والعقدية التي جاءت مواكبة أو سابقة أو لاحقة لإبادة شعب، تقول آخر الإحصاءات إن مجموع من قتل منه على أيدي مستعمري أمريكا (المتحضرين) هو /١١٢/ مليون نسمة(٢٧).

أما عن الأساليب والأفكار الشريرة التي تم تطبيقها في عملية الإبادة، فحدث ولا حرج، إنها تبلغ في بشاعتها وقذارتها حد بشاعة وقذارة العقول التي ابتكرتها، وهذا أقل ما يمكن أن يوصف به مسيحيون (يدعون ذلك) ينتزعون طفلاً رضيعاً عن ثدي أمه الهندية ويرمونه إلى كلبهم الجائع الذي بدأ ينهشه على مرأى من أمه. أو يعملون على إبادة قبيلة هندية من مئات الأفراد فقط ليختبروا فيما إذا كانت سيوفهم قد شحذت جيداً(٢٨).

وكما أن المستعمر الغربي في أمريكا كان موعوداً بالجنة مقابل عمله في إبادة الهنود، مما يرضي الإله حسب رأي كهنتهم، فكذلك كان موعوداً بحياة مترفه في حاضره. فمن الابتكارات القذرة للتدليل على قتل الهندي أن يسلخ القاتل

فروة رأس القتيل كبرهان على عمله البطولي (النظيف)، وكان يتلقى على ذلك مكافأة مجزية تصل مائة جنيه لكل فروة وكانت تعادل أربعة أضعاف متوسط الدخل السنوي للمزارع في مستعمرات نيوانكلند. وكان بإمكان أي مستوطن عجوز أن يصطاد طفلين وثلاث نساء هنديات سنوياً ويتنعم بما لم يتنعم به جلالة الملك جيمس(٢٩).

إن الإبادة الحضارية الغربية للهنود الحمر هي المثال الأكثر وضوحاً بين عمليات إبادة لا حصر لها نفذتها هذه الحضارة، وكل هذه العمليات كانت مخططة ومدروسة لخدمة المشروع الحضاري الغربي، وتكاد عملية إبادة الهنود تماثل عملية نقل الأفارقة لخدمة السادة البيض الأمريكيين، والتي كان من نتيجتها ثلاثون مليون ضحية حسب التقديرات، باعتبار أنه لم يصل واحد إلى أمريكا من هؤلاء الأفارقة إلا وكان المفقود معه عدة أشخاص آخرين.

إن الكثير من الغربيين ممن تحسست ضمائرهم هذه الشناعات، هم الأبرز في الحديث عنها وتصوير فظاعتها، فنعوم تشومسكي هذا المفكر الغربي (الأمريكي) لا يتوقف عن الكتابة عن جرائم الغرب، خاصة الأمريكي فيحدث عن العشرات لا بل المئات من عمليات الإبادة التي بلغ مجموع ضحاياها عشرات الملايين من البشر تمريراً لمصالح أمريكية، ويعد كتابه ((سنة ٥٠١ الغزو مستمر)) نموذجاً لهذه الكتابات، فالكتاب المنجز سنة /١٩٩٣/ حيث كانت أمريكا قد اكتُشفت منذ خمسة قرون وسنة واحدة، يتحدث عن جريمة متواصلة من يوم اكتُشفت أمريكا وبدأت بغزو العالم، وهو ملحمة في وصف وهجاء الغزو الأمريكي للبشرية وفي التنديد والإشارة إلى المذابح والجرائم الأمريكية في مناطق مختلفة من الكرة الأرضية، لقد كان سبيلها إلى التفوق (الحضاري) إسالة أنهار الدماء في العالم.

ويتحدث محمد حسنين هيكل عن كتاب لمؤلف أمريكي آخر اسمه(ستانلي كارنوف) عنوانه (الإمبراطورية الأمريكية ربما صدر في أوائل القرن العشرين، يحكي صاحبه بالتفاصيل - سياسية وأدباً - حكاية التوسع الأمريكي في آسيا. منذ أواخر القرن التاسع عشر، مبرراً وحشية الدور الأمريكي في سبيل السيطرة، وما أوقعه من مآس، مثبتاً غياب الأخلاق والمشاعر الإنسانية وإهمال القيم في سبيل المصالح(٣٠).

ومن اللافت للانتباه أن يختار كارنوف لهذه الفصول عنوان: ((أمريكا تتجه إلى العولمة)). وهو يسبق تشومسكي بحوالي القرن في حديثه عن فظائع السياسة الأمريكية الغربية، وهو يسبق العولمة أيضاً بهذا القدر من الزمن، الفكرة التي يلتقي فيها مع تشومسكي هي أن أمريكا تحطم العالم لوضعه في جرابها.

لاشيء يرضى صاحب هذه الحضارة الجديدة كما يرضيه منظر القتل والدماء ولا شيء يشعره بالنشوة والقوة كما يشعره ذلك، لهذا السبب فقد كان المستعمرون يسخرون من مفهوم الحرب عند الهنود، إذ يمكن أن يحاربوا سبع سنين دون أن يسقط بينهم سبعة قتلى (٣١). هل يجب بالضرورة أن ترتبط الحضارة بالدماء؟!

مما لا شك فيه أن المثال الأبرز لسلبية وسوء السياسة الغربية المغرقة باستعلائها ونظرتها الدونية للآخرين يتمثل في دعمها الصارخ والواضح لإسرائيل متناسية ما سببته هذه السياسة من مآس للفلسطينيين الذين لا يزالون يتخبطون في المعاناة، وللعرب بشكل عام. ومثل هذه الأدوار الغربية تجد الأصوات ترتفع لنقدها حتى من قبل الغربيين، يقول تيري ايغلتون: ((فكلما أمعنت الحضارة الغربية في اقتلاعها جماعات كاملة من جذورها، وفي توليدها البؤس والبطالة الواسعين، وتقويضها منظومات الاعتقاد التقليدية، وخلقها موجات عاتية من الهجرة، كلما أدت هذه السياسات الضارية إلى ظهور المزيد من الثقافات الفرعية الدفاعية والنضالية التي تفتت المجتمع الغربي وتشظيه من الداخل، علماً أنها تولد قوى مشابهة في الخارج أيضاً))(٣٢).

استمرار المشروع

كثيرون لا يستغربون أن ينطلق مشروع صدام الحضارات من أمريكا لأسباب :

أولها: إن أمريكا وحضارتها قامت على إخلاء هذه البلاد إلا من المهاجرين الجدد، فقد تم القضاء على السكان الأصليين وعلى شعوب وحضارات كالمايا والأزتك.

ثانيها: إن هؤلاء المهاجرين الأوائل ينتمي معظمهم إلى المغامرين في سبيل الثروة والباحثين عنها حتى في المجهول. وممن كانوا يشكلون خطراً على الاستقرار في بلدانهم كالمجرمين، مما يدفع حكومات هذه البلدان لإبعادهم إلى البلاد الجديدة

بدل تحمل مسؤولية سجنهم أو ملاحقتهم. وربما استمر أسلوب عيشهم أو بعض هذا الأسلوب في ثقافة أحفادهم.

ثالثها: إن العمق الحضاري لأمريكا والذي لا يزيد عن مائتين أو ثلاثمائة سنة، لا يكرس في ثقافة أبنائها ذلك الانتماء إلى حضارة عريقة كما يحدث لدى الشعوب الأخرى التي تشعر أن امتدادها الحضاري ضارب في أعماق التاريخ لآلاف عديدة من السنين. هذا يفسر استهانة الجيوش الأمريكية بالثروات التراثية العراقية عند اجتياح بغداد، فلم يدافعوا عنها ولم يقوموا بحمايتها وصيانتها مع انتمائها إلى التراث الإنساني الخالد، هذا إذا اعتبرنا الأمريكيين بريئين تمام البراءة من العدوان على هذا التراث الذي لا يشعرون بقيمته، بل ربما يشعرون بحب الانتقام منه ومما يمثل.

يشير تيري إيغلتون إلى هذا المعنى إذ يقول: ((إذا كانت الحتمية الأوربية تنبع من أن أوربا تكاد تختنق بالتاريخ، فإن الإرادوية الأمريكية تتأتى من أن أمريكا تكاد تختنق من الافتقار إليه))(٣٣) ويتابع في إبراز الحيثية الأمريكية : ((وإذا كانت الولايات المتحدة غير مقيدة نسبياً بالتاريخ، فهي بالمثل بعيدة بعداً شديداً عن الجغرافيا، هذا المبحث الذي تبدو فيه هوايتها وغرارتها بصورة مخجلة. ولأنها واحد من المجتمعات الأشد ضعفاً ومحدودية في هذه الدنيا، فإن الولايات المتحدة منبوذة في كل مكان ما عدا كندا (التي تشبهها كثيراً) وأمريكا اللاتينية (التي تختلف معها بصورة مخيفة)، علماً أنها لا تحس سوى إحساس طفيف إلى حد الإدهاش بالكيفية التي ترى فيها من الخارج))(٣٤).

رابعها: لقائل أن يقول إن أمريكا قد وصلت إلى ذروة الحضارة العالمية، إلا أن إحساس الآخرين حتى من الأوروبيين أن هذا النمو المادي الهائل لم يرافقه نمو إنساني بالزخم والمستوى ذاته وإن الآداب والفنون والفلسفات لم تجد لها رواجاً في أمريكا إلا مؤخراً، مما يجعل أبناءها لا يتربون على قيم إنسانية متسامحة، وممتدة بين الشعوب، وأن الفلسفات التي وجدت لها متسعاً في أمركيا أو ظهرت فيها تكرس التفرد والجشع والاغتصاب كالبراغماتية.

وغياب العمق الإنساني عن العلم يجعله يقترب من الغرائز بل وشرائع الغاب.

منطق الصدام وثقافة الصدام تتم تغذيتهما بشكل مستمر. فالرئيس كلنتون يرى أن الغرب ليس بينه وبين الإسلام أية مشكلة، وإنما المشكلات موجودة فقط مع بعض المتطرفين الإسلاميين. يعلق هنتنجتون على هذا قائلاً: ((أربعة عشر قرناً من التاريخ تقول عكس ذلك... صراع القرن العشرين بين الديمقراطية الليبرالية والماركسية اللينينية ليس سوى ظاهرة سطحية وزائلة، إذا ما قورن بعلاقة الصراع المستمر والعميق بين الإسلام والمسيحية)) (٢٥).. هذا الكلام يوحي بأن المشروع الإسلامي منذ وجوده قبل أربعة عشر قرناً وإلى الآن مصنف في صفوف أعداء الحضارة الغربية حسب منطق صاحب مشروع الصدام، وإن كل عداوة مع الحضارة الغربية أهون من عداوتها للإسلام.

إن ما تعلمناه جعلنا نعتقد أن الثقافة تصنع الإنسان بقيمه وعلاقاته ونشاطاته، إلا ثقافة الصدام ومنطق الصدام: ((الثقافة، كما ناقشنا تتبع القوة))(٣٦). إنه قلب للمفاهيم والأدوار فبدل أن تكون الثقافة لها الدور الريادي أصبح هذا الدور للقوة. يذكر هذا بقول نعوم تشومسكي متهكماً على الحضارة الغربية (الأمريكية): ((لن يجد الذين حفظوا المبادئ الأساسية لغزو لـ /٥٠٠/ عام غيباً أية صعوبة في فهم الفارق الأخلاقي الضخم بيننا وبين اليابانيين، تتبع الأخلاق من فوهة البندقية. ونحن من يملك البنادق))(٣٧).

إن حيل ترزيل الآخر وأبلسته لتسهيل قتله جاهزة ومستمرة ولا تخطئها عين الخبير، دائماً نلاحظ كيف تتم برمجة التهم وإلصاقها بالآخرين شاؤوا أم أبوا لتسهيل قتلهم والاستيلاء على مقدراتهم.

لقد حدث هذا كثيراً في التاريخ، وأخيراً في أفغانستان وبعدها في العراق. يرى تشومسكي أن من الحيل الصغيرة التي تلجأ إليها الحكومة والصحافة الأمريكية. ((عندما تضبط ويدك في جيب غيرك فاصرخ(أمسكو اللص)، ولا تحاول الدفاع عن نفسك أبداً، لأنك إن فعلت تكون كمن يقر بأن هناك قضية تستوجب الدفاع)) (٣٨).. وهذا يدفع التهم بتخريب العالم بعيداً عن الغربي أو الأمريكي المتحضر الذي لا يفعل ما يلام عليه، بينما كل اللوم على البرابرة غير المتحضرين!

إن لهؤلاء فهماً محدداً للحرية، لا يجب أن تخرج خارج دائرته، فهي تعني عندهم أن تستطيع الحصول على ما تريد مما يمتلكه الآخرون. ينقل تشومسكي عن مصرفي أمريكي في ظل دكتاتورية جيمينيز الإجرامية في فنزويلا: ((لديك مطلق الحرية هنا لأن تفعل بأموالك ما تشاء، وبالنسبة لي فإن هذا يساوي كل الحرية السياسية في العالم))(٣٩).

لا يرى الأمريكيون في ذلك عيباً كما لا يرون أنهم بذلك يعتدون على الشعوب، وإن تحقيق حريتهم ومكاسبهم على حساب الآخرين ومآسيهم يصنف خارج الحضارة. لهذا نرى أن وسائل الإعلام الأمريكية تسارع لنفي أي عمل سيء عن الأمريكيين لتلصقه بالآخرين، فالأمريكي في نظر هذه الوسائل دائماً طيب ومعتدى عليه، يعلق لويس هـ لافام على ذلك ساخراً: ((لم يكن الشر أبداً جزءاً عضوياً من المشهد الأمريكي أو الشخصية الأمريكية، فالشر سعلة قاتلة ومستوردة من دون ترخيص، ومرض أجنبي يتم تهريبه عن طريق الجمارك في شحنة فلسفة ألمانية أو أرز آسيوي. ولأن أمريكا بريئة بالتعريف، يخونها الآخرون دوماً، كما في بيرل هاربر... وخليج هافانا، وبما أنه تمت خيانتنا، نستطيع دوماً أن نبرز استخدامنا للوسائل الوحشية أو المخالفة للروح المسيحية في سبيل الدفاع عن سفينة الأمان في وجه خيانة العالم))(٤٠).

إن الحضارة أو الثقافة الغربية بخصوصيتها الأمريكية، أضحت تثير الهجوم والتعليقات عليها وعلى من يعتمدونها في منطقهم، حتى أن بيرلسكوني (رئيس وزراء إيطاليا) الذي استخدم هنتنجتون في هذيانه المحموم عن أفضلية الغرب، وكيف أن (لدينا) عباقرة مثل موتسارت ومايكل أنجلو في ما (أنهم) يفتقرون إلى ذلك، اضطر أن يقدم اعتذاره لاحقاً عن إهانته للإسلام. لكن بعدما أعطت هذه التصريحات مدلولها وفهمت الرسالة(٤١).

يبدو أن هذا التطرف الأمريكي تجاه الآخرين أصبح يثير أبناء الحضارة الغربية ويصيبهم بالحرج خاصة في أوربا، فقد أورد لويس هـ لافام: ((ذكر مؤلف روايات غامضة استفتاء حديثاً للرأي العام الفرنسي طلب فيه (الصور التي تخطر على البال عندما تفكر بأمريكا) أغلبية المجيبين والذين قدمت لهم قائمة قصيرة من

الكلمات التي يمكن أن تنطبق على الولايات المتحدة، اختارت مرادفات للبربرية: ((العنف)) ((٦٧ في المائة)) ((القوة)) (٦٦ في المائة) ((اللامساواة)) (٤٩ في المائة ((العنصرية)) (٤٢ في المائة) عشرون في المائة فقط من المجيبين اختاروا ((الحرية)) و٤ في المائة اختاروا ((الكرم)).))(٤٢)

وهناك من سفّه رأي هنتجتون باعتباره ليس الشخص الذي يحق له الحكم على الإسلام والمسلمين، بداعي عدم الاختصاص، أو القصور. يقول فرد هاليداي: ((هنتجتون لا يفكر في العالم الإسلامي بشكل خاص، لأنه لا يعرف عنه شيئاً، اهتمامه منصب على الصين واليابان))(٤٣).

في الوقت ذاته هناك من الغربيين من يشكك بمصداقية وشرعية التمركز الغربي عن طريق الاعتراف بفضل الآخرين ودورهم الحضاري، مما يجعل حضارة الغرب تنتظم تاريخياً في رتل الحضارات، والاعتراف بالدَّين الذي في رقبة الغرب لحضارات أخرى، مما ينفي الكمال عن حضارتهم وإضفاء الفضل على من ساهم في وصولها إلى ما هي عليه، وهذا مطعن للتمركز الذي يحاول أن يتساوى مع الكمال.

ينقل د. أمين إسبر عن الكاتب البريطاني مونتغمري وات في كتابه ((أثر الحضارة الإسلامية على أوربا)) قوله: ((إن علاقتنا الطيبة مع العرب والشعوب الإسلامية الأخرى تطلب منا أن نعي، حتى النهاية، مدى ما ندين به لهم، ذلك أن السكوت عن هذه الحقيقة أو إنكارها ليس إلا اعتزازاً كاذباً))(٤٤).

كما يورد رأي غوستاف لوبون: إن العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم النصرانية عدة قرون، وإننا لم نطلع على علماء قدماءاليونان والرومان إلا بفضل العرب (٤٥).

الحضارات ومراكز القيادة:

من سمات الحضارات الرئيسية أن يكون لها دولة مركز، فإذا كانت الحضارة تشكل دولة واحدة كانت هي المركز، وإذا كانت مجموعة من الدول كانت الدولة الأكثر قوة وتقدماً هي المركز، ويكون لها شيء من الهيمنة أو السلطة على الدول الأقل قوة ولو من الوجهة المعنوية. هذه الدولة من شأنها قيادة

المجموعة الحضارية وترأسها، ثم قد يتطور الأمر لتمثيلها والحديث باسمها، ثم في الحلول محلها في بعض القضايا وصولاً إلى محاولة إلغاء دورها، عمداً أو تلقائياً.

الحضارة اليابانية في توصيف هنتنجتون تتألف من دولة واحدة، والحضارة الصينية تتزعمها دولة المركز الصين، والحضارة الأرثوذكسية تتزعمها روسيا، والحضارة الغربية تتزعمها الولايات المتحدة، وهذه دول مركز. الحضارة الأفريقية وحضارة أمريكا اللاتينية، لا يحلل أوضاعها بشكل كافٍ فهما خاملتان، الحضارة الإسلامية مع ما يتوقع لها من دور، ليس في التقدم الحضاري بل في المشاكسة وتوليد الصراعات، ليس لها دولة مركز وهذا عيبها، أي ليس لها زعامة أو قيادة، بالتالي تصعب مخاطبتها وتنظيمها.

دول المركز في رأي هنتنجتون هي مصدر النظام: ((العالم سيتم تنظيمه على اساس الحضارات أو لن ينظم أبداً. دول المركز في الحضارات هي مصادر النظام))(٤٦).

ألا يمكن الرد على هنتنجتون بأن دول المركز تبتلع غيرها، وهي بدلاً من مساعدة الدول الصغيرة أو الأقل قوة على النهوض تحاول عرقلة نهوضها إبقاء على زعامتها، وتحاول إلغاءها خوفاً من المنافسة؟ هل تسمح أمريكا مثلاً لدول صغيرة في الحضارة الغربية أن تفرض رأيها حتى ولو كان صائباً؟ إن المداولات التي جرت قبل حرب أمريكا على العراق تعطي صورة عن مدى ديمقراطية الحوار بين دول المركز ودول الأطراف، وكيف تلغي وتهمش الدول الأخرى مهما كانت قوتها إذا خالفت إرادة المركز.

المراكز في هذه الحالة ليست عامل حوار بين الحضارات هي أداة زعامة وتسلط.

قد يكون لهذه المراكز دور في الحوار بين تجمعات سياسية أو اقتصادية، ولكنها قد تتحول إلى دكتاتوريات داخلية، أي داخل حضاراتها، فتفرض رأيها، استجابة لمنطق القوة التي تتمتع بها، وقليلة أو ربما كانت غير موجودة التجارب التي كانت فيها دول المركز عاملاً مساعداً يرى في غيره مكافئاً له. بالتالي قد لا تكون ذات دور متميز في حوار يجري بين الحضارات.

ثم إن للحضارة حوارها الذي لا يخضع لإرادوية السياسة ودول المركز، وقد لا تكون هذه الدول هي الأكثر تحضراً، فلماذا يكون لها الدور الأول؟ قد تكون الولايات المتحدة

هي الأقوى اقتصادياً وعسكرياً، وهي صاحبة الباع الأطول في التكنولوجيا، لكن من قال إن دورها الحضاري أو مستواها يفوق مستوى فرنسا وشعبها العريق في هذا المجال؟ إن التجارب لا تؤيد ذلك. من جهة ثانية، فإن البشرية لم تنس ما فعله الصراع على زعامة المراكز المزعومة. فمعروف ذلك الدور الذي لعبته النازية مثلاً على مسرح التاريخ في القرن العشرين في محاولتها لانتزاع زعامة ما، ومعروفة نظرتها العنصرية التي عملت على إلغاء وإقصاء حضارات وشعوباً لها حضورها، والاستخفاف بهذا الحضور، وشدة التمركز حول الأنا الجرمانية، واستخدام أعنف الوسائل في تحطيم الآخرين محل الإلغاء، كي لا يبقى في الساحة سوى الأنا النازية، ومعلوم أن الصدام الذي أحدثته مع غيرها من الشعوب والحضارات لم يقتصر على مخالفيها الحضاريين، بل أول ما وقع عدوانها وصدامها على شركائها في الحضارة الغربية، كما أن الواضح جداً أن الصراع كان يدور على الدور العالمي الذي تريد أن تلعبه الرأسمالية الألمانية الناهضة، وضرورة أن تمتد سيطرتها على العالم بديلاً أو إلى جوار السيطرة البريطانية والفرنسية، وأهمية أن يكون لها دور استعماري يوازي قوتها الاقتصادية العسكرية. والآن تقوم أمريكا بدور مشابه فهي وريثة امبراطوريات العالم الكبرى التي تحطم بعضها والتي عملت أمريكا على تحطيمها ليسهل عليها التربع فوق هذا الحطام الامبراطوري، ولا يخلو هذا التحييد والإقصاء للامبراطوريات من الصدام (٤٧). هذا الدور الذي تقوم به أمريكا، والذي بدأ يحدده الخيار العسكري كما يقول د. سمير أمين : ((يهدد جميع الشعوب. فهو ينبع من المنطق ذاته الذي تبناه منذ عهد قريب أدولف هتلر، والقائم على استخدام العنف العسكري من أجل تعديل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية لمصلحة ((الجنس الآري)) الجديد. يحدد هذا الخيار جميع الظروف السياسية بفرضه نفسه على مقدمة المشهد، حيث أن استمرار هيمنة هذا المخطط سيضعف إلى أقصى حد جميع المميزات التي تتمكن الشعوب من الحصول عليها عبر نضالها الاجتماعي والديمقراطي ويصبح تالياً إفشال المخطط العسكري الأمريكي مهمة الجميع الأولى، ومسؤوليتنا الكبرى))(٤٨).

هوامش الفصل الثاني

١ - ادريس هاني، حوار الحضارات، المركز الثقافي العربي، ط١ /٢٠٠٢/ص١٠٥

٢ - أمين اسبر، الحوار والحضارة العربية الإسلامية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١ /٢٠٠٣/، ص٢٣٢.

٣ - فراس السواح، لغز عشتار، دار الكندي، ط٣ /١٩٨٨/.

٤ - د. نجاح كاظم، العرب وعصر العولمة، المعلومات: البعد الخامس، المركز الثقافي العربي، ط١ /٢٠٠٢/ ص٣٠٢.

٥ - ادريس هاني، المرجع السابق، ص١٣٢.

٦ - المرجع السابق ص١٦١

٧ - صدام الحضارات (مرجع مر ذكره)، المقدمة ص١١.

٨ - المرجع السابق ص١٢٦.

٩ - المرجع السابق ص١٠٩.

١٠ - كارل ر. بوبر، اسطورة الإطار، في دفاع عن العلم والعقلانية، تحرير: مارك أنوترنو، ترجمة. أ. د. يمنى طريف الخولي، سلسلة، عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ابريل- مايو /٢٠٠٣/ رقم /٢٩٢/ ص٢٢٣.

١١ - المرجع السابق، حاشية، ص٣٠٦.

١٢ - المرجع السابق ص ١٢ - ١٣

١٣ - نقلاً عن ادريس هاني، حوار الحضارات، مرجع سابق ص٥٦.

١٤ - د. عبد الله ابراهيم، المركزية الغربية - إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، ط١ /١٩٩٧/، الدار البيضاء- بيروت ص١٩.

١٥ -المرجع السابق ص ٢٥.

١٦ - المرجع السابق ص٢٦.

١٧ - المرجع السابق ص٢٣.

١٨ - نقلاً عن المرجع السابق ص ٢٦٤ وما بعد.

١٩ - عبد السلام الشداوي، مقال بعنوان: أوريا غير أوريا، منشور في كتاب: لقاء الرياط مع جاك دريد (لغات وتفكيكات في الثقافة العربية)، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، ط ١ /١٩٩٨/ ص٤٢.

٢٠ - المرجع السابق ص٥٠.

٢١ - المرجع السابق ص ٥٠.

٢٢ - نعوم تشومسكي، سنة ٥٠١ الغزو مستمر، ترجمة: مي النبهان، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، /١٩٩٦/ ص١٧.

٢٣ - منير العكش، أمريكا والكنعانيون الحمر، مجلة الكرمل /٧٠ ـ ٧١/ شتاء ـ ربيع /٢٠٠٢/ص٥٦.

٢٤ - المرجع السابق ص٤٣.

٢٥ - د. عبد الله ابراهيم، المرجع السابق ص٢٥١.

٢٦ - المرجع السابق ص٢٤٩.

٢٧ - منير العكش، المرجع السابق ص٥٨.

٢٨ - د. عبد الله ابراهيم، المرجع السابق ص٢٥٢.

٢٩ - منير العكش، المرجع السابق ص٦٢.

٣٠ - محمد حسنين هيكل، وجهات نظر، عدد/٥٠/ مارس /٢٠٠٢/. كما نشر المقال في جريدة السفير.

٣١ - منير العكش، المرجع السابق . ص٥٩.

٣٢ - تيري إيغلتون، فكرة الثقافة، ترجمة، ثائر ديب، دار الحور للنشر والتوزيع - اللاذقية ـ بدون رقم الطبعة وتاريخ النشر ص١٤٢.

٣٣ - المرجع السابق ص١٨٦.

٣٤ - المرجع السابق ص ١٨٧.

٣٥ - صدام الحضارات . ص٢٨٨.

٣٦ - المرجع السابق ص٥٠٢.

٣٧ - نعوم تشومسكي، المرجع السابق ص٤١٨.

٣٨ - نعوم تشومسكي، المرجع السابق ص٤٣٠.

٣٩ - نعوم تشومسكي، المرجع السابق ص١٧١.

٤٠ - لويس هـ لافام، رئيس تحرير مجلة هاربرز، مقال بعنوان: روما الأمريكية، عن نظرية الإمبراطورية الفاضلة، نشر في مجلة هاربرز عدد أغسطس /٢٠٠١/ ونشرته مجلة الثقافة العالمية بترجمة: شادي عمران بطاح، عدد/١١٧/ السنة /٢٢/ مارس - ابريل /٢٠٠٣/ ص١٧٠.

٤١ - د. ادوارد سعيد، صدام الجهالات، نشر على الانترنت بتاريخ ٢٠٠٢/٨/٢٤.

٤٢ - لويس هـ لافام، المرجع السابق ص١٦٨.

٤٣ - فرد هاليداي، صدام الحضارات أو حين يلتقي هنتنجتون مع غلاة القوميين، محاضرة ألقاها في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، ترجمة: مرام المصري، عن الانترنت.

٤٤ - د. أمين اسبر، الحوار والحضارة العربية الإسلامية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١ /٢٠٠٣/ ص١٣٦.

٤٥ - المرجع السابق ص١٣٧.

٤٦ - صدام الحضارات ص٢٥٤.

٤٧ - محمد حسنين هيكل، المرجع السابق.

٤٨ - د. سمير أمين، طموح الولايات المتحدة اللامحدود، جريدة النهار ٢٠٠٣/٣/٢٥+٢٤.



الدين والأبواب المفتوحة

نصنف المعطى الديني في مسار الصدام انطلاقاً من أنه كان مفتوحاً على كل الاتجاهات والاحتمالات ومع أنه من المفترض أن يكون منحازاً إلى الإنسان وقيمه الرفيعة، وأن حضوره كان لتعزيز هذه القيم، ولجعل الناس أكثر طمأنينة ورقياً، فإن أحداث التاريخ لا تعزز هذه الافتراضات، فقد كان الدين مطواعاً في توجيهه لتحقيق مآرب من الواضح أنها بعيدة عن منظومته القيمية، وكان غطاء للصدام كما للحوار.

إن جهد عشرات أو مئات الآلاف من الأنبياء والقديسين والصالحين وسيرهم وأعمالهم وتراثهم كان من شأنها أن تنزل السكينة على قلوب الناس فيعم السلام وتصبح مقولة: ((المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرة)) التي يرددها المسيحيون في مناسباتهم الدينية، وتحية الإسلام التي التي يرددها المسلم كل يوم مرات عدة ((السلام عليكم))، إشارات إلى مضمون حقيقي. لكن الذي حدث أن مقولات كهذه همشت وفرغت من مضامينها الإنسانية، ونحيت عن ساحة الفعل لتحل محلها حراب المقاتلين وأيديولوجيات المتطرفين الذين تمترسوا بنصوص وسير لا تخدم إلا الصدام. لاشك أن قوى البطش والاستغلال استطاعت توظيف المقولات الدينية، وربطت المقدس والمتعالي بالمصالح الدنيوية لإدامة التسلط والنهب، وهذا ما يحدث تعارضاً بين الشعارات المرفوعة والحقيقة الواقعة، يقول تيري ايجلتون: ((فما يثلم سمعة الدين هو النشاطات الدنيوية التي تمارسها الرأسمالية وليس اليسار الملحد، ذلك أن الأساس الدنيوي للرأسمالية يقوض البنية الفوقية الروحية التي يحتاج إليها لتأمين استقراره))(١).

الدين وتشكيل الوعي:

هناك اتفاق على أن الدين ساهم مساهمة كبرى في تشكيل وعي الإنسان بوجوده، لكن هذا الدور لم يحصل دفعة واحدة، ولا الإنسان وجده في كامل جاهزيته التي نراها متحققة في طور اكتمال الأديان الكبرى.

لقد مر تشكل الوعي الديني بمراحل كانت تحاكي أو تساير مراحل تطور الوعي الإنساني، إذ لا يعقل أن يكون الإنسان في أطواره البدائية قادراً على إنتاج منظومة دينية رفيعة المستوى، من هنا نجد أن علماء الانتروبولوجيا يتحدثون عن السحر ودوره في حياة الشعوب البدائية، والذي أدى تطوره إلى مرحلة انتشار الأساطير التي تعد معلماً في مسيرة التطور الروحي للإنسان، وكما أن المرحلة الأسطورية لم تكن تشكل قطيعة مع المراحل التي كانت قبلها والتي كان السحر يلعب فيها الدور الأساسي، كذلك كانت النقلة من مرحلة الأسطورة إلى مرحلة الدين المكتمل الناضج، أمراً أكثر وضوحاً ربما، حيث بدأت الأديان تتخلص في منظوماتها من الأساطير جزئياً لصالح تكوين أكثر رقياً، وصولاً إلى منظومات دينية تنطوي على ضوابط شديدة التعقيد والتشعب.

وفي كل هذه المراحل التي مر بها تطور الأديان كان الخوف هو الدافع الأبرز لإيجاد وتطوير منظومات دينية، يقول د. عادل العوا: ((الخوف خاصة هو مصدر التدين.. وكان لا بد من السعي للخلاص من الخوف، والخوف عكسه الطمأنينة، وذلك بتنظيم شؤون الحياة وضبط العلاقات والمعاملات، وبهذا التنظيم نشأت الحضارات))(٢).

هذا الخوف، من المجهول، من الطبيعة، من الآخر ومن الذات، والذي أساسه الجهل بمكونات العالم وبالنظم والقوانين التي تتحكم بهذه المكونات، جعل ((الحياة الدينية ترسم علاقات البشر بعضهم ببعض في ضوء صلتهم بقوة عليا متفردة الاختصاص لأنها وحيدة النوع ومن أبرز خصائصها أنها توجب قيوداً يكون الخروج عليها مصدر عقوبات مخيفة ومتفاوتة، في الجسد أو الروح، أو في كليهما معاً)) (٣).

وقد كان من شأن ذلك أن يبدد شحنة الخوف ليلقى بها إلى القوى التي يتوهم قدرتها على حل هذه الأعباء وإزالة العوائق، وقد تطورت هذه المنظومة العقدية بتطور وعي الإنسان.

اعتبر الدين جزءاً من المنظومة الثقافية عند الشعوب، هذا الجزء يكبر أو يصغر، ودوره يتعاظم أو يتضاءل بفعل طبيعة الدين وحركة التاريخ والنشاط البشري. والملاحظ أنه في الكثير من الحالات أو عند الكثير من الشعوب يتجاوز كونه جزءاً من منظومة ثقافية أي منظومة وعي الوجود، ليصبح ضابطاً لحياة الناس وناظماً لسلوكهم الاجتماعي أخلاقياً واقتصادياً وسياسياً، عندما تتم الدعوة أو يتم التصرف لضبط إيقاع الحياة المعاشة وكافة ظروفها على أساس المقاييس المستمدة من المنظومة الدينية، وهذا واضح وجلي في الواقع الإسلامي، وفي فكر المتشددين في تطبيق الدين الإسلامي، كما هو واضح في حياة بعض شرائح اليهود والمسيحيين أيضاً، حيث يطلب من الدين إيجاد الحلول والنواظم لقضايا الحياة ومشكلاتها.

وقد برزت المنظومة العقدية على أنها ملاط قوي يؤكد اللحمة بين الناس، فكانت من أبرز مظاهر التضامن في الكثير من مراحل التاريخ، خاصة عندما تتخالط بالمصالح، يقول إيلجتون: ((فما من شكل من أشكال الثقافة أكثر قوة من الدين في ربط القيم المتعالية بالممارسات الشعبية، أو ربط روحية النخبة بإيمان الجماهير، وفاعلية الدين لا تتأتى من إشارته إلى عالم آخر، وإنما من تجسيده هذا العالم الآخر في شكل حياتي عملي. وهذا ما يمكنه من إقامة صلة بين الثقافة والثقافة، بين الحياة المطلقة والحياة اليومية)) (٤)..

العقائد لا تأذن بالتسامح:

المنظومات العقيدة منظومات أقرب إلى الانغلاق، ولا نقول مغلقة، علماً أن الأساس فيها الانغلاق، لكن التجربة التاريخية أثبتت تأثيرات كبرى بين المنظومات الدينية بفعل التوارث أو الاحتكاك، سواء عن سابق وعي وتخطيط أو بشكل عفوي ومن الأبواب الموارية.

إن ظهور دين جديد يكون مصحوباً بقناعة أن الأديان السابقة غير قادرة على إنجاز مهمات تطوير وإنقاذ البشرية، يعني عجز وإفلاس المنظومات العقدية السابقة عن حل المعضلات المستجدة وقصورها عن إدراك الحقائق كاملة، ولو كان القادم الجديد يرى أن المنظومة أو المنظومات السابقة صالحة لما هو قادم من الأيام لفقد مبرر وجوده، فالحقائق المطلقة عندما تمثلها عقيدة ما تكون كافية للبشرية للإيمان بها، بل ترى أن من واجب الإنسان ومن الخير له أن ينضم إلى هذه المنظومة ويؤمن بالعقائد الداعية إليها، خلاصاً له.

ومهما كانت الجزئيات التي تخالف بها عقيدة ما العقائد التي سبقتها ضئيلة فإنها تكون هي الأساس في العقيدة اللاحقة. وفي الأديان لا يكون الخلاف على نسب مئوية، بل تؤخذ المنظومة كاملة أو ترفض كاملة. ورفض أية جزئية منها هو رفض لها جميعاً، وخروج منها جميعاً، وكفر صراح.

لنتصور مسلماً رفض أحد أركان الإيمان أو إحدى العبادات، هل يبقى في نظر المسلمين مسلماً حقيقاً أم يوصم بالكفر والمروق؟!

وهكذا حال الطوائف المتشكلة داخل كل دين، كل منها لها منظومتها وترسيمتها. وهنا نذكر رأي د. محمد أركون الذي يتحدث عن السياج الدوغمائي المغلق في الكثير من كتاباته(٥)، ويقصد أن كل دين (أو طائفة) يعمل على تكوين منظومة عقائده ويغلق المنظومة، فلا تعود قادرة على إدخال جزئيات حادثة إليها ولا على إخراج جزئيات منها، فالادخال يعني أنها قابلة للتشكل من جديد، والمنظومات الإطلاقية ترفض ذلك، كما أن الإخراج يعني أنها قابلة للنقص والتحلل، وهذا أيضاً مرفوض في نظر المؤمنين، وقد بينا ذلك في مؤلف خاص(٦).

هكذا تصبح العقائد غير آذنة بالتسامح فيما يخص الجزء المصمت (العقدي) وقد تلحق بهذا الجزء الكثير من الجزئيات الطقسية، وأحياناً يكون بعضها قادراً على التعايش مع غيرها في الجزئيات الحافة بالعقيدة أي التي ليست من صلب الحقائق المطلقة التي ترعاها. وكثيراً ما تتشابه العقائد فيما بينها، سواء في الأجزاء الأساسية من العقيدة أو في جزئيات الطقوس والعبادات وتتأثر ببعضها كما في انتشار طقوس الصوم أو الحج أو الصلوات وغير ذلك في جميع الأديان.

كلنا يعلم مدى القرابة والتواشج بين ما نطلق عليه الأديان السماوية، فـ ((الديانات الإبراهيمية كما سماها لوي ماسينيون شعرت كل منها دوماً خلف ظهرها بحضور الديانة الأسبق، المسيحية في نظرتها إلى اليهودية ثم الإسلام الذي يؤمن معتنقوه بأنه جاء ليكمل ما قبله ويختم خط النبوة))(٧).

المسيحية المنبثقة من قلب اليهودية رأى فيها أتباعها الأوائل، خاصة من اليهود أو من غير اليهود أنها تصحيح لمسار اليهودية، ولم يروا فيها ديانة جديدة تنسف أو تلغي اليهودية، فالشعور باستقلال المسيحية عن اليهودية جاء في مرحلة تالية، يقول المؤرخ د. نقولا زيادة : ((أما المسيحية الهلينية فقد بدأت في القدس أيضاً، لكن سرعان ما ظهرت خصائصها في إنطاكية (وفي هذه المدينة سمي المسيحيون بهذا الاسم للمرة الأولى). وأبرز ما في خصائص هؤلاء المسيحيين، أنهم لم يروا أنفسهم طائفة يهودية أو فئة يهودية))(٨).

وقد كانت هناك مواقف وتصرفات تؤسس لعدم التسامح، بالتركيز على المختلف دون المؤتلف بين اليهودية والمسيحية، وجرى وضع الأسيجة والحدود التي تمت حراستها منذ البواكير الأولى، وأصبحت التضحية في سبيلها مدعاة لنيل رضوان السماء.

أيضاً، اعتبر الإسلام مكملاً لليهودية والمسيحية وخاتماً للأديان لم يترك شيئاً ليقال بعده. لكن هذه القرابة الدينية الوشيجة لم تلغ الشعور بأن: ((الصعود والتوسع السريع للامبراطورية الإسلامية وازدهار الحضارة الإسلامية قد فرضا خطراً مباشراً على مكانة العالم المسيحي في العالم من الناحية اللاهوتية والسياسية على حد سواء))(٩). و((إن التشابهات اللاهوتية بين المسيحية والإسلام وضعت الديانتين على طريق الصدام، إذا كانت كل أمة تؤمن أن ميثاقها مع الله يقتضي تحقيق وحي الله الباكر إلى أمة سابقة ضلت))(١٠).

العامة يتحدثون عن عداوة (الكار) المصلحة، ويقولون: عدوك من عاداك في فنك. إنه التسابق على المشروعية وعلى الوجود، على تمثيل الآخرين وعلى الجدارة في هذا الحقل، بل على الاستحواذ. هل نستطيع أن نقول إن العداوة بين الديانات كما العداوة بين الأحزاب، هي عداوة تنتمي إلى هذا الحقل، حقل التنافس على

مشروعية تمثيل الناس والاستحواذ عليهم وتوجيههم والسيطرة عليهم مدعومة بالمطلق؟!

الواقع وحركة العقائد:

إذا كانت العقائد لا تأذن بالتسامح في خطها الفكري ((العقدي))، فإن هذا لا ينطبق على حركتها التاريخية. لقد انطوى الحراك التاريخي للمجموعات البشرية باختلاف عقائدها على مؤشرات للحوار بين هذه العقائد، مثلما أو ربما أكثر مما انطوى عليه من حالات الشقاق.

الجانب العقدي (النصوص بما تتضمنه من تعاليم وأفكار) عندما يتعين في سيرورة تاريخية ويحتك بالواقع، يتعاطى من الممكنات وسرعان ما يتأقلم مع هذه الممكنات، فيظهر التأثر والتأثير، وقد أبقى تاريخ المجتمعات وتاريخ العقائد وتارخ الفكر الكثير من المؤشرات على التأثيرات والتداخل، فالحالات العقائدية ليست حالات سياسية أو دول لها بدايات محددة بصرامة، وهي لا تقاس تطورياً بالسنة أو بالعقد بل ربما بالقرون، فحركة الفكر والثقافة لها مسارها البطيء، لكن الراسخ.

وكما رأينا أنه يصعب على حضارة أن تتخلص من سابقاتها، أو يعتبر من المحال ذلك فتعمل على إدماجها أو إدماج أفضل ما فيها في حركتها الصاعدة، كذلك في الأديان، يصعب أن يأتي دين متخلصاً مما قبله بشكل كامل، ولا بد أن يحمل جزئيات مما سبقه من الأديان والعقائد، قليلة كانت أو كثيرة، وهذا بحد ذاته يعتبر حواراً بين هذه القطاعات الحضارية، لأن سنن الكون وتطور الإنسانية أن لا تبدأ الحلقة الجديدة من البداية، بل من حيث وصلت سابقاتها، ولهذا أشرنا إلى التطور من السحر إلى الأسطورة وصولاً إلى الدين. لكن الحوار الذي كان يجري على مستوى الأفكار كان يترجم صداماً على أرض الواقع.

في المنظومات الدينية، كان احتواء اللاحقة لأجزاء من السابقة واضحاً. فالعقائد التي انتشرت في منطقة الشرق الأوسط، في بلاد الرافدين وسورية ومصر تنطوي على تشابهات كثيرة، كعقائد الخصب وارتباط ذلك بقدوم الربيع أو انتهاء فصل الصيف، والتمثيل لها بموت الإله، تموز (العراق) وبعل أو أدون (سورية)

وأوزيريس (مصر)، ثم عودتهم إلى الحياة وما يرافق ذلك من طقوس لا تزال تبرزها الاحتفالات الشعبية في المنطقة إلى يومنا هذا، فيما يعرف بأعياد الربيع (شم النسيم، النوروز...) وربما انتقل بعض هذه الطقوس إلى المسيحية واليهودية (الفصح، وموت الفادي، وحضور الالهة الام....)(١١)

إن انتقال بعض العناصر العقدية عبر الزمان والمكان لا يترك هذه العناصر على حالها، ولا بد من إحداث بعض التحويرات فيها لتصبح ملائمة لواقع جديد تصبح أحد مكوناته، بل ربما تذوب لتصبح جزءاً من منظومته. هذا يعني أن ظروف الواقع المعاش تتدخل في الأشكال النهائية التي تأخذها المنظومات الدينية الأصلية أو الوافدة، هذا الحوار الذي يبدو هنا على المستوى الثقافي الديني، قل أن يساهم في الحوار المجتمعي، لأن حوار المجتمعات يقوم أساساً على المصالح التي لا تركن إليها العقائد.

لقد دخلت الإلهة السورية سيبيل إلى روما تحت اسم ((ماجنا ـ ماتر)) أي الأم الكبرى سنة ٢٠٤/ قبل الميلاد، عندما كانت الجيوش الفينيقية تتقدم نحو روما لحسم المعركة على الأرض الإيطالية، ويقول فراس السواح إن مجلس الشيوخ الروماني أرسل رسلاً رسميين إلى فرجيا فجاؤوا بحجر الإلهة سيبيل الأسود، الذي يعتبره الفرجيون عرش الآلهة المقدس، ونصبوه في احتفال رسمي وشعبي كبير فوق قمة البالنتين حيث معبد النصر، بعدما كانت نبوءة كبرى قد قالت إن نصر روما سيتحقق بوجود الأم الكبرى بينهم بعد ذلك بأقل من عامين خرج هانيبعل من إيطاليا، فبنى الرومان لسيبيل معبداً خاصاً، وانتشرت عبادتها مع حبيبها أتيس في جميع البلاد.(١٢)

وباعتبار أن الدين أحد مكونات الحضارة فإننا نشير إلى هذا الشكل من أشكال الحوار بين الحضارات عن طريق تلاقي عناصر حضارية شرقية مع حضارة متسيدة كالحضارة الرومانية، ويتابع السواح: ((أما القائد القرطاجي المتراجع فقد وقف على الشاطئ الإيطالي، قبل صعوده في آخر سفينة مغادرة، ليلقي نظرة أخيرة على الأرض التي كانت مسرحاً لأحلامه، وهو لا يدري أن روما العظيمة، التي دحرت المد الشرقي العسكري، قد فتحت أبوابها لغزو شرقي من نوع آخر، غزو ديني اكتسبها دون قتال، ابتدأ بالأم الكبرى سيبيل وابنها آتيس القتيل، وانتهى بانتصار ساحق مؤزر للشرق على الغرب، على يد الأم الكبرى مريم

العذراء وابنها يسوع الصليب بعد بضع مئات من السنين))(١٣) كل ذلك لم يوقف المصالح أن تقود إلى الصدام.

ويذكر البعض في حديثهم عن أديان اليونان: ((لم يضيفوا إلى تراث البشرية الديني شيئاً وإنما أخذوا كل شيء عن الديانات الشرقية عن طريق الفينيقيين والكريتيين))(١٤).

الأديان السماوية تتأثر وتؤثر:

عندما قدمت اليهودية كديانة لها أنبياؤها، كونت منظومتها العقائدية عبر ما اعتبر وحياً سماوياً من إله متعالٍ إلى أنبياء بني إسرائيل أولاد إبراهيم، وكان الحراك التاريخي لهذه القبيلة (إسرائيل) في منطقة الشرق الأوسط منذ النشأة في أور الكلدانيين والرحيل إلى فلسطين ثم الهجرة إلى مصر والسبي إلى بابل. وقد حملت هذه الديانة حسب تأكيد التوراة آثار هذا الحراك، فإله إبراهيم الواحد وجد منافسة من آلهة الكنعانيين عند أحفاده من أمثال سليمان الذي مال إلى آلهة محظياته، كما أبرزت التوراة حكايات كحكاية الطوفان التي يعتقد أنها انتقلت من بلاد الهند حيث وجدت منذ ١٨٠٠ ق.م في أدبيات الآريين، وتأكيد وجود صلات بين الهند والعراق حيث وصلت الحكاية إلى هناك(١٥). ومن ثم انتقلت إلى التوراة وما تلاها من الكتب السماوية. ولم تكن هذه الحكاية هي الأثر الوحيد الذي سجل انتقاله من الهند، فهناك رموز الخصب وتقديس علاقاته وأعضائه عند الإنسان(١٦). كما أن حكاية الطفل موسى مع فرعون هي نسخ لحكاية سرجون الأكادي والبستاني الذي أنقذه. وقصة عبادتهم للعجل الذهبي أيام موسى هي تأثر بعبادة العجل (آبيس) عند المصريين. وليست ثقافات الشرق الأوسط ودياناته هي التي تركت أثرها على اليهودية فقط، فالأثر اليوناني يظهر بمجرد تفكيرهم بترجمة التوراة إلى اليونانية، وهناك مؤثرات هندوسية ظهرت في التلمود وخاصة عقيدة التناسخ الهندوسية ((وخلاصة القول إن اليهود تأثروا في معتقداتهم التعبدية بما عند الشعوب التي عاصروها واندمجوا معها في نتاج فكري موحد))(١٧).

إن عناصر عقدية وثقافية كنظرية وحدة الوجود، ورياضة اليوغا الروحية والتقمص أو تناسخ الأرواح هي عناصر هندوسية، هندية المنشأ انتشرت في ديانات عدة[18].. كما آن فكرة التثليث (التي أساسها: براهما + فشنو + سيفا)هندية المنشأ انتقلت إلى أوسع الديانات انتشاراً كالمسيحية (١٩).

ولم تتأثر المسيحية بعقيدة التثليث فقط، بل هناك من يقارن بينها و بين اليهودية، وبينها وبين عبادة البعل، والمسيحية والديانة الميثرية اليونانية والرومانية وغير ذلك حيث تظهر الكثير من العناصر المتشابهة تشابهاً لا يرقى جميعه إلى الصدفة والعفوية، بل لا بد من البحث في إطار علم الأديان المقارن عن الأسباب والسبل التي أوجبت ودفعت إلى هذا التشابه(٢٠).

وإذا كان تأثير المتقدم على المتأخر بانتقال عناصر منه إليه هو الشكل الأكثر وروداً في عمليات التثاقف، فإن هذا لا يمنع من ظهور آثار في المتقدم من المتأخر، ظهرت بفعل التجاور والاحتكاك، فهناك مؤثرات إسلامية واضحة في اليهودية تظهر خصوصاً منذ عهد الحبر موسى بن ميمون وابنه ابراهيم، ويبدو هذا في الصلوات وفي باب الطهارة (الوضوء) (٢١).

وما لا يخفى على القاىء العربي والمسلم الحجم الكبير لآثار الديانتين اليهودية والمسيحية في الإسلام، فالقرآن كتاب الإسلام الموحى فيه الكثير مما سمي بالإسرائيليات وهي تلك الإشارات والحكايات والقصص التي تتحدث عن بني إسرائيل وتجربتهم الحياتية والدينية وأنبيائهم، كذلك ما يتضمنه من وضوح الإشارة إلى السيد المسيح والسيدة العذراء، شخصيات القداسة المسيحية الأبرز، ومدى الإجلال والتعظيم الذي يكتنف الحديث عن هذه الشخصيات.

وما لا يخفى في الإسلام أيضاً أثر العقائد الهندية بعدما تسربت إلى الفكر الإسلامي عبر التواصل الحضاري وانخراط الكثير من أهل الهند في الإسلام، وتعتبر الكثير من الأفكار التي وصفت بالإلحادية كنقاشات ابن الراوندي حول النبوة من أثر الاحتكاك بديانات الهند في الإسلام.

ولقد كان للإسلام ميراثه مما كان سائداً في المنطقة التي ظهر فيها، فلقد استمرت في الإسلام عناصر قيمية مشكلة مصدراً من مصادر شريعته، وهي تلك

القيم الرفيقة التي كان الناس يعيشونها قبل ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية، وقد أشار إليها خليل عبد الكريم في كتابه ((الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية))(٢٢).

الصدام تحت غطاء الدين:

إن هذا الحجم من التأثر والتأثير (التثاقف أو الحوار) لا يلغي أو لا يخفي حجم الصراعات أو الصدامات التي حدثت، ليس بين ديانتين، بل بين أقوام أو جهات أو مجموعات بشرية تدين بديانتين من هذه الديانات، يظهر ذلك مثلاً بموقف اليهود من السيد المسيح ثم من النبي محمد، وقد أخذ الصراع شكل الانتصار للدين، لكنه في جزئه الخفي والحقيقي كان يشير إلى مصالح فئات معينة تخاف على نفوذها أو ثروتها أو على وجودها كخوف اليهود من الزعامة التي تكبر للنبي محمد مما دفعهم للكيد له، والمصلحة لا العقائد في أساس الدوافع لهذا الكيد.

لقد حدثت الكثير من الصدامات عبر التاريخ بين من يدين بالمسيحية ومن يدين بالإسلام، لكن أبرز هذه الصدامات كانت في العصور الوسطى، في ما سمي بالحروب الصليبية، ويكفي اسمها للإشارة إلى أنها تجري باسم المقدس وتخاض نيابة عن آلهة مختلفة ومتناقضة ومتصارعة في نظر من يخوضونها ولكن الكثير من الحقائق تبرز دور الجشع والأطماع بالمكاسب في التبرير الداخلي لهذه الحروب. فإذا كانت هذه الحروب انتصاراً للمسيحية ومقدساتها وحماية لهذه المقدسات وتخليصاً لها، فما الذي يجعل الصليبيين يسرقون مجوهرات بطريركية انطاكية وأموالها، بحيث تظهر هذه الحملات وكأنها هجمات لصوص على ممتلكات المسيحيين والمسلمين؟(٢٣).

بدأت الحروب الصليبية باستغاثة الامبراطور (الكسيوس الأول) لوقف التوسع الإسلامي وبموعظة البابا (أربان الثاني) الشهيرة في مجمع كليرمون /١٠٩٥/ لاسترداد القدس تحت راية الصليب ((فسار بعضهم مدفوعاً بسائق الدين ومنهم

الطامع بالمغانم والأرباح)) واستهلوا أعمالهم بذبح اليهود في أرض الراين، ودخلوا القسطنطينية فعبثوا بالبيع والكنائس وأحرقوها(٢٤).

ويقول ايريك دوتشميد: ((وزاد في الأمر سوءاً آن عهد الفروسية المناط به حماية الصليب المقدس قد تحول إلى عهد صعلكة انشغلت فيه عصابة البارونات بملء محافظ نقودهم)) (٢٥).

ويعدد الكاتب أمثال هؤلاء البارونات مثل: (رينودوشاتيّون) و(جيراردو ريدفورت) وبطريرك القدس هيراقيلوس ((القس العفيف)) وهو الأسوأ بين الثلاثة.

ويقول دوتشميد مبيناً أثر المصالح وغلبتها على العقائد والثقافات، وانحياز المؤمنين إليها على حساب عقائدهم وتوجهات رؤسائهم الدينيين من أعلى المراتب: ((وشن البابا أنوسنت الحملة الصليبية الرابعة، أما أولئك الذين لبوا دعوته فلم يكن دافعهم الجهاد المقدس، بل نهب ثروات الشرق)) (٢٦). ويذكرنا هذا الكلام بكلام المؤرخ ول ديورانت يقول: إن أعلى البابوات شأناً وأعظمهم سلطاناً في تاريخ الكنيسة المسيحية لم يستطع أن يرفع صوته فوق رنين الذهب وهذا يوضح ما تؤول إليه العقائد في مواجهتها مع ما تريد الانتصار عليه من القوى والنزعات الشريرة عند جماهير المؤمنين.

قليلة هي الحروب والصراعات الكبرى والممتدة التي تم خوضها تحت شعارات تعبر عن حقيقتها، خاصة تلك الكبرى والمدمرة التي تم خوضها تحت شعارات أخلاقية طنانة. كلها كان المعلن فيها الدفاع عن القيم الرفيعة والكرامة الإنسانية المهدورة وحقوق الله والعباد الضائعة، في حين كان المخفي والمستور يشير إلى تحقيق المكاسب والمصالح المباشرة، تافهة كانت أو كبيرة.

تخوم القداسة لا يدافع عنها، فكلها محروسة من قبل الآلهة، والإله واحد بأي شكل تم التعبير عنه، ولا خلاف بين أرباب الديانات على المعاني والقيم الكبرى للألوهية، فالاله في كل دين من الأديان يتسم بالحياة والإرادة والعلم والقدرة وغيرها من الصفات المتعالية، فأين الخلاف إذن، إذا كان الجميع يقرون بهذه الصفات؟ إنه على الجزئيات والتفاصيل والأغراض والتفسيرات لا على الجوهر

(جوهر الربوبية)، وربما كانت المصالح هي أبرز ما يجعل الاختلافات لا تزول بسهولة بل تتحول إلى مصادر للنزاع.

في العصور الحديثة استبدل الغرب التوجهات بالنظرة العلمانية التي تؤسس على العقل، مستبعدة الدين عن اعتباراتها، دون عداء له أو انحياز نحوه. وإذا كان المستكشفون في عملية الكشوف الجغرافية التي قام بها الغرب، قد رافقهم الباحثون عن الذهب وحاملوا الانجيل، أي حسب معادلة ريجيس دوبريه: ((ذهبك مقابل الهي. اعطني الدراهم وإليك المطلق، إنني أنهب، ولكنني أهدي للحق)) (٢٧). فإن الغرب لم يعد يتحصن بها، أي بالرؤية الدينية أو ينطلق منها في استغلاله للشعوب ونهبه لخيراتها، بل استبدلها بشعارات علمانية وإن كانت لا تغيب عن الأفق الأخلاقي الذي كان الدين ناطوره، كحقوق الإنسان وما شاكل من الشعارات التي تعطيه بعداً عالمياً حتى ولو كانت المفاهيم الدينية تكمن وراء هذه الشعارات، لم يعد كفر الإنسان بالاله هو العنوان بل شعار كفر الإنسان بالمشترك الإنساني.

إن توظيف الدين يكتسب أهمية كبيرة بما ثبت أنه لا يزال قادراً على تجييش الناس، بدرجات متفاوتة بين دين ودين أو منطقة ومنطقة، ويبدو أنه من الضروري للقوى الكبرى أن يكون هناك عداوات وخصومات يمكن إبراز دور الدين فيها، لأن مناخ العداوات والخصومات يبرزها الأقدر على الإفادة من مناخها بما تمتلكه هذه القوى من إمكانية تجعلها قادرة على حسم الصراع لصالحها. وهنا نشير إلى استبعاد خوض الصراعات من أجل القيم المهدورة.

وهكذا تبرز الأصوليات الدينية التي تتم تغذيتها كخطوط للدفاع، يتم تحصينها وحمايتها من الأطراف المعسكرة على حواشيها. ولو نظرنا إلى الأصولية الإسلامية (الإسلام السياسي) لوجدنا أنها طرأت نتيجة الخذلان الذي حصدته المنظومات الواعدة (اليسار واليمين) بخيبتها في إنجاز مشاريعها التي وعدت بها على مدى عقود: ((فالأصولية الدينية التي هي عقيدة من تخلت الحداثة عنهم، لا بد أن تدفع البشر إلى أفعال قتالية دفاعاً عن مجتمعهم ... والمشكلة الوحيدة في الغرب هي أن مثل هذا التعصب الأعمى لا بد أن يقف في مواجهة القيم الليبرالية التي يفترض به أن يدافع عنها))(٢٨).

هذه الأصولية الإسلامية كانت مرعية من قبل بعض المنضوين في منظوماتها العقدية، كذلك كانت مرعية ومحروسة من قبل بعض القوى الامبرياليه التي تصورت أن تستخدمها ضد أعدائها مجاناً، مستغلة التفارق الديني أو دعاوى الكفر والإلحاد التقليدية كما حدث في استخدام الولايات المتحدة لهذه الأصولية ضد السوفييت في أفغانستان، لكن تبين لاحقاً أن العقول المصمتة يصعب الرهان عليها، وتصعب معالجتها، حيث ينقل عن السيد المسيح قوله:

((كل داء داويته إلا الحمق فإنه أعياني)) وهكذا انقلب السحر على الساحر، وصعب على الحاوي إعادة الكوبرا إلى جرابه، بل بدأت تلدغه.

تهافت التقسيم الهنتنجتوني للحضارات:

يقيم هنتنجتون الحدود ويعلي الأسوار بين الحضارات باعتبارها تكوينات دينية أو طائفية، وحدود إلهية تبدأ أو تنتهي عند تخوم مقولتي الكفر والإيمان كناظمين لاصطفاف الناس، وينطلق من مفاهيم الحقل الديني والطائفي في رسم خريطة العالم الذي تمزقه أسوار عالية من العقائد الدينية، حتى ولو أقر الجميع بإيمانهم برب الكون الواحد.

ليس من الدقة والحصافة العلمية والتاريخية أن ننكر دور العقائد والأديان في صناعة الخلافات وتكريسها، وفي إثارة النعرات وتجييش الجيوش. لكن إذا كانت العقائد لا تأذن دوماً بالتسامح فإن هذا لا يعني أنها كانت قادرة دوماً على صناعة الحروب والصدامات ما لم تكن المصالح هي الفاعل الحقيقي الذي يستخدم العقائد في تحقيق الاصطفافات. فبدل أن تتم تنمية المشترك الديني (الإيماني)، القاضي بعبادة إله واحد ذي صفات متعالية لدى الجميع، تحت تنمية التفاصيل الصانعة للاختلافات والتركيز على الجزئيات العقدية والعبادية (الطقوسية) التي لا تنتمي إلى الأصول.

يقول هنتنجتون ((في هذا العالم الجديد لن تكون الصراعات المهمة والملحة والخطيرة بين الطبقات الاجتماعية أو بين الغني والفقير أو بين جماعات أخرى

محددة اقتصادياً، الصراعات ستكون بين شعوب تنتمي إلى كيانات ثقافية مختلفة)) (٢٩). وهو هنا لا يحيل الصراعات إلى الحيز الثقافي فقط، بل يكتفي بعنصر من عناصر الثقافة يحمله مسؤولية ذلك وهو الدين. لكنه لا يضع الأديان كلها في مستوى واحد من حيث قدرتها على صناعة ورعاية التعصب والصراعات والحروب وإشاعة أجواء الكراهية، وإعلاء الأسوار، فهو يرى: ((أن أشد خطوط التقسيم الحضاري عنفاً هي تلك الموجودة بين الإسلام وجيرانه الأرثوذوكس والهندوس والأفارقة والمسيحيين الغربيين)). و((من المرجح أن تنشأ أخطر الصراعات في المستقبل نتيجة تفاعل الغطرسة الغربية والتعصب الإسلامي والتوكيد الصيني) ثم يعترف ((من بين جميع الحضارات فإن الحضارة الغربية هي الوحيدة التي كان لها تأثير رئيسي وأحياناً مدمر على كل الحضارات الأخرى)) (٣٠).

ويقول أيضاً: ((حيثما ينظر المرء على امتداد حدود الإسلام يجد أن المسلمين لهم مشكلات في العيش مع جيرانهم بسلام)) (٣١). وهو عندما يلاحظ ((أن غالبية صراعات خطوط التقسيم قد حدثت على امتداد الحدود الملتفة عبر أوراسيا وأفريقيا والتي تفصل بين المسلمين وغير المسلمين)) (٣٢).فهو يصر على عدم رؤية سوى البعد الديني الذي يلخص الحضارة به وهذا إخفاء لحقائق التاريخ تشير إلى أن الصراعات لم تنحصر في إطار التكوينات أو الترسيمات الدينية وحدودها، وإذا كان أبرز شواهد الصراع في العصر الحديث هو صراع العرب والمسلمين مع إسرائيل اليهودية الغربية، فمما لا شك فيه أن الإسلام لم يستحدث هذا الصراع ولم يسببه وليس هو الصادم لغيره، بل هو المصدوم بغيره. والخطاب الديني في هذا الصراع مستخدم لإخفاء المصالح التي حركته وتحركه، بدليل الحياة المشتركة لليهود والمسلمين في كثير من مناطق العالم.

ولكي يخرج نفسه من مأزق التقسيم الذي اخترعه للحضارات، فهو عندما تواجهه مشكلة الصراع بين فئات تنتمي حسب تقسيمه إلى حضارة واحدة (كالصراع بين السنة والشيعة في الباكستان مثلاً، أو بين الكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا) يحاول الالتفاف على ذلك بتقسيم الحروب والنزاعات بين الجماعات ذات الانتماء المحدد إلى حروب سماها ((حروب خطوط التقسيم الحضاري)) وأخرى سماها(الحروب الطائفية) وراح يميز بين

خصائص كل منها (٢٣). علماً أنه كان يمكن تجنب هذه الحذلقات بإعادة الحروب إلى أبعادها الحقيقية وهي المصالح كما سنرى،سواء كانت ظاهرة معلنة أو خفية مبطنة. والصراع الذي حصل في لبنان والذي أخذ المظاهر الطائفية مثال واضح يشير إلى أن مصالح السياسة والنفوذ ومصالح أخرى داخلية وخارجية كانت وراءه مهما بدت القشرة الطائفية للصراع براقة.

أيضاً فإننا لا نجد مثل هذه المعايير تنطبق على صراع الأكراد مع الدولة التركية أو مع نظام الحكم في العراق، إذ لا ينطبق على هذا النزاع والتصادم لا المقياس الديني ولا الطائفي، إذ لا يوجد خلاف ينطبق عليه أي من المقاييس المشار إليها.

تقسيمات تثير الأسئلة :

إن التعسف واللامنطقية في التقسيمات الحضارية التي يوردها هنتنجتون، تثير الشعور بتهافتها وعدم دقتها، لا بل عدم قدرتها على أداء الوظيفة التي توخاها منها، وهذا أمر يثير الكثير من الأسئلة.

لماذا كانت بعض الأديان تشكل حضارة حيث انتشرت وربما أكثر من حضارة، وبعضها لا؟ فاليهودية وهي دين سماوي سابق على المسيحية والإسلام، لا تنسب إليها حضارة كما تنسب للدينين اللاحقين أيضاً هناك أديان كثيرة بعضها واسع الانتشار كالبوذية، لا ينسب إليها حضارة!

لماذا كان التفارق الطائفي حدوداً حضارية في المسيحية (الكاثوليك والبروتستانت حضارة، والأرثوذكس حضارة ثانية) ولم يكن في الإسلام كذلك مع أن حدود التفارق بين طائفتي السنة والشيعة مثلاً، واضحة؟ فهو يطبق مقاييس مختلفة على واقع متشابه.

لماذا جمع البروتستانتية والكاثوليكية معاً في حضارة واحدة وأفرد الأرثوذكسية في حضارة مستقلة؟

إنه يقيم حدوداً دينية بين الحضارات ولكنها تساير حدود الدول (أي سياسية) علماً ان بعض الدول منقسمة طائفياً ودينياً، فالولايات المتحدة تتعايش فيها عدة أديان والكثير من الطوائف، والمسلمون فيها ليسوا أفراداً بل ملايين، كذلك في

فرنسا يعيش أربعة ملايين مسلم، وفي بلدان عربية كمصر وسوريا والعراق تعيش طوائف مسيحية تشكل نسباً جيدة من السكان، فهل تتعايش حضارات متعددة في كل بلد من هذه البلدان؟ ولم لا تتصادم؟

هناك مثال يستخدمه هنتنجتون كثيراً وهو أوكرانيا (٣٤)، فهي تتقسم بين الحضارة التي يطلق عليها الأرثوذكسية الشرقية وهي مسيحية تختلف عنده عن المسيحية الغربية (كاثوليك وبروتستانت) التي ينتمي إليها الجزء الغربي من أوكرانيا في حين ينتمي الجزء الشرقي إلى الأرثوذكسية، مع ذلك فإن أوكرانيا تتشكل من الجزأين اللذين لا يتصارعان، وتتغلب الأوكرانية (القومية) على التكوينات الطائفية (الحضارية) التي لو صدق تقسيم هنتنجتون لندر أن نجد دولة ليس فيها مثل هذا الصراع، ولتحولت ساحاتنا الوطنية إلى ساحات حرب جميعاً.

لماذا اعتمد المقياس الديني لتشكل حضارات في الإسلام والمسيحية والكونفوشية في حين اعتمد مقياساً آخر هو البعد الوطني أو الجغرافي القاري في الإشارة إلى حضارات أخرى كاليابانية والإفريقية وحضارة أمريكا اللاتينية، ولم يسع إلى تقديم بيانات أو شروح تذكر عنها، في حين تناول الحديث عن الإسلام والمسيحية باستفاضة؟

السؤال الأهم أن التسميات تشير إلى بعد ديني أو طائفي وإذا كانت الدول الإسلامية متهمة بعدم قدرتها على الخلاص من الانتظام داخل الخطاب الديني ولا يزال حضور هذا الخطاب معبراً وذا دلالة واضحة، فكيف يمكن تطبيق المنظور ذاته عند ذكر الحضارة الغربية ونسبتها إلى الكاثوليكية والبروتستانتية علماً أن الغرب تخلص من الخطاب الديني على مستويات متعددة، متبنياً العلمانية كمنظور ومقياس لتعاطيه مع أمور الحياة، والدول الأوروبية لا تحيل في الشؤون الحضارية إلى ما هو ديني؟

ما الذي يجعل الأكراد يخوضون حربهم الدموية مع دول إسلامية يعيشون فيها، من أجل استقلالهم طالما أن الدين واحد؟ ولماذا يستقلون والدين واحد؟

إذا كان الدين مقياساً ومعلماً تتشكل الحضارات على أساسه، فماذا نصنع بالعناصر التي تبتعد عن الدين حتى في الدول الأشد تكريساً له كالدول الإسلامية؟ ففي هذه الدول توجهات علمانية وهذه التوجهات تتفاوت من الأخذ بأسباب الحضارة الغربية في التعليم

والتنظيم والإدارة الاقتصادية وصولاً إلى أنظمة الحكم التي أخذت بالمنظورات الغربية والمتطلعة إلى الديمقراطية أو التي استلهمت الماركسية وغيرها، وهذه كلها لا ينظمها المنظور الديني وترسيماته. ونحن هنا أمام طريقين وكلاهما يعمل على القسر، فإما أن نقسر الدين ليستوعب ما ليس منه، أو نقسر مالا ينتمي إلى الدين ليدخل فيه وكلا الأمرين مجافٍ لطبيعة الأشياء وحقائق التاريخ والواقع، وليس في صالح المقاييس أو المعايير الهنتجتونية في تشكل الحضارات واصطفافاتها وصدامها.

استبعاد المعيار الديني:

المعيار الديني والخطاب الذي يعتمده يتسم بالقدرة على التفتيت والتفريق وهو خطاب ومعيار ملغم، ولا ندري كيف ومتى وبمن ستنفجر الألغام، ولا شك أنها لن تحمل الكثير من السعادة للبشرية. وإن مسايرة هذا التقسيم وهذا الخطاب سياسياً ينطوي على خطورة ظهرت وتظهر في التعاطي مع مشكلات تنتمي إلى عالم السياسة كالهجوم على مركز التجارة العالمي والبنتاغون في أمريكا، وكالحرب التي شنت وتشن على العراق.والإشارة إلى أن ديناً ما ينطوي على ما لا ينطوي عليه غيره، وإن أحدهما فيه الطمأنينة والإنسانية والرقي والآخر فيه الهمجية والعنف، لا يصمد أمام حقائق التاريخ والمضمون القيمي.

يرى د. أداورد سعيد أن ننظر إلى التشابهات على الرغم من اعترافنا أنها لا تنتمي إلى المستوى نفسه من التدمير، بين ابن لادن وتابعيه، وحركة أمريكية مثل ((الفرع الداوودي)) أو أتباع الواعظ جيم جونز في انتحارهم الجماعي في غيانا /١٩٧٨/، أو حركة ((أم شيزيكو)) التي هاجمت قطارات طوكيو بالغاز السام /١٩٩٥ (٣٥).

وإن الحديث عن فوارق حضارية تقوم على العلاقة بالتكنولوجيا لا يسهم في تبين حقيقة حضارية، تشير إلى أن حضارة ما يمكن أن تحتكر قيم التطور المادي، وغيرها يعاني من عجز بنيوي لانتسابه إلى دين معين، فالأمر مرهون بنشاط البشر لا بالقيم الدينية، وهذا يفسره قدرة إرهابيي /١١/ أيلول الذين تمكنوا من السيطرة على كل التفاصيل التقنية المطلوبة لارتكاب جرائمهم الجهنمية. يتساءل ادوارد سعيد، أين نضع الحد الفاصل بين التكنولوجيا الغربية ورأي برلسكوني في عجز الإسلام عن أن يكون جزءاً من الحداثة؟ (٣٦).

إن عملاً كبيراً ينتظر أولئك الذين يؤمنون أنه لا يجوز أن يكون مصير البشرية محكوماً بنظرة ثقافية (حضارية) من شعب إلى شعب آخر لاختلاف المعايير وأنماط السلوك والحياة. بل يجب أن تكون لدينا القدرة على تحديد المشترك الإنساني، أو المشترك بين شعبين وحضارتين، وبين الأجزاء المتفردة والخصوصيات وتهذيب النشاذ منها كي لا يكون قادراً على إحداث الأذى للآخرين، وهذا دور تقوم به كل حضارة داخلياً مثلما أن الحضارات المتسيدة يجب أن تتخلص من الكثير من غطرستها، وأن تعمل على فهم الآخرين ضمن معاييرها، وهذا عمل قام به البعض عندما لاحظوا مساوىء النظرة التمييزية التي تتسم بالإشارة إلى دونية الآخر.

فقد قام رجل الدين اللبناني ((ابراهيم متري رحباني)) الذي عاش في أمريكا بتأليف كتاب ((المسيح السوري)) ونشره عام /١٩١٦ ليظهر كيفية فهم مسيحي الشرق الذي يخالف ما هو سائد في أمريكا، ولا يزال سائداً و تعتمده في فهم الآخرين وتطبيق مقاييسها عليهم ومحاسبتهم على ما تراه، دون ذنب ارتكبوه سوى الاختلاف في الرؤية الثقافية لشؤون الحياة. وقد نشر الرحياني كتابه /١٧/ مرة بين ١٩١٦ - ١٩٣٧(٣٧).

يتبين خطأ المعيار الديني في تقييم مواقف الشعوب واصطفافاتها كما يريد هنتنجتون أن يؤكد، في رد فرد هاليداي عليه، في الإشارة إلى إيران التي ينظر إليها أنها أكثر إسلامية، أي أكثر تعصباً للإسلام ضد الآخرين باعتبار أن الحكم فيها للثورة الإسلامية التي قادها الملالي وهم أكثر تشدداً أو تمسكاً بما هو إسلامي، مع ذلك وبالرغم من أن سياستها الخارجية تعتمد على الدين بشكل خاص، فإنها تقيم علاقات جيدة مع الهند المتنازعة مع باكستان الإسلامية، وتؤازر الصين التي هي في حالة صراع مع المسلمين الصينيين، كما أنها تؤازر الأرمن في صراعهم مع الأزربيجان حول منطقة كارياخ لأن تركيا تؤازر الأزربيجان[٣٨].

إن الانطلاق من حالة تفوق لا يترك مجالاً للنظرة الموضوعية. فمن كان في الأعلى ويسعى للبقاء حيث هو، لا يتمكن من ذلك إلا إذا كان هناك من هو أدنى ولتتحقق القطبية، بالتالي لا تتحقق النظرة الموضوعية في التعاطي بين الأطراف، لذا تقتضي التراتبية الإقرار بواقع يصعب على من كان في الأدنى الركون إليه والالتزام به لما يحمل من يأبيد الدونية، ولما يراه من عسف النظرة إليه.

هوامش الفصل الثالث

١ - تيري إيجلتون، فكرة الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية بدون رقم الطبعة تاريخ النشر ص١٤٨.

٢ - د. عادل العوّا، التسامح ـ من العنف.... إلى الحوار، دار الفاضل، دمشق، ط١ /٢٠٠٢ ص٣٥ ـ ٣٦.

٣ -المرجع السابق ص٣٦.

٤ - تيري إيجلتون، المرجع السابق ص١٤٦.

٥ - د. محمد أركون، العلمنة والدين، دار الساقي، ط٢ /١٩٩٢/ ص٧١، أيضاً كتابه: الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي ط١٩٩٢/٢ ص١٢ وفي باقي مؤلفاته.

٦ - راجع، حسن ابراهيم أحمد، العقل الإيماني، مصداقية الوعد بالخلاص، دار المدى للثقافة والنشر، ط١ /٢٠٠١.

٧ - د. ادوارد سعيد، مقال بعنوان: صدام الجهالات، نشر على الانترنت بتاريخ ٢٠٠٢/٨/٢٤.

٨ - د. نقولا زيادة، المسيحية والعرب، دار قدمس للنشر والتوزيع، ط١ /٢٠٠١ ص٧٢.

٩ - د. عبد الرحيم الكريمي، صراع أم حوار بين الحضارات... أم صراع ضد هيمنة النظام العالمي الجديد، مجلة النهج/٣٣/ سنة/١٩/ شتاء /٢٠٠٣/ ص١٣٩ نقلاً عن اسبوز يتو في كتابه: (التهديد الإسلامي خرافة أم حقيقة؟) ترجمة: د.قاسم عبده قاسم ص٦٠ ـ ٦٣.

١٠ - المرجع السابق ص١٣٩.

١١ - راجع بهذا الشأن كتب فراس السواح مثل: لغز عشتار، دين الإنسان وغيرها.

١٢ - فراس السواح، لغز عشتار، الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار الكندي ط ٣ /١٩٨٨ ص٢٣٥ ـ ٢٣٦.

١٣ - المرجع السابق ص٢٣٦.

١٤ - عبد الرزاق رحيم صلال الموحي، العبادات في الأديان السماوية ـ اليهودية المسيحية ـ الإسلام، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، ط١/٢٠٠١ نقلاً عن رشدي عليان وسعدون الساموك: الأديان دراسة تاريخية مقارنة.

١٥ - د. محمد اسماعيل الندوي، الهند القديمة، حضاراتها، ودياناتها، دار الشعب /١٩٧٠ ص٩٦.

١٦ - المرجع السابق ص٤٤

١٧ - عبد الرزاق رحيم الموحي، المرجع السابق ص١٣٠ وما بعده.

١٨ - د. محمد اسماعيل الندوي، المرجع السابق ص١٠٤.

١٩ - عبد الرزاق رحيم صلال الموحي، المرجع السابق ص٣٧.

٢٠ - المرجع السابق ص٢٠١ وما بعد.

٢١ - المرجع السابق ص١٣٤ وما بعد.

٢٢ - خليل عبد الكريم، الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، سينا للنشر + الانتشار العربي الطبعة الثانية /١٩٩٧.

٢٣ - سمير أسحق، جريدة النور/٩٥/ ٢ نيسان /٢٠٠٣.

٢٤ - د. عادل العوا، المرجع السابق ص٤١ وما بين قوسين نقلاً عن محمد كرد علي.

٢٥ - إيريك دوتشميد، الفصل الثاني من كتاب (دور الصدفة والغباء في تغيير مجرى التاريخ) ترجمة : محمد حبيب، والفصل بعنوان: ضياع الصليب الأعظم، قرنا حطين. منشور في مجلة النهج عدد /٣٣/ سنة /١٩/ شتاء/٢٠٠٣ ص٢٠٥.

٢٦ - المرجع السابق ص٢١٥.

٢٧ - د. عبد الله ابراهيم، المركزية الأوروبية، مرجع سابق ص١٦.

٢٨ - تيري إيجلتون، المرجع السابق، ص١٤٨

٢٩ - صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، مرجع سابع، ص٤٦.

٣٠ - المرجع السابق، ص٢٩٣

٣١ - المرجع السابق، ص٤١٦

٣٢ - المرجع السابق،ص٤١٤

٣٣ - المرجع السابق، ص٤١١

٣٤ - راجع المرجع السابق ص٢٧٠

٣٥ -د. ادوارد سعيد، المرجع السابق

٣٦ - المرجع السابق.

٣٧ - أسامة عجاج المهتار، المسيح السوري وحوار الحضارات، مجلة المعرفة السورية /٤٧٣/ شباط /٢٠٠٣ السنة /٤١/

٣٨ - فرد هاليداي، مرجع سابق.



الصدام ترعاه المصالح

الثقافة أو التمدن أو الحضارة، مصطلحات تحيل إلى معاني باعثة على الطمأنينة، وبالتالي فهي تبتعد عما يولد الصدامات والشرور، لأن هذه تحتاج إلى رعاية همجية على حد تعبير جلبير الأشقر.

إن أحد المعاني التي يبعثها في النفس مصطلح الحضارة، هو أن الموصوف به تجاوز مراحل كثيرة في حياة البشرية، تقطع نهائياً مع شرائع الغاب ومع العدوانية ليصبح أكثر رقياً، وليطور أساليب حياته وفكره إلى مستوى التعايش السلمي (الحضاري) مع الآخرين، لأن مفهوم الثقافة في مراحل تطوره كما يرى تيري أيجلتون .. أصبح يتطابق مع مفهوم ((الكياسة)) ثم يتطور إلى التطابق مع مفهوم ((الحضارة)) وأن التعالق بين التصرف المؤدب والسلوك الأخلاقي جعل الناس يجدون الحضارة في مصطلح ((جنتلمان)) الإنكليزي(١). فالحضارة إذاً تقطع مع ما لا ينسجم مع الكياسة، ومع ما لا يجب أن يقوم به الجنتلمان، بوصفه ممثلاً لقيم رفيعة.

إذن في طيف المعاني التي تحملها الحضارة نبذ للعنف، وإعمال لكل القوى المسالمة والطيبة، في تطور البشرية. فكيف تمت توليفة الصدام مع الحضارة ؟ ولماذا ؟ طالما أنهما ينتميان إلى عالمين أو حقلين نقيضين، حقل السلام (الحضارة) وحقل العنف (الصدام).

من هنا أرى أنه من الواجب البحث عن تأصيل الصدام في حقل آخر يحتمله ويرعاه، بل يتجانس معه باعتبار أن حقل الحضارة ومفهومها لا يحتمله.

لا يعني هذا أننا نبحث عن نفي الصدام أو الصراع ـ على ما بينهما من خلاف في المفهوم ـ عن ميادين الحضارات، فقد اتسم تاريخ البشرية بهذا الصدام، ولقد أشرت سابقاً إلى أن العلاقات أو المحطات البارزة في تاريخ البشرية هي علاقات الصدام. لكن المقصود أن الصدام يتأصل في حقل المصالح، مصالح القوى المتناحرة والباحث كل منها عن تحقيق مكاسب دون أن تحسب حساباً للأخرى، بل يصل إلى حد محاولات إلغاء الآخر والقضاء عليه، بذلك يكون المناخ أكثر ضماناً لتحقيق المكاسب المطلوبة، وهذا يعني حتمية الصدام، انطلاقاً من حق المصدوم في الدفاع.

إذا كنا قادرين على الإشارة إلى صراع بين قوتين تنتميان إلى حضارتين متخالفتين بأنه صدام حضاري، فماذا نسمي الصراع الذي يصل حد الصدام بين قوتين من حضارة واحدة، وما أكثره كما سنرى؟ هل هناك ما يفسره سوى المصالح، طالما أننا لا نجد له تفسيراً في التفارق بين الحضارات؟

إن التفسير المنطقي والواقعي، والذي يشير إلى المبرر الأقوى في تحديد أبعاد الصراعات، هو أن نبحث عن المصالح التي تستهدي بها القوى المتصارعة، حتى لو وضعت الدين والمبادئ والقيم في واجهة مبرراتها.

الإشارة إلى المصالح:

قد يقول قائل أو يسأل سائل، وهل الحضارات هي منظومات قيم فقط؟ أليس للمصالح نصيب فيها؟

نعم، إن للمصالح فيها نصيب، وقد يكون العمل القيمي الذي يبقى على الأيام هو نتاج دافع مصلحي، أو أن مصلحة معينة هي التي قادت إليه، فلا شك أن الكثير من الآثار الشاهدة على الحضارات سواء كانت آثاراً مادية أو معنوية، كانت دوافعها مصلحية، فلم تقص شهرزاد حكاياتها لتصبح بهذه الشهرة والامتداد العالميين، بل لتحمي نفسها من القتل ولتحمي بنات جنسها وفي ذلك مصلحة، وإذا بالمصلحة تتجلى عن عمل حضاري خالد.

الجانب المصلحي في الحضارات ينتهي بانتهاء المصلحة أو تحققها كما بانتهاء أصحابها، ويبقى الجانب القيمي، وفي الأعم الأغلب هو الذي يطلق عليه حضارة، سواء تمثل في منتجات مادية أم لا.

والمصالح في الحضارات ليست واحدة فهناك مصالح آنية تنشأ وتزول بسرعة وينقضي أثرها في وقتها، بينما هناك مصالح ممتدة عبر الزمان والمكان، وتترك آثاراً ممتدة عبر الزمان والمكان، وتتحول إلى رموز وقيم وتدخل عالم البقاء سواء لفترات قصيرة أو طويلة أو يعانقها الخلود.

إن ما يطمح إلى الخلود، قد يكون مالكاً لعناصر ومقومات البقاء فيبقى، وليس بالضرورة أن يبقى عبر الصدام، فينتمي إلى عالم الحضارة بالمعنى الشائع أو المتعارف عليه، أما عالم المصالح، فشيء آخر، إذ أن المصلحة لكي تتحقق قد يتوجب عليها أن تزيل مصلحة أخرى لآخرين من أمامها تشكل عقبة في طريقها فتتصادم المصلحتان، سواء كانتا تنتميان إلى حضارتين مختلفتين أو إلى حضارة واحدة، المصالح تتناقض بينما القيم تتكامل، يكمل اللاحق السابق ويسد ثغراته بدل أن يستغلها، ويدرجه في منظومته بدل أن يتجاوزه سلبياً.

كلا الفعلين ينتميان إلى حضارة، لكن ما هو زائل أو غير باقٍ، لم يعد يشكل جزءاً من الحضارة إلا بالمعنى التاريخي الإخباري الشاهد على الفعل، أما الباقي فهو بامتداده وبقائه شاهد ودليل وعنصر حي بنفسه أو بغيره، بمعنى بدخوله كعنصر أو جزئية في حضارات أخرى شكل لها حافزاً أو مساعداً أو منطلقاً. وهذه تتكامل ولا تتصادم، ومن هذه القيم ما لا تستطيع الأيام أن تجد له بدائلاً. هل نستطيع القول إننا يمكن أن نزيل أو نلغي الفلسفة اليونانية ثم نتحدث عن تاريخ الفلسفة؟ هل نستطيع أن نلغي أو نزيل رياضيات إقليدس و فيثاغورث والخوارزمي، ونلغي اكتشاف الهند للأعداد و اكتشاف العرب للصفر ثم نتحدث عن تاريخ الرياضيات واعتباره أحد مكونات الحضارة الحديثة؟

لا أرى أن غياب مفهوم المصالح عن الكثير من الكتابات التي ناقشت الموضوع، يعني أن أصحاب هذه الكتابات قد غاب عنهم دور المصلحة في إحداث الصراعات والصدامات. لكن طغيان المصطلح الهنتنجتوني على ساحة الموضوع عمم

مفهوم ((صدام الحضارات)) حتى أصبح محور الحديث تأييداً أو شجباً. وقد وردت الإشارة إليه عند بعض الكتاب لكن دون أن يعطى حقه من البحث، ربما لأن هناك تفعيلاً قوياً لمصطلح هنتنجتون بحيث أن المطلوب إخفاء غيره باعتبار استخدامه كمبرر، أو الحاجة إليه في تطبيق بعض السياسات للقوى التي ترعاه، وإن استخدام غيره بشكل واسع لا يصب في مصلحة هذه القوى، وسيفتح الأعين على حقائق يطلب أن تبقى متوارية، على الأقل ريثما يتم إنجاز مشروع ما.

ونجد مفكرين عالميين كباراً يترددون بين اعتبار الثقافات أو المصالح سبباً للصدام. فأنطوني جيدنز عالم الاجتماع البريطاني المبرز، نجده لا يخرج من دائرة التأثير الهنتجتونية، وربما كان ممثلاً لقوى تساير مفاهيم هنتنجتون، فهو مستشار لرئيس الوزراء البريطاني (بلير)، يقول: ((ولكن حيثما تتجه الكثير من الثقافات بقوة نحو التماس ببعضها البعض على نحو ما نشهده في الأوضاع الاجتماعية الراهنة، يصبح الصدام العنيف بين الأصوليات موضع اهتمام جاد وخطر))(٢). ولكنه لا يلبث أن يصحح المسار لأفكاره ويعترف: ((إن العنف ينشأ ببساطة في غالب الأحيان من صدام المصالح والصراع من أجل السلطة))(٣).

بهذا الوضوح الشديد يعبر جيدنز عن دور المصالح في الصدام لكن دون أن يغوص في شرح ذلك وإثباته تاريخياً.

لقد أورد تعبير ((صدام المصالح)) الدكتور محمد الجبر، لكن دون شروح أو تعقيب أو متابعة ما أبقاه بعيداً عن توصيف الحالة، أو شرح المقصود منه، أو دون وضعه كمقابل آو بديل أو منافس لـ ((صدام الحضارات))(٤).

وإذا كان إغفال الحديث عن المصالح هو السائد، وأن بعض الإشارات إليها لم تكن كافية، فإن إشارات أخرى ألصقتها بجهة دون أخرى، فالمصالح هي التي تقود الغرب وتوجهه في علاقته بالآخر كما يرى د. محمد عابد الجابري : ((الغرب مصالح، ولا شيء غير المصالح، وكل حوار معه أو تفكير ضده لا ينطلق من المعادلة التالية(الغرب = المصالح) إنما هو انزلاق وسقوط في شباك الخطاب المغالطي التمويهي السائد في الغرب...))(٥).

وتعقيباً أو استدراكاً على قول الجابري، نرى أنه ليس هناك قوة صادمة عبر التاريخ، كانت بعيدة عن المصالح في توجهها لصدم الآخرين وغزوهم، وهنا قد لا يتساوى الطرفان المتصادمان فقد يكون الصدام بينهما على ما يسعى كل منهما للاستحواذ عليه، كصدام قوى الاستعمار الأوربية في الحربين العالميتين وأساسه على المستعمرات والنهب، وقد يكون الصدام من قبل جهة لاستغلال أو استعمال جهة أخرى، وهذه الجهة الأخرى تدافع عن نفسها، فلا يتساوى الموقفان، كدفاع البلدان المستعمَرة عن نفسها ضد القوة المستعمِرة.

إن حروب فرنسا وبريطانيا للاستيلاء على طريق الهند، لا يمكن مقارنتها بمواجهة الشعب المصري لغزو كلا الدولتين لمصر باعتبارها أهم محطات هذا الطريق. فالصراع بين بريطانيا وفرنسا صراع وصدام بين قوتين متناحرتين (مع انتمائهما إلى حضارة واحدة في العالم الهنتنجتوني) تسعى كل منها للحصول على غنيمة، في حين لا تسعى مصر إلى الحصول على هذه الغنيمة من مواجهتها لهما، فغنيمتها لا تتجاوز السلامة والحرية.

وسياسات الفصل العنصري التي مورست في جنوب أفريقيا لم تكن تهدف لأكثر من أن يتمتع البيض الغربيون بالخيرات الوفيرة التي تزخر بها الأرض الأفريقية، مما أدى إلى سياسة ونشاط عنصري سيبقى وصمة في جبين الحضارات التي تدعي التميز، كما استدعى رد الفعل والمقاومة. وليس ببعيد عن هذا ما تفعله الصهيونية المحسوبة على الحضارة الغربية في فلسطين.

وهكذا كل صراعات القوى الاستعمارية، سواء كانت أوربية أو غير أوربية، فهي في سبيل مصالحها كصراع الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية قديماً، وكذلك صراع القوى الصادمة مع الشعوب المراد استعمارها واستغلالها.

المبادئ ليست في صلب المشهد:

وكي لا نبدو وكأننا نكرر النغمات التي يعزف عيها الكتاب العرب، والهادفة فقط إلى تبرير المواقف العربية وإبراز دور العرب والدفاع عنه، ومع أن هذا

شيء لا يعاب، إلا أن هدف البحث لا يتوخى هذا الغرض إلا جزئياً أي من الجانب الذي يخدم فكرة البحث، فإننا نشير إلى أن الحضارة العربية الإسلامية عندما كانت في طور القوة والتمدد صدمت جيرانها، ولم يكن هذا الصدم بعيداً عن المصالح المحركة والكامنة في حقيقة التوجهات الإسلامية، مع أن المسلمين يصرون على أنها كانت من أجل المبادئ ونشر القيم الإسلامية البعيدة عن المصالح المادية الآنية. ولا بأس من الإشارة إلى ذلك دون أن ينقص من المكانة التاريخية للفتوح، وفي سبيل ذلك يمكن الإشارة إلى البحث القيم الذي قدمه المفكر خليل عبد الكريم، وهو كتابه ((شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة)) بأجزائه الثلاثة(٦).

إن هنتنجتون الناطق باسم (بعض) الغرب وبعض مصالحه، لا يجد الإمكانية لإقناع حتى مواطنيه بترسيمته الصدامية حتى أن الكثير منهم أوضح تهافتها. ينقل الجابري عن غراهام فولر وهو باحث مرموق في مؤسسة ((راند)) الأمريكية، رده على هنتنجتون في مقال بعنوان: (الأيديولوجيا المقبلة) نشرها في مجلة السياسة الخارجية الأمريكية ربيع /١٩٩٥ قوله في هذا المقال: ((إن الصدام الحضاري ليس صداماً حول المسيح أو كونفوشيوس أو النبي محمد بقدر ما هو صراع سببه التوزيع غير العادل للقوة والثروة والنفوذ والازدراء التاريخي الذي تنظر به الدول والشعوب الكبرى إلى الصغرى. الثقافة وسيلة للتعبير عن المنازعات وليست سبباً فيها))(٧).

بهذا الوضوح الشديد يتم تفجير فكرة الصدام الهنتنجتونية من الداخل، وذلك بإبراز الأسباب الحقيقية الكامنة وراء الصدام والدافعة له.

المبادئ والعقائد قيم يتم تبنيها، وهي لا تحيل إلى صدام، إن من شأنها أن تبتعد عن الصدام، وإذا كنا نقتنع بنسبية هذا الرأي، فليس لأن العقائد تقع في صلب الأهداف الحقيقية للصدامات، هي قد تستخدم كمحرضات، أو للتغطية، تنشر كيافطات معلنة، لكن الحقائق تبتعد عن إمكانية زجها في صلب الصراعات والصدامات الكبرى في العالم، لقد بينا أن العقائد لا تأذن بالتسامح في كثير من الأحيان، لكنها غير قادرة على صناعة صدامات كبرى بين الحضارات. (في تاريخ الصراعات السياسية والحروب بين القارات والأمم، ليس هناك مواجهة تتم تحت

شعارات الخير والشر، هذه لغة الأديان، وبقدر ما يتم نشر ((المفهوم المطلق)) خيراً أو شراً فوق الصراعات الراهنة، بمقدار ما يدفع العالم دفعاً إلى ما يسمى ((صدام الحضارات)).(٨).

لقد ثبت أن العلاقات بين الحضارات المختلفة الديانة، حواراً أو صداماً، لم يكن سببها الاختلاف العقدي أو المناطقي، إنما كانت تستهدي بالمصالح. فمصالح الخلافة العباسية دفعت هارون الرشيد إلى التحالف مع شارلمان الذي كان ملك الفرنك (أو الفرنجة كما سمتهم العرب) بين سنتي ٧٧١ ـ ٨١٤ م أو إمبراطور الغرب بين ٨٠٠ ـ ٨١٤ م. وكان التحالف ضد خلفاء الأندلس من المسلمين، ولو كان الدين هو الأساس في الصراعات، ما كان على الرشيد أن يتحالف مع شارلمان(٩).

وفي العصر الحديث نرى علاقة الغرب بالدول العربية والإسلامية ذات العقيدة الدينية الواحدة والمنتمية إلى حضارة واحدة، تختلف من دولة إلى دولة، من تشابك المصالح إلى إعلان الحرب، والعكس صحيح، والمصالح وحدها هي التي تصنع العلاقات.

منذ القديم كانت المصالح هي الهادية، وهي التي تدفع إلى مخالفة العقائد، فالرشيد تحالف مع مسيحي ضد مسلم، وشارلمان تحالف مع مسلم (عدو)، لكن المصلحة جعلت كلا الطرفين يغفلان القيم والمبادئ، وهذا ممتد تاريخياً. وقد أشرنا في الحديث عن دور الدين في صدام الحضارات إلى أفعال الصليبيين الفرنجة في الشرق العربي، والمصالح التي كانت توجه((عصابة البارونات)) مما هو واضح في أن المصالح وليس العقائد تحرك الجيوش. وقد ((كان في سبيل الله والذهب أن خرج الغربيون لغزو العالم في القرن السادس عشر)) بتعبير هنتنجتون(١٠).

وهذا ليس جديداً في مسار الغرب الناهض، والمستشعر لقوة لا تستطيع كبحها قوى أعدائه أو من تخيلهم أعداءه، فالأطماع لا حدود لها: ((إذ أن الحكام المسيحيين الفرسان والتجار قد ساقتهم المزايا الحساسة والعسكرية والاقتصادية التي نجمت عن تأسيس مملكة لاتينية في الشرق الأوسط فالفرسان من فرنسا وغيرها من أنحاء الغرب الأوربي تحركوا بدافع الأمل في الحصول على الغنائم

واحتشدوا في حرب كان هدفها الصوري تحرير المدينة المقدسة)) (١١). ويتابع: ((كانت الدعوة للحرب في الشرق في حقيقتها سعياً وراء استعادة سلطة الكنيسة الغربية في المنطقة، ومحاولة لبسط نفوذ تلك الطبقة البرجوازية في أوربا، والتي بدأت في التطلع إلى السوق والتجارة والتحكم في المد الإسلامي العربي الذي بدأ منذ ثلاثة قرون من الدعوة الإسلامية))(١٢).

المصالح لا تساير الحقائق:

عندما تبرز العقائد في وجه المصالح، فإن هذه الأخيرة تسعى لتجاوزها بأساليب متعددة. فهي تستخدمها للتبرير، بعد أن ترفعها كشعارات لحراكها، إذ قلما نجد حرباً تعلن رافعة شعارات مصلحية واضحة، دائماً تعلن الحروب تحت يافطة القيم ورعاية المقدس، وإذا لم تسعف القيم أصحاب الحروب ومروجيها وسدنتها، فلا مانع عندها من تجاوز القيم بكل صفاقة ووضوح، وتكون الحرب بذلك فقدت غطاءها القيمي والأخلاقي، وأصبحت شعاراتها أكثر وضوحاً في حيّز المصالح. ينطبق هذا إلى حد ما على الحرب الأمريكية البريطانية على العراق، فقد عجزت هذه القوى عن توفير الغطاء الأممي (الأخلاقي القانوني الإنساني) للحرب لكن هذا الغطاء غير المتوفر لم يمنع الأطراف الصادمة من إتمام مشروعها الصدامي وتدمير العراق وإحلال الخراب فيه.

ومن الواضح أن هناك متهمين بتصعيد الموقف لمصالح كامنة، فراجح الخوري يرى:((أنه لن تتوقف الأشباح الصهيونية والأصابع اليمينية المتطرفة التي تنشط في كواليس السياسة الأمريكية، قبل أن تضع المسيحية والإسلام في مواجهة حماقة الصدام المطلقة، حيث لا يستفيد أحد في النهاية غير أولئك الذين أطلقوا هذه الرياح ونفخوا في هذه الأشرعة)) (١٣). ولا شك أن الأشباح والأصابع المشار إليها هي تعبير موارب عن مصالح الفئات المحرضة.

إن من هذه المصالح ما يبدو مباشراً آنياً، ومنها ما يبدو ثأرياً يتوطن الأغوار، ويتوخى طمس حضارات وقيم مغروسة في عمق التاريخ، للاستعاضة عنها بما تدفع

بـه القـوى العولمية المعاصـرة، وإلا كيف نفسـر الهجـوم علـى كـل مـا يمثـل الأصـالة والعمـق الحضـاري لحضـارة الرافـدين في اجتيـاح العـراق تحـت سمـع وبصـر القـوات الأمريكية الغازية، وبمـا سيكشف التـاريخ آنـه بتخطيطهـا؟! يقـول روبـرت فيسـك: إنه كان شاهد عيان على حرق المكتبات والرسائل والوثائق النفيسة في بغداد وعلى تدمير الآثار ونهبها، وأنـه طالـب الجنـود الأمريكـان وحرضهم بنفسـه علـى التصـدي للتخريب المتعمد وتدمير التراث دون أن يكترثوا لذلك(١٤).

هل سيكون هذا إنذاراً للعالم الذي عليه أن يخضع بماضيه وحاضره ومستقبله للأمـر الواقـع، فـلا ترتفـع قمـة فـوق قمـة الأمـر الواقـع، وأن التـاريخ أيضـاً يجـري اصطياده وإجباره على الإقرار بذلك، وإلا فالحرب يمكن أن تعلن عليه أيضاً؟!

إن ما تعلن عنه القوى الاستعمارية في حركتها لاستغلال خيرات الشعوب ونهب ثرواتها، هو لتغطية الحقائق وتجاوزهـا، وحتـى الكلمـة المستخدمة للتعبير عـن هـذا الحراك ((الاستعمار)) تعلن عن زيفها عند الاصطدام بحقائق الأفعال التي قامت بهـا القوى الصادمة لـ ((أن شرط ((نمو)) الغـرب إنمـا كـان بالضـرورة وليد نهب ثـروات القـارات الـثلاث ونقلها إلى أوربـة وإلى أمريكـة الشـمالية، وبالمقابل فـإن الغـرب هـو الذي جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفاً)) (١٥).

هذا الكلام لسليل الحضارة الغربية، المفكر روجه غارودي السابق لهنتنجتون في دراسـة علاقـة الحضـارات ببعضـها. وهـو يـرى أن الكـثير مـن الحقـائق الـتي تم إعلانها من قبل الغرب عن الكثير من القضايا هـو إعـلان تنقصـه الحقـائق، بالتـالي هو لا أخلاقي، والمقصود منـه التمويه علـى هـذه الحقـائق وإخفاؤهـا، لتناقضـها مـع القيم التي يتغنى بها الغرب: ((يقال في بعض الأحيـان أن النخاسـة((اقتصـرت))، علـى تهجير بضعة ملايين من الناس إلى أمريكـة، وهـذا يعـني نسـيان أن كـل أسير كـان يقابله بوجه عام عشرة أموات. فإذا قدّرنا عدد العبيد المهجرين بعشرة ملايـين - وهـذا العدد هو حد أدنى - فذاك يعني إفناء مائة مليون من البشر)) (١٦). إن محاولـة إخفـاء الحقـائق مسـايرة للمصـالح ودعمـاً لهـا، دفـع إلى التعميـة علـى هـذه الحقـائق حتـى لـو كانـت تاريخيـة، فـالغرب لا يريـد أن تـذكر نواقصـه ومسـالبه وهزائمـه أو مرارتـه، فقد طـرد غـارودي مـن تـونس بتهمـة الدعاية المعارضـة لفرنسـا عـام ١٩٤٥، لأنـه أورد

جواب دوبو للسيدة نوزيير بأن أشأم يوم في تاريخ فرنسا هو يوم معركة بواتيي، عندما تراجع العلم والفن و الحضارة العربية سنة /٧٣٢/ أمام الهمجية الفرنكية(١٧). وهو يرى أن الاستعمار الإنكليزي والأسباني والفرنسي قد افترى ((بنتيجة الدور الذي قام به في أرض الإسلام خلال أكثر من قرن، افتراء منهجياً لإساءة سمعة إسهام الحضارة العربية)) (١٨).

وفي إشارة واضحة إلى هنتنجتون وفساد مقولته حول صدام الحضارات، يقول د. عبد الرحيم الكريمي: ((فما يحلو للبعض تسميته صراعاً أو صداماً بين الحضارات، بين الغرب والإسلام، هو في حقيقته الأساسية صراع وصدام سياسي بين الاستعمار ومحاولة سيطرته على العالم وشعوبه المختلفة بما يعرف الآن بالعولمة من جانب والحركة الوطنية بكل مشاربها وأصولها وجذورها الفكرية أو العقائدية أو السياسية من جانب آخر)) (١٩).

بالتالي فإن ترسيمة صدام الحضارات كما يرى د. الجابري تسكت عن الحروب الدينية في أوربا وعن الحرب الإنكليزية الأمريكية وعن الصراع الإنكليزي الفرنسي من أجل طريق الهند ومن أجل المستعمرات عموماً كما تتجاهل الحرب الأهلية الأمريكية وغيرها(٢٠). كما يتجاهل: ((أن التاريخ العسكري في العالم الحديث... لم يكن تاريخ حروب داخل أوربا وحدها، بل كان أيضاً وبالدرجة الأولى تاريخ الحروب الاستعمارية التي انتصرت فيها أوربا ثم حروب التحرير التي انتصرت فيها شعوب المستعمرات... ، وإذا كان هناك صراع في المستقبل، وسيكون بالتأكيد، فسيكون استمراراً للصراع القديم)) (٢١).

إنها تعمية على كل ما أحدثه الغرب من شرور داخل منظومته كسلسلة الحروب الأهلية (داخل الحضارة الواحدة) في فرنسا بين سنتي ١٥٦٢ ـ ١٥٩٨ بين البروتستانت والكاثوليك وهي تضمر قتالاً من أجل السلطة بين العرش وبين الأشراف، وانتهت بإصدار مرسوم نانت ١٥٩٨ القاضي بحرية العبادة (٢٢). كما إنها تعمية على محاكم التفتيش سيئة الصيت مثلاً، والتي بدأت بتحريض من البابا ((أنوسنت الثالث)) /١٢٠٩ لاستئصال الهرطقة وقد كلف بذلك الرهبان الدومنيكان، وقد عملت عدة قرون وشملت فرنسا وأسبانيا وإيطاليا والبرتغال

ومستعمراتها، وتطورت إلى رقابة على الفكر، وقد جرت العادة أن يحرق الملحدون أو المذنبون من قبل المحاكم أحياء (٢٣). وهذا غيض من فيض.

الحقائق التاريخية تخالف نظرية هنتنجتون:

بدت أحداث أيلول ٢٠٠١/ وكأنها تجسيد لرؤية هنتنجتون ونبوءاته، ثم جاءت بعدها الحرب على العراق ٢٠٠٣/ داعمة لهذا التوجه، لكن حقائق التاريخ تخالف هذه الرؤية وتبين عدم تماسكها أمام الواقع.

ولو أن هنتنجتون ركز اهتمامه على استقراء المراحل التاريخية الماضية لوجد أن أبرز الصدامات هي تلك التي حصلت ناقضة رؤيته. مما يجعل أطروحته ((صدام الحضارات)) أطروحة للإنزواء الحضاري وليس لصدام الحضارات (٢٤).

أكرر مرة أخرى، إن العقائد سواء أكانت دينية أو سياسية إذا كانت بريئة من المصالح والمكاسب المباشرة، يصعب أن تصنع صدامات كبيرة، لكنني لا أبرئ العقائد تبرئة تامة، من أن يكون لها الدور الرديف أحياناً.

في العصور الحديثة كانت الحروب الكبرى، حروب مصالح لا حروب عقائد دينية أو غيرها، فالحرب بين أمريكا وبريطانيا لم تقم على الانتصار لمبادئ دينية، أو نتيجة التفارق الثقافي، بل كانت حرب تحرير، والحرب الأمريكية الداخلية بين الشمال والجنوب لم تكن حرب عقائد دينية وثقافات. كذلك الحروب الأوروبية العديدة، كحروب بريطانيا وفرنسا، وحروب الإمبراطورية النماسوية مع جيرانها، حتى حروب البروتستانت والكاثوليك لم تكن بريئة من المصالح الكامنة في الحفاظ على النفوذ، ولم تكن هذه الحروب صدام حضارات مختلفة، بل حروب طاحنة بين أبناء الحضارة الواحدة حسب تصنيف نظرية صدام الحضارات.

في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ كانت قوى مسيحية غربية (بروتستانتية وكاثوليكية) تواجه الغرب المسيحي البروتستانتي والكاثوليكي، وكانت تركيا الإسلامية في مواجهة المسلمين المنضمين للحلفاء بزعامة الشريف حسين، وكل يبحث عن مصالحه، وهذه المصالح هي التي كانت توجه الحرب بمقدار ما

كانت بعيدة عن العقائد التي جعلها هنتجتون ترسيمة صارمة، وهذا يبعدها عن صدام الحضارات ليدخلها في صدام المصالح.

في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ كانت ألمانيا المسيحية الغربية (البروتستانتية) وإيطاليا المسيحية الغربية (الكاثوليكية) في مواجهة الغرب المسيحي (كاثوليك وبروتستانت وأرثوذكس أيضاً). إذاً الحرب حقيقة هي حرب داخل الحضارة الواحدة كما تم توصيفها من قبل هنتجتون، فكيف يبرز دور العقائد في مثل هذه الحروب؟!

بالتأكيد لن يكون المستقبل نشاذاً، فالصراعات فيه ستبنى على المصالح التي أثارت هذه الحروب المدمرة لا على العقائد.

حروب التحرير التي خاضتها الشعوب المستعمرة ضد مستعمريها، لم تخضها على أساس الاختلاف العقدي حتى لو كان حاضراً. أو تم استنفاره للإفادة منه، كما في حرب تحرير الجزائر، لقد تمت الحروب على أساس النزوع التحرري لشعب خضع لظلم واستغلال قوى النهب الاستعمارية. وكذلك الحروب التحررية الأخرى كالحرب الفيتنامية الأمريكية أو الحروب في أفريقيا أو أمريكا اللاتينية أو في الوطن العربي.

الصين والفيتنام تنتميان إلى حضارة واحدة هي الحضارة الكونفوشية التي يضعها هنتجتون مع الإسلام كحضارتين مناوئتين للغرب وتستهدفانه بسبب الخلاف الحضاري، هاتان الدولتان جرت بينهما حرب طاحنة في ثمانينات القرن العشرين. فهل نقول إنها حرب حضارية تستهدي بالعقائد الدينية؟ أم أن رائحة المصالح تفوح منها؟!

المصالح والتفاهم عليها ومعرفة كل طرف لحدوده هي التي حافظت على الحرب باردة ولم تدفعها إلى السخونة بين الاتحاد السوفييتي والغرب بزعامة أمريكا، بعد الحرب العالمية الثانية، ربما للخشية من خراب الحياة البشرية جميعها، أو لاعتبارات أخرى.

الحضارة الأمريكية اللاتينية لم تكن في حالة عداء مع الحضارة الغربية كما يرى هنتنجتون (٢٥). لكن هذا لم يمنع أن تقوم الحرب بين بريطانيا والأرجنتين على جزر الفوكلاند /١٩٨٢ عندما تهددت المصالح.

هنتنجتون نفسه يشير إلى دور المصالح (الثروة) في إحداث الحروب والمواجهات، متناقضاً مع أطروحته الخلافية، يقول: ((قد تؤدي الفروق في الثروة إلى صراعات بين المجتمعات ولكن الدلائل تشير إلى أن ذلك يحدث أساساً عندما تحاول المجتمعات الغنية والأقوى غزو أو احتلال المجمعات الفقيرة أو الأكثر تقليدية. لقد فعل الغرب ذلك على مدى أربعة قرون)) (٢٦).

وهذه شهادة تردف شهادة غارودي السابقة حول الغرب ومصالحه التي تحدث الصدامات.

لقد وجد هنتنجتون أخيراً سبباً للحروب حقيقياً، فلماذا يلصقها بالعقائد؟ ثم ليبحث عن أسباب أخرى سيجدها في الأطماع الإمبريالية، والتنافس على استغلال خيرات الشعوب من قبل القوى الكبرى، كما حدث في الحربين العالميتين.

المصالح تشوه الحقائق:

قلنا إن الحروب والصدامات الكبرى لكي تشن تحتاج إلى غطاء قيمي، بالتالي يصعب أن نجد حرباً أعلنت الأهداف الحقيقية لها من قبل من يشنها، لقد برزت قوى النهب الاستعماري على أنها قوى لإعمار البلدان التي هاجمتها كما هو واضح في المصطلح. بالتالي إن الحديث عمن تتوجه القوى الإمبريالية لضربه، يتخذ منحى قيمياً فتبدو هذه القوى مدافعة وحامية لما هو إنساني وأخلاقي، من هنا تتم (أبلسة) من يتم استهدافه كما يقول د. فيصل دراج الذي ينقل المصطلح عن نعوم تشومسكي وهو يندد بعدوانية السياسية الأمريكية بـ ((أبلسة النظم السياسية))(٢٧).

والأبلسة تشويه السمعة والصورة للمقصود أمام العالم بإلصاق التهم الإبليسية له، وإظهاره رديفاً للشيطان، ومثال العراق مؤخراً دليل واضح. وحديث الرئيس الأمريكي عن محور الشر في العالم يسير في هذا الاتجاه.

إن الدعاية تقوم بدور فاعل في إقناع الناس بأن التوجه لضرب جهة معينة هو أمر مشروع، دينياً وسياسياً وإنسانياً. ((لهذا لم يكن مستغرباً إيمان عامة الإنكليز بأن لكثير من هنود أمريكا آظلافاً وأشكالاً شيطانية. وهي أشكال تعثر عليها في كتابات معظم أنبياء الاستعمار الأوائل الذين اختلط عليهم شكل الكنعاني التاريخي الملعون بشكل الوحش الهندي المنحط)) (٢٨). إلى هذا الحد وصلت الوقاحة والتزوير لتبرير قتل هنود أمريكا من قبل العنصرية الإنكلوساكسونية، علماً أن العرق الانكلوساكسوني كذبة لا يعترف بها علم الأعراق. من أسسوا لها يشيرون إلى خليط مهيمن لجماعات بشرية تسكن الجزيرة البريطانية من الجرمان والسلت والفايكنغز(٢٩). وهم أقوام جمعت بينهم المصالح.

إن إصرار هنتنجتون على أن الصراع بين الحضارة الغربية وكل من الحضارتين الإسلامية والكونفوشية بقوله: ((من المرجح أن تكون علاقات الغرب بالإسلام والصين متوترة على نحو ثابت وعدائية جداً في معظم الأحوال)) (٣٠). هو نتاج الاستنتاجات التي تشير إليها إرهاصات التقدم في كل من الحضارة الصينية والإسلامية (في بعض الدول الإسلامية)، هذه الإرهاصات تشير إلى مصالح متناقضة ومتنافرة، وهو ما نؤكد على أنه أس الصدام والصراع أكثر من الثقافة والاختلاف الحضاري.

إن طموح الصين أو بعض الجهات الإسلامية أن يكون لهما وزنهما العالمي وأن تكونا قادرتين على منافسة الدول الإمبريالية الكبرى تجعل فتح النار عليهما مبكراً أمراً يدخل في منطق الصدام، ولتبرير أية أعمال تقوم بها الإمبريالية لعرقلة نمو تقدم هذه القوى المناهضة، وهذا ما لا نجده في الموقف من الحضارة الإفريقية أو الأمريكية اللاتينية، يقول منظر صدام الحضارات ((علاقات الغرب مع أمريكا اللاتينية وأفريقيا، وهما حضارتان أضعف ومعتمدتان إلى حد ما على الغرب، سوف تتضمن مستويات أقل من الصراع)) (٣١).

إن مبرر عدم الصراع بين هاتين الحضارتين وبين الغرب، هو إنما يكمن في ضعفهما أو اعتمادهما على الغرب كما يشير النص، وفي كلا الحالتين لا تشكلان خطراً على الغرب ومصالحه. أليس الدرس واضحاً؟ من يريد تجنب أذى

الغرب و الصدام معه فعليه أن يكون من الضعف والتبعية بحيث لا يستشعر الغرب أي خطر منه على مصالحه لا الآن ولا غداً. أما إذا كانت المنافسة محتملة والخطر مرتقباً، فالأولى تحطيم هذا الخصم الموعود قبل أن يصلب عوده، ويصبح تحطيمه مكلفاً أكثر أو متعذراً.

لقد كانت مصالح أمريكا هي التي أوجدت حركة الطالبان ومنظمة القاعدة على هذا المستوى من القوة، وقد أمدت الطالبان بالقوة إلى أن : ((استولى هؤلاء (الطالبان)، على الجزء الأعظم من البلد (أفغانستان)، من ١٩٩٤ ـ ١٩٩٦، بمباركة من واشنطن، التي كانت تحركها اعتبارات سياسية ونفطية، قبل أن يتبين أن الطالبان لا يمكن ضبطهم)) (٣٢). لكن أمريكا لم تلبث أن أبلست الطالبان وألصقت بهم أبشع التهم التي كانت قد ساعدتهم على تنميتها وتوظيفها في عملية انقلابية عندما وجدت أن مصالحها تقتضي حضور جيوشها إلى أفغانستان لاعتبارات متعددة مصلحية في أساسها، لا يصح أن ينوب فيها أحد عن الأمريكيين.

القوة التدميرية للمصالح:

تنطوي المصالح على قوة تدميرية كبيرة، إذ عليها أن تزيل أية عراقيل تعترضها لضمان استمراريتها وفعاليتها. وواضح أن العنف لا يولد إلا العنف، إذ ((في عالم حيث تتعمق التفاوتات بلا رحمة، سواء في الوقائع الاجتماعية أو بين الأمم، وحيث شريعة الغاب وحق الأقوى يسودان بشكل مطلق، تولد همجية البعض همجية البعض الآخر حتماً، ويخلص ((التهديد بالرعب)) إلى النزول بثقله على الجميع، في تنوع أشكاله)) (٣٣).

بالتالي إن من شأن وضع الاعتبارات المصلحية فوق كل الاعتبارات الأخرى، فتضرب بمصالح الآخرين عرض الحائط ولا تولي أي اهتمام للقيم، في واقع التمركز الضيق على الذات، أن يؤدي إلى تعميق الكراهية بين القوي والضعيف بل بين القوي والأقوى، مما يبقي الأجواء قادرة على إنتاج عنف مضاعف. ينقل جلبير الأشقر عن بعض الصحف الغربية الحديث عن كره أمريكا الذي لم يعد حكراً

على اليسار الممثل ببعض الصحف، فالوسط واليمين الأوربيين معاديان هما أيضاً لأمريكا، بل إن فيهما الأكثر عداء لها، حتى في الإدارة البريطانية بشهادة صحف شهيرة فيها كالدايلي تلغراف والتايمز(٣٤). وقد رأينا مثل ذلك في إحصائية بفرنسا.

لقد كان هدم الحضارات السابقة من قبل الحضارات الناهضة والغازية الصادمة، سنة من سنن الصراع، كي لا تعود لتشكل خطراً على مصالحها، بل كي تدفعها إلى عالم النسيان والإهمال، وتبعد المقارنة، فالناس لا يقارنون إلا ما هو سيء بما هو جيد، وقد لا يكون هذا في مصلحة القادم الجديد.

يقول غارودي: ((وإن أول انفصام كبير قد حدث بعد إبادة هنود آمريكا. وقد شرع غزاة كبار طغاة بهدم حضارات عظيمة عريقة وذبح الشعوب كما فعل (هرمان كورتز) بـ (الآزتك) في المكسيك، و(بدرو دي آزفيدو) بالـ (مايا)، و(بيزار) في (الآند). وعندما تشتت شمل الهنود بنتيجة الأمراض الأوروبية التي لم تكن معروفة في الأمريكيتين مثل الجدري أو الزهري)) (٣٥).

ويبدو أن سلوك الغزاة واحد في كل العصور، فقد دمر المغول بغداد عندما دخلوها غازين عام ٦٥٦ هـ وكذلك فعل الأمريكان عام ٢٠٠٣ م، حيث انصب التدمير والحرق والسلب والنهب على الكنوز الأثرية التراثية التي تحفظ ذاكرة الأمة وهويتها الحضارية، برعاية تامة من الجيش الأمريكي الغازي وعن سابق تخطيط وإعداد. والسؤال إذا كان هدف الأمريكان السيطرة على ثروات العراق ووضع المنطقة تحت اليد الأمريكية، فأي ثأر لهم مع كل ما يحيل إلى القيم الحضارية الرفيعة؟!

لا ينصب التدمير على القيم الحضارية التراثية والثقافية فقط، بل قد يصل إلى تدمير مصدر قوت الشعوب لتركيعها، فلم تتردد إنكلترا في تدمير الصناعة اليدوية في الهند واقتصاد الغذاء كله، في سبيل أن تختص الهند بزراعة القطن لزوم صناعة مانشستر(٣٦). كما يقدم غارودي شهادات ناطقة وواضحة وأخباراً عن النهب والقتل والتدمير الذي أحدثه الفرنسيون في الجزائر(٣٧).

أعود للتذكير بمقال محمد حسنين هيكل الذي يشير فيه إلى أن أمريكا كانت وريثة ثماني امبراطوريات عملت على تحطيم آخرها كالانكليزية والفرنسية

واليابانية والألمانية خلال الحرب العالمية الثانية، ثم تفرغت لتحطيم الامبراطوية السوفييتية أو ساهمت في ذلك بدم بارد خلال ما سمي بالحرب الباردة(٣٨).

واضح تماماً أن الكثير من الحضارات الناهضة لم تبن نهضتها على ما أضافته من قيم حضارية، تدفع البشرية نحو الترقي، فقد جاءت هذه في مرحلة تالية. إن النهوض يقوم على قوة البطش والتدمير كما يخبرنا التاريخ، بعد ذلك نصل إلى الإسهامات العلمية والاجتماعية والفكرية، التي تحاول قوة البطش أن تبقى ملازمة لها.

لكن قوة البطش والتدمير لم تبلغ يوماً مثل هذا المستوى الذي بلغته على يد الحضارة الأمريكية، والتي لم يتردد مسؤولوها في استخدام هذه القوة، خاصة عندما تم ضرب اليابان بالقنابل الذرية وانتهاء بضرب العراق، حيث يقال إن اليابان قد وافقت على إنهاء الحرب وأشعرت الحلفاء بذلك قبل ضربها بالقنابل النووية لكن أمريكا أصرت على استخدام الذرة لتشير للعالم إلى المصير الذي سيلقاه من يقف في وجه جبروتها القادم والصاعد. والذي أكدته حروبها هو الإقدام على استخدام مالا يكاد العقل يستوعبه من الأساليب الجهنمية التي ابتكرها وحشدها عقل حضاري أرعن، حظه من الإنسانية التي يدعي الدفاع عنها قليل. فـ (((الغرب) وحده، وهو شبه جزيرة من آسية ملقاة خلف (الأورال) وعلى شواطئ المتوسط، يبدو بمذهبه الثنائي وبفرديته وبمذهبه العقلي الوحيد البعد استثناء بائساً في الملحمة الإنسانية التي بدأت قبل ثلاثة ملايين سنة في أفريقية والتي تستمر خلال ستين قرناً في جميع القارات حتى عصر النهضة الغربية، بامتلاك أسلحة أكثر تدميراً جداً من الأسلحة السابقة، وقد استعبد (الغرب) العالم وسيطر عليه بخنق الثقافات الأخرى)) (٣٩).

لكن الأفعال القذرة التي تقوم بها جهات ما، تدفع جهات أخرى في مواجهتها للجوء إلى ما يجانس هذه الأفعال ويتفوق عليها، فـ ((بدل أن تكون المواجهة الحالية((صداماً بين الحضارات))، هي إذاً، بحق، صدام بين تلك الهمجيات التي تفرزها الحضارات، بمقادير متغيرة، خلال السيرورة التاريخية والديالكتيكية للحضارة، مثل براز يزداد حجمه بقدر ما تكون المجتمعات شرهة، ويهدد اليوم، مرة أخرى، بإغراق مكتسبات الحضارة الأساسية في همجية معممة)) (٤٠).

الملفت في الكلام السابق أن صاحبه يعفي الحضارات وشعوبها من مسؤولية ما يقوم به الهمجيون فيها، ولا شك أننا في عصر الديمقراطيات والتغني بها لا يصح أن نغفل ذلك فنبرز القوى الشعبية لا حول لها ولا طول، وهذه ليست سمة الديمقراطية، هذا في جانب القوى الإمبريالية الصادمة، أما في ردود الأفعال ومحاولات الثأر من قبل قوى أخرى توصف بالإرهابية من قبل هؤلاء، فأمر يحتاج إلى وقفة وتحليل، لأن الإنسان لا يكون إرهابياً أو همجياً بالمجان أو من غير سبب، فالبحث في الأسباب، لا يعني اتهام الثقافة مع عدم إغفال دورها، بل يجب اتهام ظروف القهر والحرمان والدكتاتورية وغير ذلك.

إن تفسير العنف الناتج عن المسلمين مثلاً في غير مكان من العالم بتفسيرات مثل العامل الديمغرافي (التزايد الكبير للسكان ووجود أعداد كبيرة من الشباب العاطلين عن العمل) أو بعدم وجود دولة مركز في الحضارة الإسلامية يلتف حولها المسلمون وتقود نضالهم للدفاع عن الإسلام، أو أن العنف حالة تاريخية إسلامية تغذيه النصوص الدينية، أو الدفاع عن الهوية أو الاحتكاك بشعوب أخرى(٤١). مع ما في بعض هذه التفسيرات من صوابية وأهمية بعضها الآخر، لا يقدم التعليل الكافي لما ينخرط فيه (بعض) المسلمين من (عنف مضاد)، إنه رد على عنف يتخذ أشكالاً متعددة وتقع كثير من دول العالم العربي والإسلامي ضحيته، وهذا ما يحاول الغرب إغفاله، وقد قامت كل الحضارات بمواجهة صادميها عنفياً عندما وجدت في ذلك مصالحها واستخدمت كل أشكال العنف وأساليبه من أمريكا اللاتينية إلى فيتنام إلى مقاومة النازية في أوربا وصولاً إلى جنوب أفريقيا ومقاومة الفصل العنصري.

ثم إن إحساس الناس المباشر بتضرر مصالحهم وتهديد معاشهم كافٍ لأن يستنفروا، فتحضر الثقافة والهوية وغيرها من خطوط الدفاع. إن مشهدية المسلمين تشير إلى الحرمان والتهميش والغزو والاستغلال ورعاية الدكتاتوريات المتأبدة خلافاً لما يشاع، كل هذا يبرز الأسباب الحقيقية في التوجه إلى العنف. ولو لم يكن لدى العرب والمسلمين من الأسباب التي تولد العنف سوى القضية الفلسطينية لكانت كافية بكل تشعباتها ومفاعليهالمواجهة العنف الممارس عليهم بما نراه ونسمعه بل بما هو أشد وأنكى.

والمواطن العربي والمسلم غير قادر على أن يقتنع أن أرضه مليئة بالخيرات التي تعيش عليها شعوب العالم، وهو في الوقت ذاته مليء بالفقر والبؤس والحرمان والجوع، مليء بالقيم والمبادئ ومليء أيضاً بالقهر والدكتاتوريات، مليء بالأمجاد الراسخة ومليء بالهزائم والذل، إنها مفارقات تعمل على إيجاد واقع كاريكاتوري.

بين العولمة وصدام الحضارات:

كثرت المقولات والتوجهات والخطط الغربية وانتشرت كثيراً في العقدين الأخيرين، فمن التبشير بنظام عالمي جديد إلى عالم معولم تزول فيه الحدود من طريق الناس وحراكهم، إلى مقولة نهاية التاريخ وصولاً إلى صدام الحضارات، وإذا كانت هذه المقولات جميعاً نتاج الفرع الأمريكي للحضارة الغربية، فإنها لا تدل على الركون إلى أسلوب تتعامل به هذه القوة مع العالم يكون ناجعاً يجعل جبروتها أكثر ديمومة أو أنها تهتم بتعدد الخيارات في السلب والنهب والسيطرة، مما يعطي تعدد الخيارات النظرية والمشاريع المطروحة للتطبيق.

إن التدقيق يكشف عن بعض التناقضات (كلياً أو جزئياً) بين هذه المقولات أو المشاريع على المستوى الفكري، فكيف نبشر بأن نهاية التاريخ أو نهاية مطاف البشرية ونهاية أحلامها تتحقق بامتداد الديمقراطية الليبرالية كآخر ملاذ للحالمين بالخلاص - كما يبشرفوكوياما - ليأتي مبشر غيره ويشير إلى تأبيد الصدام بين الحضارات؟ كيف تتقل الديمقراطية الغربية عبر البلدان وحدودها محروسة بشراسة بثقافات تمنع التأثروتحاربه وهي فاعلة في ذلك. بفعل التزمت الحضاري والتحجر الفكري كما يريد هنتنجتون أن يقول؟ هكذا يبدو أن مقولة صدام الحضارات التي تستهدي بالعنف تنسف مقولة نهاية التاريخ التي هي مقولة تبشر بالديمقراطية - أي اللاعنف تعم العالم.

المبدأ ذاته نطبقه على مقولتي العولمة وصدام الحضارات، إذ كيف نحلم ونعمل على إيجاد عالم تزال فيه الحدود وتلغى الحواجز من وجه الحراك البشري كما استطاعت الأقمار الصناعية أن تلغي الحواجز من طريق الاتصالات والبث التلفزيوني، ثم نبشر بعالم تتعالى فيه أسوار الثقافات و الحضارات لتصبح موانع،

للفكر وللحرية وللناس والقيم، من أن تشترك في صنع العالم. بل إن من شأن ذلك صناعة عالم لا يمنع فقط، بل يدمر بصداماته كل إمكانية للتلاقي وإلغاء الحدود؟

الحديث عن العولمة يملأ الأفق، والاتجاه نحوها يدفع القوى لإقناع البشرية بجدواها وبالفوائد الجمة التي تؤمنها إزالة الحدود والقيود عن حركة السلع والأموال والناس. من أجل هذا توجد المنظمات، كمنظمة التجارة الدولية، وتوضع القوانين والشرائع وتعقد المؤتمرات لنظام استئثاري يفضل البعض تسميته (أمركة العالم).

نظام العولمة هذا يثير الخوف من تحطيم العالم بأساليب أخرى إلى جانب السلاح فـ ((هناك مخاوف من أن تدمر التكنولوجيا العصرية المدنية الإنسانية وتنزع المواطن من إنسانيته وتحوله إلى مواطن معلومات وانترنت، وبالتالي قد تؤدي إلى فقدان القيمة العملية للتجمعات البشرية... ما هو أخطر ... فقد استبدل الإنسان بالكومبيوتر في كثير من النشاطات، الأمر.... الذي أنتج الكثير من الفقراء والقلة من الأغنياء)) (٤٢).

هذا النظام - نظام العولمة - ينمو ويتطور في أجواء الطمأنينة والهدوء والسلام لا في أجواء الحروب والنزاعات و الصراعات الدولية، من هنا يحصل التناقض بين العولمة وصدام الحضارات الذي يحتاج إلى إدارة الحروب وقيادة الجيوش لا إلى إدارة الاقتصاد العالمي وسياحة الناس.

كل ذلك - بتناقضاته - صناعة أمريكية مشفوعة بشعارات طنانة، كالقضاء على الإرهاب، ومنع انتشار أسلحة التدمير الشامل، والدفاع عن حقوق الإنسان، وإشاعة الديمقراطية، إذا وجد من يصدق!!

الناس يرون أنها لن تثمر إلا المزيد من النزاعات، فالاخضاع الإجباري للشعوب في سبيل اصطفافات معينة، ثبت أنه لا يحل المشاكل، بل يطمرها ألغاماً تعود للإنفجار في المستقبل.

بالتالي فـ ((إن ما يقسم العالم هذه الأيام هي تلك السيرورات التي افترض بها أن توحده. فقوى العولمة، على سبيل المثال، قانعة تماماً برؤية كتل القوة التي يحتمل

أن تهددها وهي تتمزق إلى عدد من الأمم الأصغر، والأضعف، كما يكون لها يد في التمزق في بعض الأحيان)) (٤٣).

الحرب على العراق تنسف الترسيمة:

في الوقت الذي يرى كثيرون أن الحرب على العراق في أوائل القرن الواحد والعشرين هي إحدى تمظهرات ترسيمة هنتنجتون في صدام الحضارات، وترجمة عملية لها، فإن هناك من يقرأ الحدث على أنه تعزيز لرأي القائلين بأنها صدام المصالح وتبتعد عن منطق صدام الحضارات، كما أن احتكار أمريكا لإدارة الحرب وتبريرها ومحاولة احتكارها للأرباح المترتبة على إعادة إعمار العراق وإغلاق العراق على جيرانه وإبعادهم عنه وغير ذلك من الإجراءات، يقع نقضاً للعولمة وتوجهاتها. وللتدليل على ابتعاد الحرب عن ترسيمة صدام الحضارات، نشير إلى الدلالات التالية:

١ - صحيح أن القوى المساهمة بضرب العراق هي تحالف ينتمي إلى الحضارة الغربية (كاثوليك + بروتستانت)، وهذا يشكل صداماً مع الحضارة الإسلامية المستهدفة، لكن الملاحظ أن أول وأقوى من وقف ضدها، هم ينتمون إلى الحضارة الغربية ذاتها أي فرنسا وألمانيا (كاثوليك وبروتستانت) إضافة إلى روسيا الأرثوذكسية، وهم أصحاب الإسهام الأكبر في إظهار لا شرعية هذه الحرب، وإنها غزو لا أخلاقي ولا قانوني ولا إنساني، وعملوا على كبحها، مع الملاحظة أننا كما هو متبع في هذا الكتاب منذ البداية نستخدم مصطلحات هنتنجتون وتقسيماته الحضارية.

٢ - مع أن الهجوم يقع على جهة مسلمة (تنتمي إلى الحضارة الإسلامية) فإن هناك جهات تنتمي إلى ذات الحضارة (الإسلامية) وتقوم بدور مناهض لمصلحة المسلمين (تقديم تسهيلات لجيوش الغزو، مشاركات لوجستيه، تمويل، قواعد..... إلخ) في الهجوم على العراق، ضداً على إرادة الشعوب الإسلامية والشعور الإسلامي والعالمي المحب للسلام، والمصطف في مواجهة الحرب.

٣ - الدلالة الأهم أن كل جهة من الجهات المعينة تعسكر في معسكر مصالحها. فالولايات المتحدة ومن معها، يريدون السيطرة على نفط العالم بأي ثمن، وذلك للتحكم باتجاهات النمو العالمي وحاجته الماسة إلى الطاقة، وقدرة أمريكا على ضبط إيقاع التوازنات الدولية ومنع الخروج على سيطرتها وزعامتها، أو تحدي القطب الواحد عملاً بالتوصيات الاستراتيجية التي تقول إن على أمريكا إذا أرادت الاحتفاظ بهيبتها ومكانتها أن تمنع أية قوة عالمية من الوصول إلى مستوى منافستها أو تحدي قوتها، وربما كانت السيطرة على منابع الطاقة والتحكم بها بإعطائها لمن تشاء ومنعها عمن تشاء، هو هدف أمريكا الأول، فيكون مفتاح التطور لأية جهة ناهضة في العالم في يدها، وقد كان هذا واضحاً في كل شوارع العالم المحتجة على الحرب من خلال الشعارات المرفوعة مثل (لا دم مقابل النفط)، لكن ما العمل؟ فلو كانت أمريكا تعلم أن النفط يكمن تحت كنيسة المهد ما ترددت في هدمها في سبيل الحصول عليه، ضاربة بالمقدسات وبالانتماء الحضاري عرض الحائط(٤٤). أما الأوروبيون (ألمانيا وفرنسا وروسيا) الذين عارضوا الحرب ووقفوا ضد شرعنتها دولياً، فقد كانوا يرون في خلفية المشهد ويستشعرون الخطر على مصالحهم، وتناقضها مع مصالح الولايات المتحدة التي تجيش الجيوش في سبيلها، لذلك مانعوا، وهذا دليل على أن الصدام ليس صدام حضارات بل صدام المصالح. في الوقت ذاته فإن الجهات التي وافقت على الحرب من المسلمين أو التي سكتت عليها (وهي جهات رسمية غالباً) ضداً مع الشعوب في المنطقة والعالم، وكانت تسعى لتحقيق مصالح الحكام الآنية، وهذا يفسر الانخراط في تقديم التسهيلات للحرب وهي ذات طابع مصالحي يؤيد ما نرمي إليه، أو للحصول على بعض المكاسب المادية.

٤ - هذه الحرب أطاحت بمفهوم العولمة والتوجه نحو تحقيق الحدود المفتوحة، لأنه يتنافى مع السيطرة على الطاقة الذي تسعى أمريكا إليه، مع أنها راعية العولمة وكأنها تقول، إن على العالم أن يستثني أمريكا وأفعالها ومصالحها وناسها وإرادتها من أية قيود أو ضوابط، سواء كانت تخدم العولمة أو العدالة الدولية أو غير ذلك، فليس هناك تجارة حرة أوتفكير حر طالما أن القطارة الأمريكية هي التي تقطر النفط لمصانع وآليات ومدافئ العالم، وهذا يؤيده أيضاً اصطناع فكرة

الحرب على الإرهاب ووضع اليد على نفط بحر قزوين والتحكم بإنتاجه وخطوط مروره وتوزيعه من خلال اقتراب قواتها المسلحة منه. وإلى ذلك أشار المثقف والمفكر غسان سلامة وزير الثقافة اللبناني عندما أشار إلى أن أمريكا لم تعد تريد العولمة وهي تسعى إلى تدميرها لأنها تفقدها السيطرة والتحكم، لذلك تعمل على صناعة عالمها الذي لا يشاركها فيه أحد(٤٥).

٥ - إن الولايات المتحدة التي تتسيد بما وصلت إليه من تطور رفيع المستوى، الحضارة الغربية، هي الآن في مأزق، هذا المأزق هو مأزق المكانة والمستوى، فقد وضعتها الظروف بعد سقوط الاتحاد السوفييتي في موقف التفرد القطبي عالمياً، ومعلوم أنه لكي يكون هذا التفرد حضارياً، يجب أن يتم من خلال أدوات ومفردات الحضارة، ومفردات الحضارة لكي تنمو وتتطور تحتاج إلى التحدي والمنافسة، وهو ما تواجهه الحضارات في فترات نهوضها وشبابها لا في فترات شيخوختها حيث يكون عليها المحافظة على الوجود أو على النسق. والولايات المتحدة تجاوزت مرحلة شبابها وافتقدت المنافسة لزعامتها، فهي الآن تتربع على القمة، ولا يلي القمة إلا السفح وهي تخشى الانحدار وتناضل من أجل ألا تنحدر، وكتاب هنتنجتون ينضح بمثل هذا الشعور، كما أن انفرادها في الزعامة أعطى قوتها دفعة جديدة من الغطرسة أضافتها إلى ما كان لديها، فأظهرت يد البطش والصدام وأخفت يد الرحمة والسلام والحوار، إرهاباً للعالم وتنبيهاً إلى من يمكن أن يتجرأ على الزعامة، وهذه من علامات الشيخوخة والضعف الحضاري، فمن كان عليه أن يعطي وليس لديه ما يعطيه سيحاول البطش ليسكت الطلبات. إذن الأزمة هي أزمة زعامة الحضارة الغربية التي تدل المؤشرات على عدم وجود أو على تناقض المؤهلات لها. فقيادة الحضارة يفترض أن تختلف عن قيادة الهمجية.

إن هذا الرأي مدعوم بقوة من منظر صدام الحضارات، يقول هنتنجتون بعد تحليله لكل عناصر القوة والسيطرة: ((عصر السيادة الغربية سينتهي، وفي نفس الوقت فإن اضمحلال الغرب وصعود مراكز قوى أخرى سينمي عمليات التأصيل الكونية والعودة إلى المحلية وصحوة الثقافات غير الغربية)) (٤٦).

إن حمى الخوف من اقتراب النهاية، تدعو إلى تجديد البطش بالآخرين، لكن المستغرب هذا التفكير العنصري الذي يوحي بأن غياب الغرب يعني غياب الضوابط، وكأن الحضارات غير الغربية مليئة بالهمجية، والغرب هو الذي يجعل العالم أكثر إنسانية، والحقيقة تقول عكس ذلك، لماذا هذا الخوف على العالم من أن لا يعرف كيف يتدبر أمره لأنه قاصر وعاجز وسيعود إلى الأصولية؟ أليست هذه النظرة نرجسية وعنصرية؟ لقد أثبتت حضارات العالم أنها أكثر رحمة وإنسانية، وثقافاته تربي إنسانه على القيم الرفيعة، عكس الغرب الذي صنع جداراً بينه وبين العالم، غارودي يقول إنه حاز درجة التخرج في الفلسفة دون أن يعرف كلمة واحدة عن فلسفة الهند والصين والإسلام(٤٧).

لا يستطيع عاقل ألا يقر بعظمة الحضارة الغربية، لكن أمثال هؤلاء المفكرين العنصريين يضعونها موضع المقت ويبقون الحقد عليها وعلى أفعالها حاضراً دوماً.

هوامش الفصل الرابع

١ - تيري ايجلتون ، فكرة الثقافة، ترجمة ثائر ديب، دار حوار للنشر والتوزيع- اللاذقية، بدون تاريخ النشر أو رقم الطبعة، ص٢٨.

٢ - أنطوني جيدنز، بعيداً عن اليسار واليمين، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة رقم /٢٨٦/ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، أكتوبر /٢٠٠٢ ص٢١

٣ - المرجع السابق ص٣٠.

٤ - د.محمد الجبر، الخطاب الثقافي المعاصر وصدام الحضارات، مجلة المعرفة السورية، السنة /٤١/ العدد /٤٧٣/ شباط /٢٠٠٣/ ص١٢٦.

٥ - د. محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١ /١٩٩٧/ ص١٢٨

٦ - خليل عبد الكريم، شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، سينا للنشر + الانتشار العربي، ط٢ /١٩٩٨/

٧ - د. محمد عابد الجابري، المرجع السابق ص١٢٩

٨ - راجح الخوري، صحيفة النهار، الأحد ٢٠٠٢/١٢/٨

٩ - مارغريت فرنهايم، الإيمان والعقل والجنوسة، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، مجلة الثقافة العالمية، عدد /١١٦/ يناير- فبراير /٢٠٠٣، حاشية ص١٨٨

١٠ - صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، مرجع سابق ص١١٥

١١ - د.عبد الرحيم الكريمي، صراع أم حوار بين الحضارات.. أم صراع ضد هيمنة النظام العالمي الجديد، النهج /٣٣/ سنة /١٩/ شتاء /٢٠٠٣/ ص١٣٩.

١٢ - المرجع السابق ص١٤٠

١٣ - راجح الخوري، المرجع السابق

١٤ - روبرت فيسك، صحيفة الأندبندنت اللندنية، ١٥نيسان/٢٠٠٣

١٥ - روجه غارودي، حوار الحضارات، ترجمة: د.عادل العوا، مع دراسة للأديب التونسي الكبير محمد مزالي، منشورات عويدات، بيروت ـ باريس /١٩٧٨/ ط١ ص٤٥

١٦ - المرجع السابق ص٤٥

١٧ - المرجع السابق ص٢٨٩

١٨ - المرجع السابق ص٩٦

١٩ - عبد الرحيم الكريمي، المرجع السابق ص١١٤

٢٠ - د. محمد عابد الجابري، المرجع السابق ص٩٦.

٢١ - المرجع السابق ص٩٧

٢٢ - د.عادل العوا، المرجع السابق ، ص٤٠

٢٣ - المرجع السابق،ص٤٥ ـ ٤٦

٢٤ - إدريس هاني، المرجع السابق ص١١٣

٢٥ - صامويل هنتنجتون، المرجع السابق ص٢٩٥

٢٦ - صامويل هنتنجتون، المرجع السابق ص٢٩٥

٢٧ - د.فيصل دراج، الخيال المهاجر و(أبلسة) المثقف العربي، مجلة النهج /٢٣/ صيف /٢٠٠٣/

٢٨ - منير العكش، مرجع سابق

٢٩ - المرجع السابق ص٨٠

٣٠ - صدام الحضارات، مرجع سابق ص٢٩٥

٣١ - المرجع السابق ص٢٩٥

٣٢ - جلبير الأشقر، صدام الهمجيات، مرجع سابق ص٣٩

٣٣ - المرجع السابق ص١٠

٣٤ -المرجع السابق ص١٣ ـ ١٤

٣٥ - روجه غارودي، مرجع سابق ص٥١

٣٦ -المرجع السابق ص٦٦

٣٧ - المرجع السابق ص٦٩

٣٨ - محمد حسنين هيكل، الإمبراطورية على الطريقة الأمريكية، مرجع سابق.

٣٩ - روجه غارودي، المرجع السابق ص٩٣

٤٠ - جلبير الأشقر، المرجع السابق ص٩٣

٤١ - صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، مرجع سابق ص٤٢٠ فما بعد

٤٢ - د.نجاح كاظم، العرب وعصر العولمة - المعلومات: البعد الخامس، المركز الثقافي العربي، ط١ /٢٠٠٢ ص١٧

٤٣ - تيري إيجلتون، المرجع السابق ص١٥٢

٤٤ - سمير اسحق، جريدة النور /٩٥/ ٢ نيسان/٢٠٠٣/

٤٥ - د. غسان سلامة، حوار على شاشة تلفزيون المستقبل ٢٠٠٣/٢/٢٧

٤٦ - صدام الحضارات، مرجع سابق ص١٥٠

٤٧ - روجه غارودي المرجع السابق، ص١٨٦



القسم الثاني

في حقل الحوار

الفصل الأول:

الحضارات تتأسس على الحوار.

الفصل الثاني:

في السياسة والاقتصاد.

الفصل الثالث:

في الحياة الاجتماعية.

الفصل الرابع:

في الحقل الثقافي.

الحضارات تتأسس على الحوار

أشرنا سابقاً إلى أن أساس قيام الحضارات يعتمد على الحوار بشكل كبير. وإن مصطلح ((حضارة)) يقطع مع معاني كثيرة ليقترب من معاني أخرى، فالتحضر يعني أن يقطع الإنسان شوطاً في طريق الترقي وتحقيق معاني إنسانية لم يكن يعرفها. إن فيه إضافة كسبية آتية من تحسن ظروف معاشه وتطورها. كما أن الحضارة تقطع مع البدائية، ففي البدائية اقتراب من مرحلة الحيوانية (الطبيعية)، هذا يعني انقطاع عن بعض قيم وشرائع الغاب، ويعني سيادة العقل بشكل أوسع.

ما كان عنفاً انتمى إلى البدائية وسيادة مبادئها الغابية، وما كان حواراً انتمى إلى العقلانية التي تميز الإنسان.

هكذا نجد أن أحد أسس التحضر إعمال العقل وحواره مع محيطه الطبيعي في تحسين ظروف استغلاله، والبشري في تحسين أسس التلاقي بوضع قواعد السلام للجماعة والحفاظ على ذلك، والإفادة من تراكم الخبرات واختزانها في الذاكرة الجمعية، والإفادة مما تم اكتسابه من خبرات كمنطلق إلى خبرات أخرى.

سمة الحضارة تحسين وتطوير المكتسب لا العودة إلى ممارسته كما وجد، فذلك فعل الغريزة الحيوانية وهذا ما أعطى الإنسان مكنزمات التطور والتقدم الذي لم يتوقف من يوم بدأ.

لم ينقطع لأن الحضارات والشعوب والأجيال عرفت كيف تحاور بعضها، كيف تستفيد من تجارب سابقة وتطورها، وهكذا ابتكرت البشرية أشكالاً لا حصر لها من الحوار.

رأينا فيما سبق أن الصراع والصدام كانا موجودين على امتداد الساحة البشرية وعمقها التاريخي، لقد كان التمركز أهم عوامل الصدام، لأن شدة التمركز حول الذات تجعل صاحبها يغفل عن الذوات الأخرى ويعمل على نفيها، وأن اندفاع الإنسان لتحقيق مصالحه جعله يصطدم بالآخرين المندفعين لتحقيق مصالحهم أيضاً. وتحقيق الأهداف أو المكاسب يصبح أسهل لمن يمتلك القوة الأكبر التي يصدم بها الآخرين. كما رأينا أن الشرائع التي كان يجب أن تساعد على النهوض بحالات الحوار ونفي الصدام، لم تقم بهذه المهمة كما يجب، وتم تجييرها لمصلحة من أرادها عوناً له.

وإذا كان الصدام أحد أقنومي الحياة البشرية، فإن الأقنوم الآخر هو الحوار، لكن الجلبة والضجيج اللتين يثيرهما الصدام، جعلته يشكل المحطات الأبرز في التاريخ، بينما يتراجع الحوار عن الواجهة مع أن له الريادة، والأفعل في حياة الناس.

طالما أننا قررنا أن الحضارات تقوم على مبدأ التراكم وترث اللاحقة السابقة، فإن الوراثة لا تكون إلا بالحوار، حتى لو كان الأسلوب الذي اتبعته اللاحقة صدامياً في تدمير وإسقاط سلطة وسيطرة السابقة، وإذا كانت الممتلكات المادية يتم الاستيلاء عليها بالعنف، فإن معطيات الحضارة من علم وفنون وآداب وفكر وأخلاق ودين وغير ذلك لا تتم وراثتها إلا بأساليب تنتمي إلى حقل الحوار، ولا يكون العنف فاعلاً. لقد تغلب العرب المسلمون على الحضارة الفارسية وأزاحوا إمبراطوريتها، وحملوا الكثير من الأسلاب المادية كغنائم حرب، لكن ما بقي من آثار هذه الحضارة ممتداً في الحضارة العربية الإسلامية لم يكن السيف ليحققه بل العقول البشرية التي نقلت معطيات الحضارة الفارسية إلى الغرب. ولقد انتصرت روما على هانيبال بتراجع الأخير، لكن حضارة هانيبال استطاعت أن تغزو روما حيث انتشرت عبادة الأم الكبرى (سيبيل) وبعد ذلك الأم (مريم) وابنها الفادي، وهذا كله من أفعال الحوار لا الصدام.

إن ما وصلت إليه البشرية في حاضرها ليس جهد شعب من شعوبها فقط، إنه جهد كافة الشعوب، وإسهام كل الذين مروا على مسرح التاريخ، بنسب متفاوتة، وقد كانت عوامل الوراثة والمحاكاة والتطور فاعلة في إنجاز ما وصلت إليه البشرية. إذن عندما تنجز حضارة ما إنجازات معينة ثم تتركها إرثاً للبشرية يعني تسلمها للاحقين، فيعمل اللاحقون على هضمها والإفادة منها، فلا يكون ذلك إلا بحوار اللاحق للسابق، حواراً لعقله، يستوعبه ويتجاوزه، وهذا هو الحوار المطور للحياة البشرية دون قعقعة السلاح.

هذا الحوار المستمر هو الذي لاحظه د. إدوارد سعيد بقوله:((إن هناك بين الحضارات التي يبدو أنها لا علاقة فيما بينها غير الحرب روابط أوثق مما يحلو لأكثرنا اعتقاده))(١).

إن الحقائق العلمية وروائع الفنون والآداب وغيرها، وهي أرقى ما تنتجه الحضارات لا تكون مسرح ومثار صدام، الصدام يكون على المكاسب المادية والمصالح الآنية، والدكتور عبد الرحيم الكريمي في مناقشته لمصطلح صراع الحضارات يقارب هذا المعنى: ((فالحقيقة العلمية المثبتة علمياً أو المستخدمة اجتماعياً لا يمكن أن تكون مثار خلاف أو صراع أو صدام من أي نوع، فالنتائج العلمية المكونة للحضارة هي نفسها سواء أكان مكتشفها هندياً أم أمريكياً أم مصرياً أم نيجيرياً أم من نيكاراغواس)).(٢)

صراع الحضارات أو صدامها مختلف عما تحتاجه الحياة من صراع، فلا مندوحة للحياة عن الصراع، كي تتطور وكي يتم البقاء للأفضل، من خلال قانون صراع الأضداد، فـ ((الصراع هو القانون الأعم في الحركة والتغيير، فلا حركة بدون صراع، ولا صراع بدون حركة، فالصراع مظهر من مظاهر الحياة والحيوية وتعبير عن الوجود. ونحن، بواقعية شديدة نريد أن نخلص كلمة الصراع مما لصق بها من معيار خلقي غير حقيقي فيما ينبغي الإشارة إليه هو أن نستبعد الصبغة والمعيار المغلوط لكلمة صراع))(٣).

إن الصراع الذي يشير إليه الرحيمي هو أرقى أشكال الحوار المولدة للجديد وأكثرها فاعلية، وإن كان قد سمي صراعاً فلأن قديماً يختفي وجديداً يظهر وبه تتجدد الحياة على مستوى المادة والمجتمع أيضاً، وهو لا يحتمل الصفة التدميرية التي التصقت به.

حتى في مجال الفكر يفعل صراع الأضداد فعله، فيكون تطوراً لأفكار من خلال احتكاكها ببعضها مما يدفعها لتوليد مجالات جديدة، وأفكار لم تكن في الحسبان، واحتكاك المذاهب الأدبية والفكرية كان دائماً يولد مذاهب ومنطلقات جديدة لم تكن معروفة.

الحضارات امتداد:

لا بد من نفي صفة الانقطاع عن الفعل الحضاري، لأن الحضارة قد ينتقل مركز نشاطها، قد تتغير وتتبدل معطياته، قد تعاني الضعف والركود، لكن لا تتوقف أو تموت لأن عناصر الحضارة تستمر. قد يسقط منها ما كان مرحلياً، أو ما ثبت أن الحياة تستطيع التخلي عنه، أو ما يتم استبداله بما هو أرقى أو أفعل، لكن الحياة أثبتت أنها جيدة الاختيار لما يجب أن يستمر.

نذكر برأي إدريس هاني القائل بأنه لا توجد إلا حضارة واحدة في وقت واحد، هي الحضارة الأقوى المتغلبة، لأنها قد تكون أزاحت غيرها، فتحولت الحضارة المبعدة إلى ثقافة (تراث)، ويقترب الكريمي من هذا المعنى عندما يقول: ((يكون التعبير الصحيح أن نقول عن هذه الحالة (صدام الثقافات) ونقصد بهذا المصطلح تلك الحالة التي يتحسس الآخر مسدسة رغبة في حسم الحوار بينه وبين الآخر لصالحه))(٤).

الحضارة لا تموت ولا تنتهي، بل تمتد في صلب غيرها، وعندما نقول ثقافة فنحن لا نشير إلى شيء خارج الحضارة أو مفارق لها، فالثقافة التي تحيل إلى الوعي هي العنصر الأفعل والأقوى في الحضارة، فكيف يتم الفصل بينهما؟ وإذا كان المقصود بها ما أنتجته حضارة ما في أيام عزها، أي في الماضي فكذلك لا أعتقد أنه عندما ينتمي إلى الحضارة يمكن أن يشكل انقطاعاً، فهل نستطيع القول إن ابتكار الصينيين للطباعة أو للبارود أو للورق قد انتهى وتحول إلى ثقافة بمجرد انتهاء الحضارة الصينية القديمة؟ وهل نستطيع القول أن الصفر والأعداد تحولت إلى ثقافة بمجرد اضمحلال الحضارة العربية التي أنتجتها؟ وهل تحول اكتشاف أن

الدائرة /٣٦٠/ درجة، إلى ثقافة منقطعة لأن السومريين أوجدوها؟ إن العناصر الحضارية تبقى ممتدة في اللاحق. حاضرة فيه مهما كان قدمها أو قدم الشعب الذي أوجدها، وليست كعنصر في الثقافة منقطعة عن الحضارة.

لقد وجدت العناصر الحضارية القديمة من قبل حضارات وشعوب، وهي باقية والجديد هو إضافة إليها واستمرار لها وتطوير لمفاعيلها، والحضارة القوية ليست التي تنسف ما سبقها بل التي تضيف إليه الأفضل ليبقى ويستمر.

يقول أمارتياسين، وهو رئيس جامعة ترينتي كامبريدج، وحاصل على جائزة نوبل للاقتصاد عام ١٩٩٨ : ((عندما يقوم علماء الرياضيات المعاصرون في أوربا وأمريكا باتباع العد العربي (العشري) لحل مسألة حسابية، فقد لا يكونون مدركين حينئذ أنهم يساعدون في تخليد ذكرى عالم الرياضيات العربي ((الخوارزمي)) الذي عاش في القرن التاسع، (والذي اشتق لفظ العد العشري algorithm من اسمه والذي اشتق لفظ الجبر algebra من كتابه (الجبر والمقابلة). ويجب أن يحصل الغرب على كامل التقدير للإنجازات العظيمة التي حققها خلال القرون القليلة الماضية، لكن فكرة الحضارة الغربية التي لا مثيل لها فهي فكرة من وحي الخيال))(٥).

في الكلام السابق دليل على أن ما تحتاجه الحياة والحضارة لتتابع مسيرتها، تستطيع الاحتفاظ به وتمنع عنه الموت، ويستمر بصيغته التي وجد عليها أول ما وجد، أو مندرجاً في غيره مما هو أساس أو جزء من الأساس له.

إلى هذا المعنى تشير د. نجوة قصاب حسن: ((والشعوب كالأفراد يتمم بعضها بعضاً في اقتباس القيم الرفيعة والأخلاق الكريمة واكتساب العلوم الرفيعة التي تكشف حقائق الكون))(٦).

لقد أثبت ماضي البشرية قدرة كبيرة على تفعيل ما تتوارثه الحضارات، وعلى الحفاظ عليه وتطويره، ولا أعتقد أنها ستكون في المستقبل أقل قدرة على ذلك، ولا أجد مبرراً للتشاؤم الذي يسوقه إدريس هاني:((إن تسليع الثقافة هو مشروع لعنف ثقافي سيجعل نهاية الحضارة على يد الحضارة نفسها ونهاية الثقافات على يد الثقافات ذاتها))(٧).

صحيح أن حجم الأخطار كبير لكن حجم الوعي والعقل ومراعاة المصالح كبير أيضاً، ومهما شهدت الحضارات من تغيرات وتبدلات فلا أعتقد أنها ستشهد

نهاية، فالحضارة ليست دولة أمبراطورية، أي ليست كياناً مادياً أو سياسياً ليسقط وينتهي في موعد محدد. تسقط حضارة ما عندما توجد الأقوى منها والأقدر على الاستمرار.

الحضارات تمتد وتنتقل مراكزها الرئيسية لأن هناك جهات استطاعت أن تطور عناصرها الموروثة، فتصنع مراكز جديدة، وهذا ما يشير إليه د. حسن حنفي في حديثه عن تناوب الحضارات على ضفتي المتوسط.

يرى د. حنفي أن الآخر (وهو بالنسبة لنا كان الغرب وما زال) كان دائماً يتموضع جغرافياً شمال وغرب المتوسط، في حين نتموضع نحن (العرب) جنوبه وشرقه، وقد كانت الحضارة منذ ميلاد المسيح تتناوب القوة والضعف على ضفتي المتوسط، في دورة عمرها سبعة قرون تقريباً، فعندما تزدهر الحضارة الغربية (حضارة الغرب والشمال) تكون الأخرى الشرقية (حضارة الشرق والجنوب) في حالة ضعف وتراجع، والعكس صحيح، القرون من الأول إلى السابع غربية الطابع من حيث القوة والسيطرة، يليها قرون سبعة أخرى شرقية الطابع، ثم سبعة غربية، وضمن حساباته فنحن الآن على أبواب التحول في أوائل القرن الواحد والعشرين نحو مرحلة جديدة ستشهد نهوض الشرق واضمحلال الغرب، ويرصد إرهاصات المرحلة القادمة. وهو يمثل لكل حضارة بحركة الموجة وتداخل حركة الموجات مع بعضها(٨).

ولا أدري ما الذي جعل د. حنفي يغفل الفترة السابقة لظهور المسيح؟ وهل تنطبق ترسيمته على حضارات وجدت في أماكن أخرى من العالم كحضارات جنوب وشرق آسيا مثلاً؟

الحضارة في رؤيته هذه لا تتوقف مسيرتها ولا خوف عليها، لأن مراكزها قد تنتقل ورعايتها قد تصبح كل حين مهمة شعب أو أمة ما أو مجموعة من الشعوب والأمم، وهو ينقل إشارات بعض الغربيين حول هرم الحضارة الغربية وشيخوختها، كما يرى هوسرل، ويعدد مفكرين أوربيين معاصرين ينعون نهاية الحضارة الغربية مثل: نيتشه، اشبنجلر، هوسرل، شيلر، برغسون، توينبي... إلخ. بالمقابل يعدد قادة ومفكرين من العالم الثالث يشكلون إرهاصات ولادة حضارية جديدة مثل: فانون، ديبريه، جيفارا، بن بركة، نكروما، نيريري، سكوتوري، ناصر، هوشي منه،

ماوتسي تونغ، غاندي، نهرو، تيتو، مانديلا، كاوندا، بن بلا، فهؤلاء جميعاً يبشرون بولادة وعي جديد في العالم الثالث قد يقلب الموازين الحضارية(٩).

والملاحظ أن معظم الذين يذكرهم حنفي ينتمي إلى حقل السياسة لا إلى حقل الفكر والعلم، كما أن بعضهم مثل دوبيريه ينتمي إلى الحضارة الغربية، لكن إشارات حنفي الأخيرة لا تشير إن كان المركز المرتقب للحضارة الموعودة هو شرق وجنوب المتوسط أم في مكان بعيد عنه، باعتبار أن هؤلاء الأعلام ينتمون إلى كل العالم الثالث، مع تتبعه لإرهاصات النمو الموعود لحضارتنا العربية الإسلامية .

الفيلسوف كارل بوبر، يقترب من هذا المعنى، أي تناوب الحضارات وانتقال تمركزاتها من منطقة إلى آخرى ومن شعب لآخر، فهو يتحدث عما يسميه ((خطة للتاريخ)) ناتجة عن ((مشيئة الرب)) قد لا تدرك مع أنها غير مستغلقة تماماً، هذه الخطة لا بد أن ترتبط بالثواب والعقاب، بنوع من ((التوازن المقدس أو العدل الإلهي))، ((إنه توازن إذا اختل عاد قافلاً كالبندول)) لاحظه هيرودوت، إذ رأى اتجاه الناس شرقاً في حرب طروادة يفسره قفول لاحق في حروب الفرس باتجاه الناس غرباً. وهذه النظرية أوردها تولستوي بعد ثلاثة وعشرين قرناً في (الحرب والسلام) فبعد اتجاه نابليون شرقاً إلى روسيا توازن تلقائياً باتجاه الشعب الروسي نحو الغرب(١٠).

ويعقب بوبر ((ونسلم بأنه لا هيرودوت ولا تولستوي تقدما بطرح يعطي انطباعاً بنظرية إيمانية. بيد أن الخلفية الإيمانية لا تخطئها العين، هذه الخلفية نظرية عن التوازن المقدس للعدالة مسكوت عنها تقريباً. وهي فضلاً عن هذا، خلفية تتوافق تماماً مع بنية الفكر الأوربي بأسرها، والتي هي أساساً بنية لاهوتية في أصولها، تتشبث بتخطيطها الأولي اللاهوتي، على الرغم من الحركات المضادة للدين وعلى الرغم من الثورة الفرنسية، ومن انبثاقة العلم. ذلك أن ثورة المذهب الطبيعي استبدلت اسم ((الطبيعة)) باسم ((الرب)) لكنها تركت كل شيء آخر من دون تغيير. وفيما بعد يأتي الدور على ربة الطبيعة، ويحل هيغل وماركس ربة التاريخ محلها)) (١١).

من كل ذلك يهمنا أن نشير إلى أن الحضارة امتداد واستمرار وليست قطيعة وتوقف.

وانطلاقاً من تمركز الكثير من حديث صدام أو حوار الحضارات حول أفكار هنتجتون نشير إلى رأيه المخالف للباحثين والمفكرين الآخرين، فهو يقول: ((وخلال فترات الوجود الإنساني كانت الاتصالات بين الحضارات إما منقطعة أو غير موجودة)) (١٢). وهو لا ينتظر أن يرد عليه الآخرون، إذ يورد في كتابه آراء ترد عليه، فهو ينقل عن ((كارل كويجلي)) قوله في محاجة: ((إن الحضارة الغربية بدأت تأخذ شكلها بالتدريج بين عامي ٣٧٠ -٧٥٠ م من خلال مزج عناصر الثقافات الكلاسيكية والسامية والعربية والبربرية))(١٣). وهو ينقل عن فاكلاف هافل ما به يعترف بالتنوع الثقافي المكون للحضارة الحديثة: (نحن نعيش الآن حضارة كونية واحدة) وإنها ((ليست أكثر من قشرة رقيقة)) وهي قشرة ((تغطي أو تخفي التنوع الكبير في الثقافات...)) (١٤).

استمرارية الحوار:

لا يستمر الحوار في الزمن فقط بل يمتد في المكان أيضاً، فما عرفته حضارة في مكان ما، قد تعرفه حضارة أخرى في مكان آخر، في الزمن ذاته أو في زمن آخر مختلف، وقد تشكل عناصر من ثقافة أو حضارة ما عامل وعي ونهوض لحضارة وثقافة أخرى. هناك ما يتم الإعلان عنه مباشرة ويكتشف بسهولة وهناك ما لا يظهر لشدة تحوله واندماجه، أو لحاجته إلى زمن طويل ليتم التعرف إليه.

لقد حاول الأوربيون التركيز على مصادر الوعي الأوربي كما بينا، والكثير منهم أغفل المصادر الخارجية لهذا الوعي، تعصباً وشدة تمركز، لكن الكثيرين من الغرب والشرق أشاروا أو تعرفوا إلى المصادر الشرقية والدور الشرقي في الوعي الأوربي، يرى غارودي: ((إن ما اصطلح الباحثون على تسميته باسم (الغرب) إنما ولد في (مابين النهرين)، وفي مصر، أي في آسية وأفريقية)) (١٥). وهو يعترف بأن العرب عندما دخلوا إلى أسبانيا ((جلبوا معهم نظاماً اجتماعياً أعلى جداً من النظام

الراهن))[١٦]. وهو يستفيض في تعديد الإنجازات العلمية للعرب(١٧). كما يستفيض في تعديد إنجازات الحضارة الصينية في مجالات العلوم المتعددة(١٨).

وينقل عبد السلام الشدادي عن المؤرخ الأمريكي مارشال ج. س هودسون، قوله: ((في القرن السادس عشر، كان يمكن لزائر قادم من كوكب المريخ أن يعتقد أن العالم البشري كان على وشك أن يصير مسلماً. وكان سيبني حكمه جزئياً على امتيازات المسلمين الاستراتيجية والسياسية، وجزئياً كذلك على الحيوية العامة لثقافتهم)) (١٩).

ويتابع الشدادي في حواره مع جاك دريدا ((لكن أوربا هذه فيما وراء الإسلام، كانت تجمع وتستمر في جمع واستثمار المعلومات والتقنيات التي راكمتها الحضارات العريقة في الصين والهند وأفريقيا وأمريكا المكتشفة حديثا)) (٢٠).

وتأكيداً لأن العالم لا ترثه أو لا تحكمه مرجعية واحدة، بل يحيل إلى تعددية نلمسها كثيراً في كلام المفكرين والباحثين والمنصفين، أي غير المتعصبين والمتمركزين على ذواتهم، يقول فتحي بن سلامة في الحوار مع دريدا :((والضفة التي ليست لا فرنسية ولا أوربية، ولا لاتينية ولا مسيحية، أليست هي حيث تتداخل اليهودية والإسلام؟ نحن نعلم أن هناك يكمن عذاب للكائنات والفكر وإن فك الرموز لن يأخذ بعده الحقيقي إلا حين ينقضي التمزق الإسرائيلي الفلسطيني، وبمعنى ما فإن الهيلينية لا تزال طرفاً ثالثاً بين هاتين المرجعيتين اللتين شكلتا العالم الذي نحن جميعاً ورثة له)) (٢١).

ويضيف د.حسن حنفي إلى مصدري الوعي الأوربي المعلنين: المصدر اليوناني والروماني والمصدر اليهودي المسيحي، مصدرين آخرين هما: المصدر الشرقي القديم والبيئة الأوربية نفسها (٢٢).

وإذا كان حنفي وغيره يبحثون الدور البارز للحضارة العربية الإسلامية في الحضارات العالمية وخاصة الغربية، فتبدو الأحكام متسمة بالعمومية، فإن هذا لا يجعل الباحثين في التأثر الحضاري يغفلون الجزئيات أو أدوار الحضارات الأخرى، فحنفي نفسه يرى تأثر النحلة الأورفية ((بمصادر شرقية وديانات من فارس خاصة الزرادشتية)) (٢٣). كما يرى ((أن كل الجوانب الإشراقية الصوفية في الفلسفة

اليونانية إنما هي امتداد لحضارات الشرق... كما انتقل علم الفلك من بابل إلى اليونان، وكذلك السحر والخرافة... وفي الهند تم تأسيس علم الحساب... ووضع نيايا المنطق الصوري من خلال تأسيسه للمنطق البوذي)) (٢٤).

إن الرد على التمركز الغربي يقع في صلب العمل على إبراز دور الحضارات التي أراد هذا التمركز طمسها، ولو أن الغربيين أو بعضهم كانوا أقل نرجسية وأكثر انفتاحاً لكان ذلك في مصلحة البشرية ولخفف من غلواء النظرة العدائية للغرب وحضارته، ومحاولة إيجاد تمركز بديل لدى أبناء الحضارات الأخرى كالعربية الإسلامية. ولا بأس هنا من الإشارة أنه كان للإسلام مركزيته التي تحدث عنها د. عبد الله إبراهيم في كتاب بعنوان ((المركزية الإسلامية – صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى))

لقد تنبه الكثير من قادة الفكر والسياسة في الغرب إلى تفريغ شحنة العداء والتوتر بين العرب والمسلمين من جهة والغرب من جهة، تاركين للحوار أن يأخذ مجراه ومجانبين لآراء التطرف ورفض الآخر أو انتقاصه، يقول جاك شيراك الرئيس الفرنسي في كلمته في المؤتمر العام لليونسكو ٢٠٠١/ :((ما الهندسة المعمارية والشعر والرياضيات لولا الثقافة العربية، التي ورثت المعارف القديمة، وجابت أصقاع الأرض، بعيداً عن حدودها حين كانت أوربا تتقوقع على نفسها))(٢٥).

ويقول أوكتافيوباث: ((ليس من الممكن فهم تاريخ البشرية دون الإسلام والثقافة العربية، فدون الترجمان للفلاسفة اليونانيين أو دون مفكرين كبار من أمثال ابن رشد ما كان للأوربيين أن يكون لديهم فكر اليوم)) (٢٦).

لقد كان حديث التسامح والحوار الذي أبرزته الثقافة العربية الإسلامية مثار إعجاب المنصفين في الغرب، فغوستاف لوبون يروي عن خلف ابن المثنى:((شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة وهم: الخليل بن أحمد صاحب النحو وهوسني، والجبري الشاعر وهوشيعي، وصالح بن عبد القدوس وهو زنديق وثني، وسفيان بن مجاشع وهو خارجي، وبشار بن برد وهو شعوبي، وحماد عجرد وهو زنديق شعوبي، وابن رأس الجالوت الشاعر وهو يهودي،

وابن نظير وهو نصراني، وعمر بن المؤيد وهو مجوسي، وابن سنان وهو صابئي، وكانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار، ويتناقلون الأخبار، يتحدثون في جو من الود والتقدير واحترام الرأي، ولا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم)) (٢٧).

إن مصطلح آداب الاختلاف الذي انتشر في الثقافة العربية قديماً، ظهر للدلالة على مثل هذا المناخ الفكري وكان العرب شديدي الاعتزاز به حتى أن المعارضات العربية الحديثة تضرب به المثل على الحرية التي كانت متاحة في مجال الفكر والثقافة أيا مذاك، وعلى أهمية الحوار في تنمية الفكر والمجتمع (٢٨) دون أن يقتحم ساحة الحوار سيف ولا رمح.

لا شك أن بشرية تريد العيش بسلام وطمأنينة تحتاج إلى تزكية الحوار وإنمائه ودفعه إلى الأمام، ويبدأ ذلك بالاعتراف بأدوار الآخرين، وأن البشرية لا تحيا بجهود شعب واحد أو حضارة واحدة، يقول غارودي: ((وبهذا الحوار بين الحضارات وحده يمكن أن يولد مشروع كوني يتسق مع اختراع المستقبل وذلك ابتغاء أن يخترع الجميع مستقبل الجميع. إن التجارب الحالية في أسيا وأفريقية وأمريكة اللاتينية - تجارب غاندي وتجربة الثورة الثقافية الصينية، تجارب (نيريري) في ((الجماعية)) في أفريقية، مثل تجارب لاهوتي التحرير في (بيرو) ـ تتيح لنا أن نرسم منذ اليوم الخطوط الأولى لهذا المشروع الكوني في القرن الحادي والعشرين، مشروع الأمل))(٢٩).

لقد جرى التعبير عن هذا المشروع كثيراً، ومن قبل قادة وعظماء مختلفي الحضارات ودون اتفاق أو تنسيق مسبق، إنما تحسساً لدور يجب أن تصل إليه الإنسانية، فلماذا لا يتم احترام إرادة الآخرين؟ يقول غاندي: ((إني لا أريد لمنزلي أن تحيط به الجدران والأسوار من كل جانب ولا أريد لنوافذي أن تسد وتوصد. إني أريد لثقافة كل البقاع أن تهب بنسائمها حول داري بأكبر درجة ممكنة من الحرية، لكنني أرفض لرياح الثقافة أن تعصف بقدمي بحال من الأحوال)) (٣٠).

الغريب أن نرى أنفسنا أمام مشروعين غربيين، أي ينتميان إلى الحضارة ذاتها وإلى الثقافة ذاتها، أحدهما هو مشروع غارودي يبشر بالأمل والحوار والمستقبل المشرق للتعاون بين الشعوب و الحضارات ويدعو إلى ذلك، ومشروع يبشر بالصدام والعنف والأسوار والانغلاق والمستقبل القاتم، فتجد أن الناس انصرفوا عن مشروع غارودي فلم يجد من يناقشه ويحاوره ويتابعه وهو الأقدم، حيث أن غارودي قدم كتابه إلى قراء العربية بترجمة د.عادل العوا وتقديم محمد مزالي منذ عام /١٩٧٨/، في حين أن مشروع هنتجتون أقام الدنيا ولم يقعدها، ولا يزال يصنع الحراك في الساحة الثقافية الفكرية، مع أنه لم يكتمل في صياغته النهائية إلا عام/١٩٩٦/.

لقد كان حديث الأمل، حديث استمرار الفعل الحضاري بفاعلية وتقدم، هو حديث الثقافية العربية الحديثة، خاصة تلك الثقافة التي وجدت في الاحتكاكات بالغرب والإفادة الواعية من تجربته طريق النهضة والتقدم، بحيث أن من يتحدث في الثقافة العربية الحديثة يفترض أن يشير إلى مثل هذا التوجه، فاتصال العرب بالغرب عن طريق رموز مثل: رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وخير الدين التونسي وقاسم أمين والشدياق وكثيرون غيرهم، هو الذي دفع أفكاراً إلى الواجهة مثل: إلزامية التعليم، تحرير المرأة، الفصل بين السلطات، تبني الحكومات الدستورية، الحرية الشخصية والسياسية (الديمقراطية، المواطنة، المساواة، العلم الحديث ... وغيرها(٣١).

إن محاكاة الغرب في تقدمه والإفادة من عقله وعلمه والتعاطي مع صناعته وإنتاجه العلمي التكنولوجي كل ذلك دليل على استعداد الشعوب لمواصلة الحوار بين الحضارات من أجل خير البشرية، وإقرار منها أن التقدم لدى أية أمة هو مكسب للبشرية جمعاء.

– الحضارات وخطاب السلام:

الحوار ينسجم مع خطاب السلام، ولا ينسجم مع خطاب الحرب. وخطاب السلام لا يتناقض مع خطاب المصالح، لكنه قد يفهم المصالح فهماً يخترق المعمول به، فالمصالح في خطاب السلام هي أن تعيش البشرية بسلام وطمأنينة وأن يصل صاحب الحق إلى حقه، وأن تحل مشاكل الفقر والجهل والمرض، وأن ينتهي الاستغلال والعبودية والتسلط.

أما الخطاب الآخر، خطاب المصالح الآنية، فهو المفضي إلى اعتباره الثروة المادية المعيار الحضاري الأول، وبمقدار ما تتمتع جهة ما بثروات ممتدة يكون دورها الحضاري أكثر بروزاً، مازجة بذلك بين جبروت المال وجبروت العسكر ومسخرة الثقافة والدين والسياسة وغيرها لأغراضها.

هل يمكن القول إن خطاب السلام هو خطاب من لا يتمتعون بجبروت القوة، بالتالي فخطابهم خطاب العاجز، في حين ترافقت القوة بالجبروت على امتداد التاريخ؟!

لقد كان للحضارات خطابها وأساليب اختراقها، والصغار يطمحون إلى أن يمتد هذا الخطاب والاختراق فيكون ضماناً لهم من الاستلاب. أما الأقوياء فقد فسروا هذا الخطاب بالعجز وسخروا منه، ولم يأبهوا به إلا كما أبه المستوطنون الجدد في أمريكا بخطاب أحد زعماء الهنود الذي قال أمام المستعمرين الإنكليز: ((إننا نريد أن نعيش بسلام معكم كما عشنا مع غيركم من الشعوب. لو أننا فكرنا أن نحاربكم يوماً فإننا سنعلمكم بذلك سلفاً، وسنبين لكم الأسباب، التي نريد أن نحاربكم من أجلها، فإذا أبديتم ما يقنعنا أو يعوضنا عن الأضرار التي سنحاربكم من أجلها فإننا لن نحاربكم. وإذا أردتم أن تحاربونا يوماً نرجو أن تعلمونا بذلك وتبينوا لنا الأسباب، فإذا لم نقنعكم أو نعوضكم عن الأضرار التي ستحاربون من أجلها، فلكم الحق في محاربتنا. وإلا فليس لكم الحق أن تحاربونا))(٣٢).

هل استطاعت أو رغبت قوى (التحضر) أن تفهم هذا الخطاب؟

لقد أشرنا سابقاً إلى سخرية مستوطني أمريكا (المتحضرين)، من الهنود الحمر الذين قد يتحاربون سبع سنين دون أن يسقط سبعة قتلى؟

لقد كان هذا الخطاب وهذه الإرادة الصادقة في التعايش بسلام موجودة باستمرار، لكنها لم تكن محل احترام من القوى الكبرى، إذ القوة لدى هؤلاء هي البديل الذي يحقق الأهداف وهي المعول عليها.

هذا الخطاب وهذه الإرادة هي إرادة غاندي الذي استطاع تفعيل قوى المجتمع الهندي في وجه الاحتلال، إنها إرادة مانديلا في وجه العنصرية، إنها إرادة كل قوى السلام، إن غاندي كان ينتمي إلى كل قوى السلام والخير أينما وجدت، فهو

يقول: ((إنني لا أؤمن بألوهية (فيدا) الحصرية. إنني أؤمن بأن (التوراة) و(القرآن) و(زندافستا) هي من وحي مثل وحي الفيدا)) (٣٣).

نتذكر حكاية الرجل المسيحي الذي أعتقد أن عقيدة غاندي الدينية هي التي جعلته بهذه القوة فجاءه راجياً إدخاله في دينه، لكن غاندي أجابه: اذهب وكن مسيحياً صالحاً. وهذا يلخص قناعة غاندي في أن الإخلاص للمبادئ الخيرة يحقق المعجزات.

لقد طُمِس هذا الخطاب المتجذر في كينونة الشعوب، لصالح فهم جديد للعلاقات بينها يقوم على إرادة القوة المتغطرسة والساخرة من خطاب السلام معتبرة إياه خطاب الضعف ولهذا لم تعره الانتباه الكافي، وذهبت دعوات التعايش بسلام وطمأنينة أدراج الرياح، ولم تلق دعوة نيريري من يستجيب لها في الطرف الآخر، لقد قال في خطاب بتاريخ ١٩٥٩/١١/٢م : ((إن شعب تنجانيقا سيوقد شعلة ويزرعها في قمة (كليمنجارو) وسيشع نورها فوق الحدود، ويحمل الأمل حيثما كان اليأس، والحب حيثما كان الحقد، والكرامة حيث كان الإذلال ..... ليثق شعب بريطانية وسائر الشعوب أننا لسنا عدواً، بل شعاع أمل. وليس في وسعنا، نحن، إطلاق صواريخ إلى القمر، بل في وسعنا أن نرسل صواريخ محبة وأمل إلى جميع البشر، أخواننا، أينما كانوا)) (٣٤).

ألا يختلف هذا الخطاب عن خطاب القوة والغطرسة الذي يعلن حرباً (صليبية) تطال شعوباً بريئة لأن القهر الذي حصلت عليه من قوى التجبر أحال (بعض) أبنائها إلى قنابل، فيرى رئيس أقوى دولة في العالم ((من ليس معنا فهو ضدنا)) أو ((إما معنا وإما مع الإرهاب))؟!

لماذا لم يستمع الغرب إلى دعوة الزعيم الهندي الأحمر والهندي الأصيل والزعيم الأفريقي نيريري، وإلى دعوة غارودي:((من الواجب أن نتعلم من الحضارات الأخرى بصورة أساسية المعنى الحقيقي لعلاقة المشاركة الإنسانية)) (٣٥).؟!

هل لأن الغرب لم يقتنع أن السلام في العالم من مصلحته لأنه يحرمه من القدرة على استغلال الشعوب؟ إن السلام يحتاج إلى الحوار، و((الحوار يفترض أن يكون كل طرف مقتنعاً بأن ثمة شيئاً يتعلمه من الطرف الآخر)) (٣٦).

السياسة وحوار الحضارات:

الفعل السياسي ليس فعلاً خارج الحضارة، فالسياسة تنتمي إلى حيز الثقافة والحضارة، وما تقدمه السياسة في حقل أساليب التعاطي بين البشر من خلال ما يعرف بالعلاقات الدولية الدبلوماسية، يؤكد الدور الحضاري للفعل والممارسة السياسية، خاصة عندما تتوفر لذلك الإرادة الطيبة. إن الكثير من العمل السياسي والدبلوماسي يرقق حواشي الناس ويضفي على العلاقات صبغة من اللين والكياسة، لكن توجه السياسة لخدمة المصالح المباشرة في كثير من حالاتها، يصنع ظلالاً من الشك حول الأهداف التي يتوخاها الفعل السياسي.

الفعل السياسي فعل آني يتوخى الحصول على فائدة مرجوة فوراً، أو يضع الأساس لفائدة متوخاة مستقبلاً، وهكذا يلتقي ويتفارق مع الفعل الحضاري الذي يمتد أثره عميقاً في الزمن، ومن صفاته الامتداد والدوام، والفعلان وإن لم يتناقضا، فهما مختلفان.

من هنا نقول إن من يتوخى أن تقود السياسة حوار الحضارات يجب ألا يتوقع نتائج كبيرة. العلاقات السياسية والاتصالات لا تنقطع، لكن يتم تنظيمها في الغالب من أجل أهداف قصيرة الأجل.

وحوار الحضارات وإن كانت تخدمه السياسة، فهو ليس ذلك الحوار الذي يتحلق فيه أشخاص ممثلون لجهات ما، ينظمه سياسيون أو فنيون أو فكريون، ويخرج بقرارات أو يفشل. مثل هذا الحوار حوار إرادوي، تسيره مصالح مباشرة. وليس الحوار الذي يجريه بعض ممثلي الأديان ببعيد عن هذا التوصيف في صيغته المعلنة.

حوار الحضارات مختلف وعليه سيكون مدار بحث الفصول التالية، لكن على السياسة ورجالها واجباً كبيراً تجاهه، وهو ألا يخلقوا له العراقيل لأنهم قادرون أحياناً وبارعون أحياناً في وضع العصي في الدواليب، بالتالي من واجبهم تنمية وتزكية الجوانب التي تساعد على حوار حقيقي بين الحضارات كالإشراف على

أحوال الهجرة و المهاجرين، أو انتقال الخبرات والعلوم والآداب، وفتح القنوات لتبادل وتلاقي الفنون، وغير ذلك.

أيضاً: ((ينبغي اللجوء إذاً إلى الوقاية السياسية، بتعبير آخر، العمل على التقليل من أسباب((العداء المطلق)) أو إزالتها، بحيث تظهر إمكانية ((مصلحة مشتركة)).)) (٢٧).

وهنا نلفت الانتباه إلى الحديث عن المصلحة المشتركة لا المصلحة الخاصة، كما نلفت إلى دور السياسة في العمل على تخفيف الاحتقان بين الشعوب وتقليل العداوة، وهكذا تكون السياسة فاعلة في إيجاد مناخات للحوار، أما من ينتظر المؤتمرات الدولية لتخوض في حوار الحضارات لتطويره ووضع الخطط له، فإنما يجعلها بديلاً له لا شكلاً من أشكاله، ولن يصل إلى حوار حضارات حقيقي عن هذا الطريق كما أعتقد.

وإذا كان د. كريم أبو حلاوه يسأل السؤال التالي: هل أصبح العالم الراهن، وفي ظل استمرا غياب توازن القوى الحالي مؤهلاً لحوار الحضارات؟ (٣٨). فإننا جوباً على سؤاله نسأل: ومتى كان العالم غير مختل في توازن القوى؟ ثم متى كان العالم غير مؤهل لحوار الحضارات؟ والتاريخ مليء بالشواهد على الاختلالات، وفي الوقت ذاته مليء بالشواهد على الحوارات الحضارية.

وفي عنوان آخر يسأل أبو حلاوه: لماذا عاد صراع الحضارات؟ وجواباً له نسأل: ومتى اختفى هذا الصراع؟ لكن بدل أن يكون صراع حضارات نشير إلى أنه صراع المصالح المباشرة.

إذن الحوار موجود باستمرار بين الحضارات كما سنبين، والصراع موجود باستمرار بين المصالح كما بينا، سواء آخذ الأقنومان أشكالاً عنيفة أو غير عنيفة.

قد يستهجن هذا الكلام، بمعنى كيف ينسجم الحوار والعنف؟!

عبر التاريخ ولدت الصدامات بين الحضارات حوارات حضارية امتدت قروناً عديدة، وبقيت آثارها على مدى الأيام، كما حصل عقب غزو الاسكندر المقدوني للمشرق وعقب الفتوح الإسلامية في العالم، كما سنبين.

هل نستطيع القول إن هناك ((صداماً حوارياً)) أو ((حواراً صدامياً))؟

من جهة أخرى: ليس جديداً ولا مستغرباً أن نكتشف التناقض بين فعل السياسة وفعل الحضارة، لكن المستغرب أن نأمل من الفعل السياسي أن يتحول إلى فعل حضاري أو يكون بديلاً له، يقول د.علي نوح: ((إذن ثمة تناقض بين الواقع الدولي ممثلاً بـ (نظام عالمي أحادي). وفكرة الحوار بحيث تفترض التوازن والتعددية، واحترام رأي الآخر. وبالتالي فإن فكرة الحوار لن ترى النور مالم يكتب للعالم قيام نظام متعدد الأقطاب، تأخذ فيه الشعوب والحضارات الأخرى، سواء كانت روسية أو صينية، أو هندية أو فارسية، أو غربية وإسلامية دورها الفاعل ضمن جغرافيتها الطبيعية والبشرية)) (٣٩).

الفعل السياسي قد يكون ممهداً ومساعداً للفعل الحضاري ولحوار الحضارات، لكنه لا يكون بديلاً له.

من المفيد أن تتعدد الأقطاب وأن تتحاور، لكن حوارها سيكون فعلاً سياسياً قد يخدم حوار الحضارات وقد لا. أما حوار الحضارات فمستمر طالما أن ما تقدمه هذه الحضارات من تكنولوجيا وفكر وثقافة وقيم يجد طريقه إلى الانتقال بين الشعوب عبر القنوات القديمة والجديدة، وقد ثبت أن الحروب والصدامات غير قادرة على منع تدفق المعطيات الثقافية والحضارية بين الشعوب.

بالتالي فإن المؤتمرات التي تحضر لحوار الحضارات، ستكون فعلاً في السياسة، ستدور فيه المشاورات حول الكسب والمصالح، ويتكاذب المجتمعون، ويحاول كل منهم إبراز دوره الحضاري وخدمته للحضارات العالمية، ثم يخرجون من المؤتمر ولم يتغير شيء، إلا إذا فهمنا تغير العلاقات السياسية بين الدول، وتوزيع الأدوار، على أنه حوار حضارات، من هنا نرى عدم جدوى مطالبة د. نوح: ((بالتالي يمكن القول: إنه لا بد من مؤتمر تحضري توكل إليه مهمة كهذه، وإلا ستظل مسألة الحوار مسألة اقتراح)) (٤٠).إنه دوران في الحلقة المفرغة!

يتحدث د. أمين اسبر عن حوارات سياسية عديدة ليثبت قدرة الحضارة العربية الإسلامية على أن تكون حضارة يؤسس لها الحوار، لكنه لا يسعى لإثبات أنها حوارات حضارات، بل حوارات مصالح قوى تشكل أجزاء من حضارات، تتوخى الفوائد الجماعية. ولا شك في خدمتها لحوار الحضارات ولو لم تكن هي هو. مثال

ذلك حوارات الشراكة العربية الأوروبية. (٤١). وكذلك الحوار العربي الإفريقي(٤٢). والحوار العربي الياباني(٤٣). إن هذه الحوارات تهيئ الحوار بين الحضارات وتساعده لكنها تقع في إطار الحراك السياسي بين سلطات بلدان تسعى لتطوير مصالحها وتسهيلها، وإزالة العقبات عن طريق التبادلات، وهذا مختلف.

وهنا أسأل أيهما أكثر فائدة لحوار الحضارات، مؤتمرات لساسة البلدان، أم تنشيط فعل الترجمة بين اللغات والحضارات للتعرف على متضمنات هذه الحضارات؟ أيهما أجدى، المؤتمرات أم تبادل النشاط الفني: موسيقا، غناء، فنون تشكيلية، سينما، مسرح... إلخ؟ أيهما أجدى المؤتمرات السياسية أم نقل الخبرات العلمية والفنية لتعميم التكنولوجيا الحديثة، عن طريق تنشيط عمل مراكز الأبحاث والجامعات؟ قد تكون بعض المؤتمرات ذات فائدة بهذا الشأن، لكن السياسة عودتنا أن تحيل إلى السياسة. لقد أفسدتنا السياسة حتى لم نعد نرى شيئاً إلا من خلالها، والملاحظ أن حوار الحضارات الناشط وغير المنقطع منذ وجدت الحضارة، لم يعترف كثيراً بالحدود السياسية ولا بآراء القادة السياسيين.

وإذا كنا نأمل أن ينجح الحوار: ((إذا تفاعلت رغبة الأقوياء مع الضعفاء على أرضية العدالة والعقلانية)) (٤٤). فإن هذا لم يحدث في التاريخ، وما أظنه سيحدث، فحوار الأقوياء والضعفاء يمر عبر السطوة والسيطرة، لا بأشكال من التكافؤ والندية. إنها أحلام الطوباوية. والعقلانية ليست في انسجام تام مع مكونات القوة.

وإذا كان عام ٢٠٠١ قد أقر من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة عاماً لحوار الحضارات استجابة لاقتراح الرئيس الإيراني محمد خاتمي(٤٥). كما اختارت اليونسكو كهدف استراتيجي لاستراتيجيتها المتوسطة المدى من ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٧ إقامة حوار بين الحضارات(٤٦). فإن المطلوب أن لا يكون الحوار محدوداً بزمن يبدأ وينتهي. الحوار بين الحضارات ابتدأ ولن ينتهي، بمؤتمرات أو بدون مؤتمرات. والسؤال إذا انتهى عام الحوار، هل ينتهي الحوار لأن زمنه فات وانتهى؟! ألا نحس بزيف وعبثية مثل هذا التفكير؟ لا شك أن عاماً كهذا تتوفر له الإدارة الطيبة سيكون مفيداً لكنه لن يصل إلى الغاية.

كيف نصل إلى الغاية التي نريدها ونحن نستشعر الضعف والهزيمة والخوف، يقول إدريس هاني:

((من يحاور من؟! نحن مهزومون حتى النخاع، مجزؤون، منهكون ـ هم أقوياء.. القوي لا يحاور الضعيف.. القوي لا ينزل.. علينا أن نصعد.. كل هذا رهين بتفعيل الموقف السياسي. إن بؤسنا الحضاري يعود في النهاية إلى غياب الإرادة السياسية..)) (٤٧).

طبعاً لن نصل إلى شيء طالما الفعل سياسي، السياسة مرتبطة بمنطق القوة، والحضارة ليس بالضرورة أن تخضع لهذا المنطق دائماً، إن لها منطقها الداخلي. بالتالي طالما أننا نستشعر عبثية الحوار في الواقع الراهن، لماذا نسعى إليه؟

الفعل الحضاري عالمي الانتماء، والإنسان المتحضر مهما كان تاريخ ميلاده ومكان إقامته وإلى أي شعب انتمى فهو المعبر عن الانتماء إلى الكل، إلى العالم، يقول سقراط: ((أنا مواطن من العالم)) ويقول الشاعر السوري القديم ميلاغر:((لا تظنوني غريباً عنكم..... كلنا أبناء وطن واحد هو العالم))(٤٨).

هوامش الفصل الأول

١ - د. ادوارد سعيد، صدام الجهالات، نشر على الانترنت بتاريخ ٢٠٠٢/٨/٢٤

٢ - د. عبد الرحيم الكريمي، صراع أم حوار بين الحضارات..... النهج /٣٢/ سنة /١٩/ شتاء ٢٠٠٣ ص١٢٤

سابق ص١٣٣

٤ - د. عبد الرحيم الكريمي، المرجع السابق ص١٢٤

٥ - أماريتاسين، علم الأخذ والعطاء، ضمن ملف: وقت إعادة التفكير بكل شيء، الثقافة العالمية العدد/١١٨/ السنة /٢٢/ مايو - يونيو /٢٢٠٣ ص٧٧.

٦ - د. نجوة قصاب حسن، وزيرة الثقافة السورية، الترجمة أداة الثقافة والتفاعل الحضاري، افتتاح العدد /٤٧٣/ من مجلة المعرفة السورية السنة /٤١/ شباط/٢٠٠٣.

٧ - ادريس هاني، حوار الحضارات، مرجع سابق، ص١٠

٨ - د. حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق ص٤٩٥

٩ - المرجع السابق، ص٥٤٧

١٠ - كارل ربوبر، أسطورة الإطار - في دفاع عن العلم والعقلانية، تحرير : مارك أنوترنو، ترجمة: أ د. يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، عدد ابريل/مايو/٢٠٠٢ رقم /٢٩٢/ ص١٥٩-١٦٠

١١ - المرجع السابق ص٤٨٨

١٢ - صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، مرجع سابق، ص٣٨

١٣ - المرجع السابق ص٤٨٨

١٤ - المرجع السابق ص٩٤

١٥ - روجه غارودي، حوار الحضارات، مرجع سابق ص١٧

١٦ - المرجع السابق ص٩٧

١٧ - المرجع السابق ص١٠٤

١٨ - المرجع السابق ص١٠٦

١٩ - عبد السلام الشدادي، مقال بعنوان: أوربا غير أوربا، منشور في كتاب: لقاء الرباط مع جاك ديريدا ((لغات تفكيكات في الثقافة العربية))، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر ط١/١٩٩٨/ ص٥١

٢٠ - المرجع السابق ص٥٢

٢١ - المرجع السابق ص١٠ — ١١

٢٢ - د.حسن حنفي، المرجع السابق ص٨٦.

٢٣ - المرجع السابق ص١٠٠

٢٤ - المرجع السابق ص١٠٠

٢٥ - نقلاً عن: د.أمين اسبر، الحوار والحضارة العربية الإسلامية، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١ /٢٠٠٣/ ص٩٥

٢٦ - المرجع السابق ص٩٥

٢٧ - المرجع السابق ص١٨٦

٢٨ - راجع حوارات قصي صالح الدوريش مع راشد الغنوشي، لندن /١٩٩٢ ص٢٤

٢٩ - روجه غارودي، حوار الحضارات، المرجع السابق، ص٩

٣٠ - د.أمين اسبر، الحوار والحضارة العربية الإسلامية، مرجع سابق ص٣٠٩

٣١ - د.ماهر الشريف، رهانات النهضة في الفكر العربي، دار المدى للثقافة والنشر، ط١ /٢٠٠٠/ ص٣٥

٣٢ - منير العكش، مرجع سابق.

٣٤ - المرجع السابق ص٢١٢

٣٥ - المرجع السابق ص١٩١

٣٦ - المرجع السابق ص٢١٥

٣٧ - جلبير الأشقر، المرجع السابق ص٢١٧

٣٨ - د.كريم أبو حلاوه، هل أصبح العالم مؤهلاً لحوار الحضارات، المعرفة، عدد /٤٧٣/ص٥٨.

٣٩ - د. علي نوح، العالم المعاصر في حوار أم صراع حضارات؟ المعرفة، العدد - /٤٧٧/ مرجع سابق ص٩٣.

٤٠ - المرجع السابق ص٩٤.

٤١ - د. أمين اسبر، مرجع سابق ص٢٤٥

٤٢ - المرجع السابق ص٢٦٢

٦٣ - المرجع السابق ص٢٨٢

٤٤ - د.علي نوح، المرجع السابق.

٤٥ - ادريس هاني، مرجع سابق ص١٠٩.

٤٦ - د.أمين اسبر، المرجع السابق ص٧

٤٧ - ادريس هاني، مرجع سابق، ص١٧٢

٤٨ - نقلاً عن د.أمين اسبر، المرجع السابق ص٥٥



في السياسة والاقتصاد

لكي يبدو دفاعنا عن مقولة الحوار بين الحضارات متماسكاً، كان لا بد من إثبات وتأكيد أن الصدامات التي شهدها العالم قديماً وفي العصر الحديث تقودها وتوجهها مصالح القوى المنخرطة في هذه الصدامات أو القوى الصادمة على الأقل، باعتبار أن المصدومة ربما تكون في حالة دفاع عن النفس. ولا بد من الإشارة ثانية أن هذا الكلام لكي يحافظ على معقوليته لا بد أن يقر بالنسبية في الأحكام.

ولكي يكون البحث أكثر مصداقية، فإنه يحتاج إلى تأصيل الرأي في قنوات الحياة، وجوانب النشاط الإنساني، بحيث يكون الكلام مقنعاً بالأدلة التاريخية والواقعية.

إن البحث التاريخي والواقعي يقدم مصداقية الحوار بين المجموعات البشرية، الصانعة للحضارات، بالتالي هو ينفي أن تكون علاقة الصدام - مع وجودها - علاقة صحيحة ومفروضة ووحيدة بين أية مجموعتين أو كتلتين حضاريتين.

إن علاقة الحوار هي الأساس سابقاً وحاضراً ومستقبلاً، وحصول الصدام هو نتاج احتكاك أو حوار يظهر أن هناك تنافساً على مصلحة، أو أطماعاً ظهر أنها يمكن أن تقود إلى فوائد لطرف يستشعر قوة، وأن لا سبيل إلى تحقيقها بغير المصادمة. وربما يكون الصدام لإرهاب العالم وإقناعه أن لا جدوى من مقاومة القوى العظمى، وعليه أن يسلم ، كما نرى في أفعال الولايات المتحدة في عصرنا.

إن العلاقة بين المجتمعات الكونية تتجذر على كافة المستويات وفي كافة الحقول كما بينا، حيث أن أي منتج حضاري - بالمعنى الواسع للحضارة - يصعب احتكاره طويلاً، فيجد طريقه إلى الشعوب الأخرى، غير التي أنتجته فيدخل في حراكها بنيوياً وحسب الحقل الذي ينتمي إليه، فإن كان المنتج فكرياً ثقافياً،

أصبح جزءاً من الفكر والثقافة الإنسانية حيث يثبت جدارته، وإن كان ينتمي إلى حقل المادة، فالملاحظ أن المنتجات المادية، تنتقل بين الشعوب في كافة أنحاء المعمورة. إذن، فالحوار هو أصل العلاقة بين الحضارات وليس الصدام، حتى وإن بدا قدراً لا فكاك منه أحياناً لتضارب المصالح.

وباعتبار أن السياسة حقل يدخل فيه غيره من حقول، وأن الاقتصاد لا يفارق السياسة بحيث يقع في صلبها، ربما بشكل أكثر حميمية، فإننا نبدأ بحقل السياسة والاقتصاد، ودور الحوار في هذا الحقل.

السياسة في حياة الشعوب:

تأخذ السياسة على عاتقها مسؤولية صناعة الروابط والعلاقات بين الأمم والشعوب في كافة المجالات، فهي علم وفن إدارة العلاقات البشرية بين الكتل والأفراد. ولم تتأخر الشعوب كثيراً عن بعضها في نقل تجارب السلطة، فما إن وجدت سلطة ما عند شعب ما، حتى انتقلت عدوى هذه التجربة إلى غيره من الشعوب، فتلونت بلون حاجاته وظروفه، لكن يبقى المشترك العام، الذي نقلته الشعوب عن بعضها هو الإقرار بوجود السلطة وبالخضوع لها.

وقد أخذت السلط تمسك بقنوات الحياة العامة بالتدريج، حتى أصبحت تتحكم بتوجيه حياة الناس مادياً ومعنوياً، وتنوعت علاقات هذه السلط بشعوبها بين الشدة واللين، بين الديمقراطية والدكتاتورية، كما تنوعت علاقاتها مع الشعوب الأخرى.

ولقد ثبت أن الشعوب تتأثر ببعضها وتنسخ تجارب بعضها في المجال السياسي ابتداء بالسلطة القبلية إلى الإمبراطورية قديماً، ومن السلطة المركزية والتوتاليتارية إلى الديمقراطية الليبرالية حديثاً.

كما تأخذ الدول عن بعضها التجارب الجزئية، التي تنظم قطاعاً أو شأناً جزئياً من شؤون الحياة، فقد كان للديمقراطية اليونانية أثره في الدولة الرومانية التي ورثتها، بحيث ظهر في أسلوب اختيار الحكام وقيادات الجيش أو رؤساء الوحدات العسكرية.(١).

وفي بلادنا العربية، كانت الحياة السياسية قبل الإسلام تعاني من فقر شديد، ربما كان ناتجاً عن البداوة كما عن ضعف التواصل مع الشعوب الأخرى على المستوى السياسي، لعدم وجود دولة مركزية تأخذ على عاتقها تطوير الحياة السياسية. لكن ما إن تمكن الإسلام واستقرت دولته حتى برزت الحاجة إلى التجدد، مما دفع إلى الإفادة من تجارب الشعوب.

يتحدث التاريخ عن الحاجة الماسة إلى تنظيم شؤون الدولة، ولم يكن لدى العرب الخبرة الكافية في هذا المجال، فتم الأخذ بمشورة من أشار على الخليفة عمر أن ينظم الدواوين التي تأخذ على عاتقها ضبط الأعمال الإدارية للدولة كالمالية والبريد والجند، كما عهدها الفرس أيام دولتهم الإمبراطورية التي تم الإطلاع على نظمها، وقد أخذ عمر بهذا الاقتراح، مما يظهر أن الإسلام الذي استطاع أن يقوض دولة الفرس ويقلب أوضاعهم رأساً على عقب لشدة التأثيرات الإسلامية على شؤون حياتهم، لم ينج من التأثر بما لدى هؤلاء فكانت آثارهم في علوم الإدارة وفنون وآداب الحياة ذات أثر كبير كما تتحدث عن ذلك مصادرة تاريخ المرحلة.

إن هذا الشاهد الذي يبرز تأثر العرب بالحضارة الفارسية، منذ أيام الرسول في قضية حفر الخندق حول المدينة دفاعاً عنها، أخذاً بمشورة سلمان الفارسي، مروراً بتدوين الدواوين، وأبهة الملك الفارسي والروماني كما بدت في دار الإمارة بدمشق أيام ولاية معاوية عليها ثم في أيام خلافته، وفي آداب الحياة السياسية العباسية، يعتبر شاهداً واضحاً على حوار جرى بين حضارتين. وإذا كان الفرس قد تأثروا بالإسلام باعتباره الدين الجديد ودين المتغلبين وبالعرب شأن المغلوب بالغالب، فإن أثر الفرس على العرب الغالبين كان واضحاً جلياً، بنتيجة حوار حضارتين.

الاقتصاد يدشن الحوار:

كان اهتمام الإنسان بملء معدته الفارغة سابقاً على اهتمامه بشكل الحكم الذي يخضع له أو بطبيعة الإله الذي يعبده، وقد جاءت هذه في مراحل تالية من سعيه لتأمين حياته، حيث كانت الأهمية الأولى للحفاظ على هذه الحياة.

ولقد أظهر اختلاف الإنسان عن بقية المخلوقات تنوع اهتماماته بالتالي تنوع حاجاته مما لم يكن قادراً على تأمينه بمفرده، وقد بدت حاجته إلى آخرين يساعدونه في تأمين ما يريد وما يحتاج مبكرة، وهذا ما وضع قواعد لتبادل الحاجات وللتنوع في إنتاجها، مما نشأ عنه الأسس الاقتصادية الأولى، التي كانت نشاطاً فردياً أولاً، ثم أصبحت شأناً عاماً من مهمات أنظمة الحكم ومؤسساته، بعد أن زاد تعداد البشر وتعقدت شؤون حياتهم وزادت حاجاتهم، حيث أصبح للإنتاج والتبادل هيئات ترعاها على مستوى الأقطار كما على المستوى الدولي.

وقد كان الإنسان يوغل بعيداً في البحث عن حاجاته، ويبتكر لذلك الأساليب ويعممها، فقد استخدم قدراته على حمل الأحمال ثم استخدم الدواب، ثم اخترع العجلات التي تجرها الدواب، كما اخترع السفن التي تنقله بعيداً أو تجتاز به العوائق المائية بحثاً عن حاجات لا تنتهي.

لقد تم الحديث عن آثار للفينيقيين وسفنهم وجدت على السواحل البريطانية، وقد كانت مستعمراتهم ومحطاتهم التجارية قد توزعت على أطراف المتوسط، مما يدل على اتساع النشاط التجاري لهذا الشعب وتواصله مع غيره من الشعوب، مما يستلزم حواراً يعرف من خلاله كل طرف الطرف الآخر بشكل جيد، ويتم التعرف على أهم ما يوفره كل طرف للآخر.

ومن الآثار القديمة المعروفة على المستوى الاقتصادي، تلك المحطات على شواطئ المتوسط، التي سميت موانئ أو مرافئ، تنقل البضائع منها وإليها، كالإسكندرية و صيدا وبيروت وقرطاج وروما والمرافئ اليونانية وغيرها، وهذه كانت مراكز يلتقي فيها أبناء الحضارات فيتحاورون وينقلون أخبار بعضهم وتجارب بعضهم، وحاجات ونواقص بعضهم مثلما ينقلون أخبار البضائع المتوفرة لديهم.

ومعروف ما للتجارة من دور في تحسين الحوار وترقيق الحواشي وتهذيب الخطاب، يقول تيري إيجلتون: ((فإن التهذيب يسير مع التجارة جنباً إلى جنب، ذلك أن التجارة هي ما يحطم الغلظة الريفية، ويقحم البشر في علاقة معقدة، وبذا يصقل ما لديهم من نتوءات حادة وحواف قاطعة)) (٢).

إن تحقيق شخصية الجنتلمان الإنكليزي تقتضي الانخراط في تجارب تجاريه تساهم في تهذيب السلوك واكتساب الكياسة، وهذا يؤسس لحوار أكثر فاعلية.

ومن الإشارات إلى دور الاقتصاد في تلاقي الحضارات وحوارها، الحديث عما كان يسمى بـ (طريق الحرير) الذي يربط بين الصين وأوربا، شاملاً لمعظم أجزاء المعمورة أيامذاك، وقد كانت تنقل عبره البضائع ومنتجات الشعوب المادية، كما تنقل الخبرات والابتكارات والفنون والآداب بين الشعوب التي كانت ترتبط بهذه الطريق وتجد بضائعها الطريق إلى العالم ـ تصديراً أو استيراداً ـ من خلالها. فقد نقل العالم عن الصين صناعة الورق والبارود وتربية دودة الحرير عبر العلاقة بهذه الطريق، وأي حوار بين الحضارات أبلغ من هذا؟!

ينقل د.أمين اسبر عن الياباني طوشيودوكو: ((إن اليابان ... كانت المستفيد الأكبر من الحضارة العربية منذ عهد الإمبراطورية العربية القديمة التي ازدهرت في ديار الإسلام)) ويقر أن نتاج الحضارة العربية الإسلامية انتقل إلى اليابان خلال طريق الحرير إضافة إلى طرق أخرى(٣).

وفي المشرق العربي يحدثنا القرآن الكريم عن رحلة الشتاء والصيف وعن ((إيلاف قريش))حيث كانت قريش (القبيلة التاجرة)، ترتب علاقاتها مع القبائل والشعوب الأخرى بحيث تتأمن تجارتها التي هي مصدر معاشها، فكانت تعقد اتفاقات حماية القوافل ومرافقتها وتقديم الخدمات لها مقابل خدمات أو جعل ما. وكانت هذه الاتفاقات شمالاً باتجاه بلاد الشام فبلاد الروم حيث كانت تجد التجارة نهايتها، وجنوباً أيضاً باتجاه اليمن وصولاً على ما كان يأتي من بلاد الهند من تجارة، مع كل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تحصل، إضافة إلى تعرف كل شعب على ثقافة الشعوب الأخرى من خلال منتجاتها والتعاطي مع تجارتها.

هذه العلاقات الاقتصادية الأولى، ربطت الشعوب والأمم ببعضها، وعرفتها على بعضها، وضعت الأواصر والعلاقات، وهذه هي التي سمحت بأن يهاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة، وقد عمل على زيادة الروابط والعلاقات الاقتصادية بعد أن أصبحت

الإمبراطورية الإسلامية أبرز مراكز المعمورة في كل المجالات حيث أدى تشعب الحياة وتشابكها وتعقيدها إلى تشعب وتشابك وتعقيد شؤونها الاقتصادية.

صدامات العالم القديم تصنع الحوار:

كانت الحضارات تنقل إلى بعضها خبراتها التي حصلتها، وكان يتم التعرف إلى هذه من خلال العلاقات التجارية، أو الاحتكاكات العسكرية، فكانت الخبرة المتحصلة تتعمم وتصبح ملكاً للبشرية وإرثاً تاريخياً يتم نقله والحفاظ عليه، ولم يكن ينسخ إلا بعد أن يتم ابتكار الأفضل.

وإذا كان النشاط الاقتصادي، يؤمن شكلاً من أشكال الحوار بين الحضارات والشعوب، فإن الحوارات لم تكن حكراً على العلاقات الاقتصادية، بل لقد استطاعت الحضارات أن تبتكر أشكال الحوار وتستغل الظروف له، من خلال نقيضه وهو الصدام. فكثيرة هي الصدامات التي تمخضت عن علاقات حضارية امتدت وقدمت الخير والفائدة لمجموع البشر، وبرهنت أن الإنسان لا يقف عاجزاً عن التواصل والحوار مع الإنسان الآخر في أحلك الظروف.

من الشواهد الأكثر بروزاً على ذلك كما أشرنا، غزو الاسكندر المقدوني للشرق واجتياحه لشعوب وحضارات، وقد انتهى الصدام وانتهت المعارك الحربية بموت الاسكندر، لكن ثقافة وحضارة قامت بالتلاقح بين اليونان الغازين وثقافة المنطقة، فبرزت مراكز حضارية كالإسكندرية وإنطاكية، كانت أنشط مراكز الفكر والثقافة والحضارة في العالم آنذاك، وكانت الهلنستية ثمرة من ثمار صدام الحضارات، يقول علي محمد اسبر: ((بعد سيطرة جيوش الاسكندر المقدوني على بلاد الشرق في القرن الرابع قبل الميلاد، حدث تمازج بين الحضارة الهلينية والحضارة الشرقية أدى إلى ظهور فلسفة تجمع بين ما هو شرقي وما هو يوناني وقد اعتاد المؤرخون أن يطلقوا على هذه الفلسفة اسم الفلسفة الهلنستية التي تبدأ مع الأبيقورية وتنتهي مع الافلاطونية المحدثة)) (٤).

وقد قدمت هذه الفلسفة مجموعة من كبار الفلاسفة من سوريين ومصريين من بينهم

زينـون الرواقــي ٣٣٦ - ٢٦٤ق.م، سـوري انتقـل مـن قـبرس إلى أثينـا مفضـلاً الفلسفة على التجارة.

نومونيوس، سوري من القرن الثالث الميلادي.

ساكاس ١٧٥ -٢٥٠ مصري ولد في الإسكندرية.

أفلوطين الفيلسوف الشهير ٢٠٥ - ٢٧٠ مصري الجنسية.

فور فور يوس ٢٣٣ – ٣٠٥ سوري الجنسية.

بامبليخوس ٢٧٠ - ٣٢٠ سوري أيضاً(٥).

هــذه الثقافــة الهِلّنسـتية، عــم نشــاطها المنطقــة وأبقــت آثارهــا كمكتبــة الاسكندرية التي دمرت قديماً. (والآن أعيد إحياؤها على أحدث الطرز).

ثم لا ننس العلاقـة الـتي كانـت بـين مصـر والحضـارة الرومانيـة والـتي لا يـزال العـالم يـذكرهـا مـن خـلال حكايـة أنطونيـو وكليوبـاترة، الـتي لا تـزال تلهـب خيـال الشعراء والسينمائيين وغيرهم.

وعلاقة روما لم تكن مع مصر فقط بل كانت مع بـلاد الشـام، ولا تـزال الآثـار المتبقيـة كشـواهد علـى هـذه الحقبـة، تـدل علـى حالـة التمـازج الحضـاري واسـتقرار الرومان لفترات سمحت لهم بنـاء كـل هـذه القـلاع والحصـون والمـدن في بلادنـا، وإذا كان صلب السيد المسيح دليلاً على فعلهم السلبي فإن آثار بعلبك وبصرى وتـدمر وشهبا ومواقع كثيرة غيرها، شـواهد علـى المستوى الحضـاري الـذي عاشـته المنطقـة في ظلـهم قبـل أن يـتم طـردهم مـن قبـل الدولـة الإسـلامية الناهضـة، وهـذه الشـواهد الحضـارية دليـل علـى تفاعـل الحضـارة الرومانيـة مـع حضـارة أبنـاء المنطقـة، وإلا لمـا كانوا قد استطاعوا ترك هذه الشواهد الشـامخة.

قبل ذلك كـان نبوخـذ نصـر هـو القـائد الثـاني مـن قـادة حضـارة مـا بـين النهـرين يقود جيشاً لغزو فلسطين، حيث تم سبي بني إسرائيل للمرة الثانية إلى بابل عام ٥٢٧ ق.م ولا ننس أن التوراة كتبت هنـاك في بابـل علـى يـد أحبـار اليهـود، وآثـار ثقافـة مـا بـين النهـرين واضـحة فيهــا، كقصــة الطوفــان، والتشــابه بــين حكايــة ســرجون الأكادي وحكاية الطفل موسى. وهي من أدلة الحوار الذي يتوج صداماً مدمراً بين كتلتين حضاريتين.

واللافت في هذه الحوارات، أنها كانت تجري على جوانب الفعل السياسي العسكري، دون تخطيط أو تدخل القادة السياسيين الذين (ربما) لم يكونوا يخططون لها أو يقصدونها، مما يشير إلى أن الحضارات قادرة على ابتكار حوارها بعيداً عن السلط والأوامرية.

الأكثر بروزاً في هذا المجال هو الفتوح الإسلامية، وما نتج عنها لاحقاً من علاقات بلغت مستوى أفقياً وشاقولياً، حداً لا تمحوه الأيام أو إرادات الساسة. هذه الحروب كانت غزواً وصدماً عسكرياً، لا تخفى حقيقته مهما حاولنا تمويهها بالمبادئ وبحب نشر العقيدة الإسلامية الجديدة (٦).

وقد فتحت البلدان ليس للدين الجديد فقط، بل لتبادل القيم الحضارية والثقافية بين الشعوب. وهي لم تكن بعيدة عن الكثير من السلبيات التي ترافق مثل هذه الفعاليات العسكرية، يقول إدريس هاني: ((وأنا هنا أعترف بأن ما وقع في التاريخ العربي والإسلامي هو ما كان وراء هذه الصورة النمطية التي لا يزال يحملها الغرب عنا. لا ننسى أن حركة الفتوح كانت في آخرها فتوح خراج.. لا أكاد أبرئ ما سمي بالفتح الأموي أو العباسي أو التركي... ولا أميز إرادة الغزو الأموية - وإن تلبست بالشعار الإسلامي عن فتوحات ((كاليغولا)) أو ((نبوخذنصر)) .. لنكن صرحاء ... تلك هي الحقائق المؤسسة للصورة النمطية للإسلام في الغرب)) (٧).

ومن أمثلة الأثر الحضاري للفتوح دخول اللغة العربية إلى البلدان المفتوحة باعتبارها لغة القرآن والعبادة، ودخلت الكلمات العربية إلى لغات الشعوب بنسب تقترب من أربعين في المائة حسب بعض التقديرات، في بعض اللغات، كما أصبحت بعض هذه اللغات تكتب بالخط العربي كالأوردية والفارسية والتركية، وإذا كانت تركيا قد حولت كتابتها إلى الخط اللاتيني تمشياً مع سياسة أتاتورك، فإنها غير قادرة على إزالة تأثير العربية من وسطها اللغوي، واستقراء أسماء الأشخاص يدل على مستوى التأثر بالثقافة العربية.

إن احتكاكات كثيرة سلبية وإيجابية نشأت بين الحضارات والشعوب المنضوية تحت راية الإسلام، نتج عنها حراك اجتماعي وثقافي كالشعوبية التي سنمر عليها، وكانتقال آداب الحياة العامة في الطعام واللباس والعلاقات

الاجتماعية إلى الثقافة العربية والمجتمع العربي من الفارسية ومن غيرها، وكالتأثر بالآداب السلطانية في الحيز السياسي حيث عمل المفكرون العرب على نقل هذه الآداب لصالح الحكام، وأصبح الفكر السياسي الفارسي والهلنستي من المرجعيات التي لم يكن يوجد لها شبيه في العربية(٨).

لا ننس أيضاً، أن الأخلاق السياسية العربية قد تأثرت بالفارسية واليونانية ابتداء بعهد أزدشير كما تم نقله منذ ترجمة ابن المقفع له ولكثير من الآداب عن الفارسية مثل كليلة ودمنة، أو كتاباته مثل رسالة الصحابة والأدب الصغير والأدب الكبير. وقد كان لهذه الترجمات والكتابات أثر بعيد على الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية العربية، خاصة في تأصيل مفهوم الطاعة الفارسي، وعلاقة الدين بالسلطان كما رسمت في عهد أزدشير(٩).

ومن الآثار التي تدل على دور الثقافة والحضارة اليونانية في الثقافة العربية، كتاب ((العهود اليونانية)) لأحمد بن يوسف بن ابراهيم، الذي يقول عنه د. كمال عبد اللطيف إنه مستخرج من كتاب السياسة لأفلاطون، وغير ذلك كثير مما تأثر به العرب على إثر الاحتكاك الصدامي أو العلمي الحضاري، كالتأثر بكتاب أرسطو عن السياسة (١٠).

لقد استمرت الصدامات بين الشعوب تاريخياً، وكانت تقودها المصالح، لكن هذه الصدامات، كما ضمنت المصالح وصنعت المآسي والدمار، فكذلك أوجدت روابط بين الأمم، وهذه الروابط الحضارية الثقافية بقيت التعويض الحقيقي عن الدمار والخراب وعن العداوات والتناحر، فالغزوات الصليبية بما جلبته من دمار إلى الشرق العربي، انتهت آثارها التدميرية، وبقيت آثار حضارتها في القلاع والحصون التي يلجأ إليها الناس للتعرف على أعمال الغابرين وثقافاتهم وفنونهم، كما ترك المماليك والعثمانيون، آثارهم العمرانية التي تدل على علاقة الحضارات ببعضها، وعلى تركات الشعوب وأساليب عيشها وطرائق تفكيرها.

لا بأس هنا أن نتوقف عند شكل آخر من أشكال الصدام، وأراء مثقف ليس بالغفل يتحدث عن توليد الحوار من الصدام أو تضمنه له وانبثاقه منه، إنه الفيلسوف كارل ربوبر، يقول: ((ومن المسلم به على نطاق واسع أن حضارتنا التي يمكن أن توصف في أبهى صورها، وإلى حد ما على سبيل الإطراء، بأنها حضارة

عقلانية ـ إنما هي، وإلى أبعد الحدود، نتيجة للحضارة الإغريقية ـ الرومانية. وحتى من قبل الصدامات بين الإغريق والرومان، اكتسبت هذه الحضارة كثيراً من معالمها، من قبيل الحروف الأبجدية، من خلال الصدامات مع الحضارة اليهودية ومن خلال الصدامات الراجعة إلى موجات الغزو الجرماني والإسلامي)) (١١).

ويتابع بوبر: ((ودعنا نلق نظرة عابرة على أصل الفلسفة الإغريقية والعلم الإغريقي. بدأت جميعها في المستعمرات الإغريقية: في آسيا الصغرى، وفي جنوب إيطاليا، وفي صقلية. فهذه الأماكن التي حدثت فيها المجابهة بين المستعمرين الإغريق وحضارات الشرق العظيمة، والصدام معها ـ ومنذ أولى التقارير عن طاليس مؤسس الفلسفة الإغريقية، يتضح بجلاء تأثير الصدام الثقافي على الفلسفة الإغريقية))(١٢).

إن التراث اليوناني والروماني هو أكثر ما يعتز الغرب به، ويعتبره أساساً لنهضته كما مر، أليس جميلاً من أجل حوار الحضارات أن يقر هذا الغرب أن هذا التراث شراكة إنسانية وأن الاحتكاك مع الشرق كان في أساس وجوده؟ القضية تحتاج إلى قناعات جديدة، وتغير في العقلية المتمركزة حول الذات والسائدة في الغرب، ولا يكفي كلام فيلسوف كبير مثل بوبر، على أهميته.

ليست الفسلفة الإغريقية هي التي تولدت نتيجة الاحتكاك مع الآخر، بل والعلم والمناهج العقلانية هي أيضاً وليدة هذا الاحتكاك الذي كان صدما في كثير من الأحيان. يقول بوبر: ((لقد لعب الصدام الثقافي دوراً مهماً في نشأة العلم الإغريقي - نشأة الرياضيات والفلك - ويمكن تعيين الطريقة التي جعلت بعض الصدامات الشتى ذات قطوف دانية... ويبدو من مصادرنا أن ابتداع العقلانية كان معاصراً لبعض من تلك الصدامات)) (١٣).

تترافق العقلانية مع الاتجاه النقدي الذي يعتز الغربيون به، ولكن بوبر يرى أن هذا الاتجاه: ((لقي حتفه في الغرب حين انقضت المسيحية المنتصرة والمتعصبة على المدارس في آثينا، وإن كان قد بقي حياً نابضاً في المشرق العربي، كان مفقوداً متشحاً بالسواد طوال العصور الوسطى. وفي عصر النهضة لم يبتدع مجدداً بقدر ما أعيد استجلابه من الشرق، هذا بمعية اكتشاف الفلسفة الإغريقية والعلم

الإغريقي)) (١٤). ويتابع: ((كان يصعب أن يحدث ابتداع المنهج النقدي من دون تأثير الصدام الثقافي)) (١٥).

إن أولى خطوات الانفراج التي تساهم في تخفيف أجواء التوتر بين الثقافات يجب أن تبدأ بمثل هذه الروح، أي بإحياء المنهج النقدي الذي يتحدث عنه بوبر باعتباره ميراث شرقي مثلما هو ميراث يوناني، وتفعيله في الحياة.

لقد نتج عن حالات الصدام بكل أنواعه ما لا تستطيع الأيام أن تمحوه، من حالات التناقض والحوار دون اجتماعات ومؤتمرات، ودون إرادوية سياسية.

عوامل تنشيط الحوار:

لا شك أنه ليس كل الاحتكاكات بين كتل بشرية حضارية سواء أكانت سلمية أم صدامية عنيفة، قد تولد عنها حوار حضاري فاعل، كل احتكاك أياً كان شكله يتضمن حوراً، لكن الحوار قد لا يرقى إلى مستوى رفيع يترك آثاره على المجموعات البشرية، أو بالأحرى قد يكون الأثر سلبياً، قد يكون تدميراً أو قتلاً وتشريداً، مما يفقده القدرة على التأثير الإيجابي المستقبلي، فيخرج من مفهوم التحضر الذي هو نزوع دائم نحو التقدم والعقلانية والتعايش المطمئن، وقد يكون الأثر الإيجابي المتروك ضعيفاً تجاه الأثر السلبي (وهو الأكثر). إذاً، يجب أن نفهم الحوار في نسبيته وظروفه ونتائجه، تحفظاً من أن يكون التعميم مقتلة للرأي أو الفكرة.

هناك صدامات لا تخضع لمقاييس التأثير الخلدونية مثلاً، حيث القوي يترك أثره على الضعيف والغالب على المغلوب. لكن أي شيء في حضارة المغول مقارنة بالحضارة العربية، يمكن أن تتركه الأولى (الغالبة) على الثانية (المغلوبة) بنتيجة الصدام. لقد قدموا إلى العراق والشام فحطموا مظاهر الحضارة حيث حلوا، وانصبت قيمهم الحضارية المتمثلة بالنار والقتل والتدمير على المظاهر الثقافية الحضارية، تغذيها أحقاد الغازين البربرية. مثل هذا الاحتكاك الصدامي غير قادر -كما ثبت- أن يولد سوى التراجع والضعف.

يبدو أن مرحلة التراجع الحضاري في الشرق كانت مرحلة انتقالية باتجاه الأدنى، والمرحلة ذاتها في الغرب كانت انتقالية باتجاه الاعلى، أي ضعف وانهيار لحضارة الشرق مقابل صعود في حضارة الغرب. (نذكر هنا برأي د.حسن حنفي) والحضارة الصاعدة لا تكون حضارة مبشرة إذا لم تأتِ بجديد يضاف إلى ما قدمته سابقاتها، وهو ما بشرت به الحضارة الأوربية الصاعدة.

لقد كان لصعود الطبقة البرجوازية ونشاطها التجاري في المرحلة المركنتيلية، وانتشار الأساطيل الأوربية في موانئ العالم، والكشوف الجغرافية التي وسعت آفاق البشرية، وأضافت إلى اليابسة المسكونة مساحات وشعوباً وحضارات وقدرات اقتصادية، لم يكن العالم القديم يعرفها، كل ذلك أضيف إلى العوامل المساعدة على إيجاد حوار أوسع بين الحضارات المعروفة أو التي ستبرز.

أضيف إلى ما تقدم الإصلاح الديني في أوربا، الذي أضاف إلى مناخات الحوار عوامل إضافية، تمثلت في اختراق الثوابت، والطرق على المصمت من العقل الإيماني المتكون تاريخياً، مما جعل الثوابت تهتز، والجرأة تزداد والإحساس أنه ليست القضايا التي صورت على أنها قدر محتوم، هي قدر فعلاً لا يمكن الفكاك منه، أولا يمكن تغييره.

ثم إن النهوض الاقتصادي أتاح للعلم مناخاً جديداً، أثبت فيه فاعليته، حيث أصبح يرفد الحياة بالجديد بشكل مستمر. هذه الأشياء الجديدة تقدم إمكانات للتواصل بين الناس، وأصبح هذا الجديد يسير حسب متوالية متسارعة لا تعرف التوقف إلى يومنا هذا .

لقد كان لظهور المطبعة مثلاً كبير أثر في انتشار الفكر والثقافة وتجارب الشعوب وهذه لم ينحصر تأثيرها في البلدان التي ظهرت فيها فسرعان ما عم انتشارها كل الشعوب والحضارات. وإذا كانت المطبعة قد تركت هذا الأثر الواسع، فكذلك البخار واستخدام قوته في المواصلات مما جعل الناس اسهل تواصلاً، وقد كان ذلك مبشراً بما وصلت إليه البشرية اليوم من قدرة على الاتصال والاحتكاك.

القضايا المتقدمة ساهمت في إيجاد مناخ لتطور الاقتصاد، فأصبحت التجارة والتعرف على ما لدى الشعوب من المنتجات تستجيب لحب الاستطلاع والمعرفة ولتبادل المنافع والخبرات، وكل ذلك يدخل في باب حوار الحضارات.

التمدد الاستعماري

تمخضت هذه المرحلة عن أكبر صدمة عرفها تاريخ الشعوب والحضارات، وهي التمدد الغربي باتجاه شعوب العالم مستغلاً وناهباً ومخضعاً.. إلخ، وهي ما عرفت بمرحلة الاستعمار التي لا نزال تحت مفاعيلها السلبية.

لا يجوز أن ندخل هذا في باب مؤامرات الغرب علينا، وإلا كان من واجبنا وصف التمدد الحضاري العربي الإسلامي أيام الإمبراطورية الإسلامية الصاعدة بأنه تمدد تآمري، لأنهما من جنس واحد حضارياً. إنه فعل تلقائي للحضارة الأقوى، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً، قائلين إنه ينتظم تحت ما يسمى ملء الفراغ الحضاري، على مبدأ الأواني المستطرقة، لا بد للفراغ أن يُملأ، سواء في الطبيعة أو المجتمع، وعندما تكون حضارة ما في حالة ضعف وقصور، وتجاورها حضارة في حالة قوة ونشاط، فالأمر الذي تدعمه تجارب التاريخ السابقة، أن تغطى هذا القصور قوة واندفاع الحضارة القوية الصاعدة، لكن بالتأكيد لن تكون الحالة متجذرة وأصيلة، بل قد لا تشمل سوى السطح والمظاهر.

لقد تمدد الغرب حضارياً وكانت كل قنواته مستنفرة لتقوم بهذه المهمة، فالانتولوجيون الأوائل كانوا جنوداً ومبشرين(١٦). كما أن رجال الدين المسيحي في الغرب أضافوا جهودهم إلى جهود الجنود والتجار والرأسماليين والساسة في سبيل التمدد الحضاري الغربي، يذكر ادوارد سعيد أن مجتمع فيينا الكنسي المنعقد عام ١٣١٢ قرر تأسيس عدد من كراسي الأستاذية للعربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات العالم المسيحي كباريس وأكسفورد وبولونيا... إلخ، وكان حماس رجال الدين المسيحي من الآباء اليسوعيين (الجزويت) وغيرهم كبيراً لفتح أبواب الدراسة للصين(١٧).

لقد كان للتمدد الاستعماري أثر كبير وواضح على حوار الحضارات حيث أن هذا التمدد أتاح المجال لحوار بين حضارة الغزاة وحضارة الشعوب المستعمرة، وبالطبع لم يكن هذا الحوار متكافئاً ولا مصنفاً في صالح الشعوب الفقيرة أو في الحوار الإيجابي، لكنه بدون شك أسهم في تعرف الشعوب على ثقافات بعضها أكثر، وكان للاحتكاك أثره الإيجابي في دفع الشعوب للنهوض، كما جرى عندما احتك العرب في أوائل القرن التاسع عشر، لكن قوة وطغيان الحضارة الغربية وكونها حضارة المتغلب، ساهمت عن سوء نية أو عن غيره بطمس وتغييب عناصر ثقافية وحضارية لدى الشعوب رغبة في استبدال السائد بما يساعد الغرب الغازي على تحقيق مآربه.

لقد كانت تجارب استعمارية كبرى كاستعمار بريطانيا للهند أو استعمارها لجنوب أفريقيا أمثلة واضحة في محاولة طمس حضارات الشعوب واستبدال قيمها، لكن يبدو أن الكثير من القيم الأصيلة تكون عصية على التبدل. ولقد ساهمت فرنسا في تغيير المعالم الثقافية والفكرية لبعض مناطق الوطن العربي كما جرى في الجزائر والمغرب يورد د.محمد عابد الجابري حكاية عن القائد الفرنسي للقوات في المغرب أنه طلب المسؤول عن التعليم بعد أن قمع الثورات المناهضة للفرنسيين في الريف المغربي وقال له، لقد أخضعنا لكم الأبدان وقضينا على مقاومة الشعب فعليكم إخضاع العقول عن طريق التعليم، وهذا ما عملت عليه فرنسا مما لا تزال آثاره واضحة(١٨).

إن الآثار السلبية الكبيرة التي تركتها المرحلة الاستعمارية على الشعوب المستعمرة، لا تطمس ما ساهمت به من حوارات بين الحضارات المختلفة في ظروف تتسم بالقهر والغلبة، ولا شك أنه كان من الأفضل لو أن هذه الحوارات قامت في مناخ من الندية.

مظاهر سياسية واقتصادية لحوار الحضارات:

لقد تنوعت المظاهر السياسية وأشكال أنظمة الحكم تنوعاً كبيراً في إطار العصر الواحد أو بين العصور، ولقد امتدت السلطة من العائلة إلى العشيرة إلى

القبيلة إلى الشعب وصولاً إلى الدولة الإمبراطورية، وكانت السلطات تقتبس تجارب الآخرين أو بعض هذه التجارب لتطوير نفسها ومواقفها وزيادة فاعليتها.

وفي تراثنا العربي ما يقدم دليلاً على حوار واضح فاعل مع أشكال ومظاهر السلطات السابقة لدى الشعوب الأخرى، ولقد قام كل من عبد الحميد الكاتب وابن المقفع في مرحلة مبكرة من تاريخ الدولة العربية الإسلامية بتعريف الحكام والمسؤولين والشعب على ما اطلعوا عليه وعرفوه من أنظمة الحكم لدى الفرس وتجاربهم في هذا المجال، ولا يزال عهد ازدشير ورسالة الصحابة يتردد ذكرهما في حقل الأدب السياسي، كما كان للآراء السياسية عند أفلاطون وأرسطو من خلال كتبهما المترجمة، دور آخر في تمكين العقل العربي أن يكون لديه آدابه السلطانية التي كتب فيها الكثير من العرب والمسلمين متأثرين بتجارب الفرس واليونان والرومان وغيرهم، وكانت بعض مظاهر التأثر تبدو في سلوك الخلفاء والقادة، المنضوين تحت راية الإسلام في هذا المجال.

وإذا كانت الخلافة نظاماً عربياً إسلامياً، فإن الساحة السياسة شهدت أشكالاً أخرى للحكم كالملك والإمارة والسلطنة وغيرها، وبعضها لم تعرفه الساحة العربية سابقاً، وكان هذا من التماذج والحوار مع حضارات أخرى.

وبعد عصر النهضة تنوعت وازدهرت مظاهر التأثر والتأثير ودخلت كل مجالات الحياة بشكل أوسع، فاستيقاظ بعض الشعوب على ما وصلت إليه أوربا من تطور علمي وتقدم تقني أثار فيها فضول اللحاق بها أو تقليدها، وكانت هناك تجربتان بارزتان للحوار مع الحضارة الغربية، هما تجربة محمد علي في مصر والتجربة اليابانية.

أما التجربة اليابانية فقد استطاعت أن تحاكي التطور الأوربي بفاعلية، وأن ينتهي الحوار بين العقل الياباني وظروف اليابان وبين الحضارة الغربية في جانبها العلمي والتقني إلى أن تحوز اليابان على ما طمحت إليه وأصبحت قادرة على مسايرة الغرب بل ومنافسته، أما التجربة العربية، فقد جند لها طاقات وجهود ودفع محمد على بكل ثقله وجهده لترسيخ الأسس العملية للنهضة، وكان طريقه إلى ذلك الحصول على علم الغرب وتقنياته، ومحاولة تبيئتها، إلا أن التجربة أجهضت بفعل عوامل ليس هنا مكان إيرادها.

لكن هذه التجربة وإن كانت قد أجهضت إلا أنها فتحت الباب على محاولات عديدة واتصالات لم تنقطع، للتواصل مع الحضارة الغربية فكراً وعملاً، ولكن هذا الحوار غلب عليه الطابع الاستهلاكي أكثر مما غلب عليه طابع التفعيل والتبيئة كما حدث في اليابان مما أبقى تجاربنا العملية مجهضة.

ومن مظاهر الانفتاح على الغرب والحوار معه ومع ثقافته، دعوة أبرز أعلام النهضة العربية والإسلامية من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهم، لا إلى تقليد الغرب في صنائعه وعلمه فقط، بل إلى تحطيم السد بين الإسلام والفلسفة (الأفغاني) والانفتاح على عالمية الفكر الإنساني (عبده) (١٩). ومعروف أن كلا الرجلين ينتمي إلى الحقل الديني، مما يعطي لدعواتهما بعداً أكبر.

وقد كان من نتائج اتصال العرب بالغرب عن طريق البعثات وأشهر رموزها مثل: رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وخير الدين التونسي والشدياق وكثير غيرهم، هو الذي دفع أفكاراً في السياسة وغيرها إلى الواجهة مثل: إلزامية التعليم، تحرير المرأة، الفصل بين السلطات تبني الحكومات الدستورية، الحرية الشخصية والسياسية(الديمقراطية)، المواطنة، المساواة، العلم الحديث... وغيرها(٢٠).

الفكر السياسي الغربي وتجاربه يخترقان الحدود:

بلغت سطوة التجارب السياسية الغربية والفكر الناظم لها، أن تكون كونية الانتشار وأن تلغي تلك الأشكال المحلية التي ابتكرتها شعوب أخرى انطلاقاً من واقعها وظروف حياتها، حتى أصبحت تجارب الشعوب الخاصة مما ينتمي إلى عالم التراث والفلكلور لأن قوة البدائل الغربية جعلتها تبدو هزيلة وكاريكاتورية، فلم تعد شعوب أفريقيا وآسيا أو الشعوب الإسلامية، تتجرأ أو تفكر في أن تنتمي إلى حيزها التاريخي أو تحيي تجاربها السابقة، أو تطور شكلاً جديداً يلائم ظروفها، وما لم يفرض عن طريق الاحتكاك والتقليد والاقتباس. ويبدو أن الدور قد جاء لفرضه بالقوة كما يحدث في العراق، علماً أن تجربة هذا البلد لا تنتمي إلى التراث.

لقد بدأت الشعوب ترى أن النجاح الذي حققه الغرب هو سفنية النجاة، وباعتبار أن من يريد دخول العصر فطريقه يمر عبر الحياة في الغرب وتقليده واقتباس أفكاره بالإضافة إلى أن القوى الاستعمارية التي سيطرت على بلداننا لم تخرج إلا وتركت ورائها أشكالاً من السلطات تشبه في شكلها أو هيكليتها بعض النماذج الغربية.

لقد وصلت إلى حد انقسم فيه العالم إلى عالمين أو معسكرين، وكلاهما غربي الفكر والنموذج. فقد كانت استمرارية البرجوازية ومدرستها السياسية التي تلتزم الليبرالية الديمقراطية هو النموذج الغربي الذي تطور عن مرحلة الإقطاع مع تطور ونمو المجتمعات الغربية على يد برجوازيتها، وقد وجد من يقلده في كل مناطق العالم، بل أصبح الدخول إلى العصر يعني الدخول في الفضاء السياسي الليبرالي، أي فضاء الغرب مما دفع مفكراً كشارل مالك إلى الدعوة للدخول في حذاء الغرب.

وإذا كان حوار العالم على اختلاف شعوبه مع الحضارة الغربية هو الذي عمم تجربة الديمقراطية الليبرالية في مناحي كثيرة من العالم، فإن تمرداً غربياً على هذه التجربة، دفع الكثير من الشعوب إلى تقليده، أي إنه شكل حالة ثانية مع شعوب العالم دفعتها إلى استلهام تجربة غربية جديدة نابعة عن فكر غربي جديد.

لقد كانت الماركسية كفكر وجد طريقه إلى التطبيق العملي، فقامت دول في الغرب على استلهام هذا الفكر المتمرد على قيم الاستغلال والظلم، ابتداء بقيام الاتحاد السوفييتي، مما دفع القوى التي تستشعر الظلم والاستغلال، سواء من القوى الداخلية في بلدانها أو من قوى استعمارية خارجية إلى التفكير بأن الخلاص قادم على يد الفكر الجديد وأسلوب الحكم والإدارة الجديدة. ولا ننسى ما أدت إليه المواجهة من حرب باردة، كان الحوار فيها مجهداً للبشرية حتى في قلب الولايات المتحدة، بعدما وضعت المكارثية الكثير من فعالياتها في قفص الاتهام.

لقد انتشر الفكر وأسلوب الإدارة المنطلق من محاكاة ما جرى في الاتحاد السوفييتي، في كثير من دول العالم على امتداد قاراته، ولا تزال بعض هذه التجارب تثبت جدارتها على البقاء والاستمرار. وهذه التجارب هي في الفكر والممارسة غربية المنشأ، بعيدة أحياناً عن البيئات التي طبقت فيها، وكان ذلك

ناتجاً عن حوار مع تجارب سياسية وفكر سياسي جديد وواعد، غربي الطابع، عالمي الانتشار كسابقته الديمقراطية الليبرالية.

يبدو أن الحوار لم ينته وأن في جعبة الغرب الكثير مما يعممه، ولدى الشعوب القدرة على الاستماع والتلقي والقدرة على التقليد، كل ذلك أو أكثره نتاج الحوارات التي لم تعد تجد حدوداً وموانع بين الحضارات وتجارب الشعوب.

هذا ما دفع فوكوياما إلى اعتبار الديمقراطية الليبرالية نهاية التاريخ، والغاية التي ليست بعدها غاية لشعوب العالم أجمع إذا أرادت أن تكون حية وفاعلة فيما سيأتي من الزمن. ويبدو أن الفكرة نجحت في الانتشار والتسويق، وهناك تسابق محموم بين المفكرين والشعوب والحكومات في التغني بفضائل الديمقراطية الغربية والمواطنة والمجتمع المدني والفصل بين السلطات إلى آخر هذه المصفوفة.

أليست هذه مؤشرات على الحوار بين الحضارات؟ وهي حوارات تتفرج عن غالب ومغلوب، ويبدو أن المغلوب كل ما هو محلي أو ينتمي إلى البيئات التقليدية وإلى التراث والقيم القديمة، وأن الغالب هو ما ينتمي إلى حيز القوة والجبروت وتكنولوجيا الدمار، ومن لم يفهم الدرس جيداً فطائرات الشبح وصواريخ توما هوك تستطع إفهامه، في أكبر انحراف عن منطق الحوار وأخلاقياته وقيمه.

باستمرار كنا نود أن نتخلص من هذه الطريقة في تنصيب الحكام، وهي ممتدة في تاريخنا من يوم قال قائل: خليفة المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية، وإن مات فهذا وأشار إلى يزيد ومن أبى فهذا وأمسك بقبضة سيفه، لكن بجهدنا لا بدبابات الغزاة. لكن يبدو أن قدرنا أن نواجه، إما الطغاة المستبدين، أوجحافل الاحتلال.

العولمة والحوار المفتوح:

كانت الحوارات الساخنة والباردة ممتدة على مدى التاريخ، وهي وإن مرت بمراحل من الضعف لم تنقطع أو تتوقف، لكنها لم تصل، أو لم تكن قادرة على أن تصل إلى هذا المستوى الذي وصلته اليوم، بفعل التقنيات الحديثة، والسيطرة على الفضاء الكوني وتسخيره في عملية الاتصال، وهذا التسخير أو عملية الاتصال هذه لا تخص الاقتصاد أو الفكر أو السياسية فقط، إنها تخص كل جوانب الحياة

البشرية، مما يؤدي إلى تواصل وحوار بين الناس إلى أي حضارة انتموا، فالطباخون في كل بلد من بلدان العالم يحضرون الأطباق على شاشات الفضائيات، ومصمموا الأزياء يقدمون مبتكراتهم على هذه الشاشات، وأرباب الفكر يطرحون أفكارهم ويتحاورن عليها أيضاً، وأراباب الصناعات يبهرون أعين المشاهدين كل ثانية بما أنتجته مصانعهم من الطائرة والصاروخ حتى نكاشة الأسنان ودبابيس الورق، ومظاهر الشخصيات الرسمية، وأشكال تعاطيهم مع شؤون الحياة لا تختلف بين بلد وآخر، والمرأة تسخر لها أكفأ المهارات ورؤوس الأموال والمعدات التي تجعلها تبدو كل ساعة بلون، مطلية بكل وأخبث ما ابتكرته البشرية من دهانات، ومحملة بأعقد الإكسسوارات والشخاليل، لا فرق بين غربية وشرقية، في أفريقيا أو أمريكا اللاتينية!

وما لم توصله الفضائيات يصلنا عبر الانترنت وغيرها من الأساليب، المهم أن الإنسان لم يعد يغيب عن شيء يجري في العالم إلا تطور القيم الإنسانية الرفيعة. هل نريد أكثر من هذا تواصلاً أو حواراً بين الحضارات؟ كل شيء معمم من أنظمة الحكم حتى الدعايات والنشرات الجوية، وليس هناك من يدعو إلى خلاف ما يدعو له الآخر، لم تعد هناك نغمتان، لقد توصلت البشرية إلى توحيد نغماتها وتخلصت من النشاز. كل ذلك بفضل العولمة وشركاتها متعدية الجنسية. لكن لنشهد لها أنها كما استطاعت أن تخلق منظمة التجارة العالمية، وأن تضع في خدمتها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وأن تخلق أوسع حوارات بين أرباب المال لاستغلال البشر، فإنها خلقت تجمعات مناهضة لذلك، تتواجد حيث تتواجد تجمعات النهب العالمي، وأصبح الرد على ملتقى دافوس بملتقى بورتو الليجري في جنوب البرازيل. أي أن رأس المال الذي أوجد منابره التي يتحاور فيها الرأسماليون من كل الحضارات والشعوب، فكذلك النضال من أجل الإنسان أوجد منابره التي يتحاور فيها أبناء الحضارات للحفاظ على هذه الحضارات، عبر آلاف المنظمات غير الحكومية التي تقود النضال ضد استغلال العولمة. عصر العولمة لا يتكلم فيه الإنسان، بل تتكلم التقنيات ورأس المال فتصنع العالم على مقاسها. أصبحت السمعة الحسنة أو السيئة للحكومات والشعوب والجماعات وحتى الأفراد. تصنَّع من قبل دوائر معينة،

فيتأبلس البعض، ويتم تجميل صور البعض بطرق مفبركة. يقول بيتر فان هام:((أيا منا هذه يقوم كل من الأفراد والمؤسسات والمدن والأقاليم والدول والقارات على حد سواء بتسويق أنفسهم باحتراف وبطرق تقنية مغامرة في كثير من الأحيان.

وبالفعل، أصبح اكتساب سمعة سيئة أو الافتقار إلى أي سمعة تذكر يشكلان عائقاً خطيراً أمام سعي الدول المنافسة على الساحة الدولية. فالدولة التي تفتقد إلى الميسم Brand تجد صعوبة في اكتساب الاهتمام السياسي والاقتصادي))(٢١).

ويتابع فان هام: ((وبهذا أصبح الانطباع والسمعة عاملين أساسيين في الوزن الاستراتجي للدولة. وكما هو حال المنتجات ذات العلامة التجارية، تعتمد الدولة ذات العلامة التجارية على الثقة وإشباع المستهلك وأصبحنا نتكلم عن شخصية الدولة كما ندرس المنتجات التي نستهلكها، فنصنفها بأنها ((ودودة)) (أي لها توجه غربي) و((موثوقة)) ((أي حليفة))، و((عدوانية)) (أي توسعيه) و((غير جديرة بالثقة)) أي (شاذة))(٢٢). واضح أن الإشارة توحي بتغير وتبدل أشكال الحوار وفاعليته، بحيث أصبحت ماركة معينة أو علامة تجارية معينة من شأنها أن تترك انطباعاً وتشيع مناخاً لا تشيعه أفكار المفكرين وأقلام الكتاب وحوارات الساسة.

والواضح أيضاً أن القيم والسعي لتكريسها، والقدرة أو التوجه إلى مساعدة البشرية وإنقاذها في حالات الشدة، وإضافة كل ما هو جميل إلى حياة الناس وتراثهم وخبراتهم لم تعد هي الأسس التي تنهض عليها سمعة الحضارات، كما أن الفلسفات والعلوم والفنون بكل أنواعها قد اختفت عن الساحة لتظهر العلامة التجارية أو القدرة على تسويق المنتجات وإثبات الفعالية التجارية الفذة كمقوم أساسي لشخصية دولة / أمة وتحديد مكانتها، ويتابع فان هام: ((هذا التفضيل للمظهر على الجوهر أصبح يلعب دوراً أكبر في صياغة التضاريس السياسية الأوربية، ويفرض تأثيره حتى على مستوى حلف الناتو والاتحاد الأوربي. وعلى الرغم من أن هذا مقلق بلا شك للمفكرين المحافظين، فهو في الواقع تطور إيجابي، لأن طبع الدول بطابع العلامات التجارية أخذ يحل محل القومية))(٢٣).

وزيادة في التأكيد على الأسس التي تعتمد في العصر الحاضر لبناء السمعة واستجلاب الإطراء والوصف بالتحضر، أي لإيجاد مكانة بين الأمم المتقدمة كبديل للقيم والأسس التقليدية، يقول فان هام: ((في العصر الدنيوي الحالي، أصبحت العلاقة التجارية طرازاً من البديل للإيمان، ويذهب بيتر بورك - المستشار الإداري البريطاني - إلى حد القول إن شعار شركة نايكي يمثل تماماً ما كان الإيمان والروحانية يمثلانه للأجيال الماضية في الحواري الفقيرة - سبيلاً للهروب من مشاق الحياة.))(٢٤). وتؤيد د. نجاح كاظم ما ذهب إليه فان هام من تأثير العلامة التجارية، تأكيداً على دور الاقتصاد والتبادل التجاري والسلعي في صنع العلاقات بين الشعوب، بحيث أصبحت العالمية لها طرقها وأساليبها التي تطغى على الثقافة وتفرض نفسها عليها دون تخطيط أو استئذان، تقول كاظم : ((والأهم أن الإبداع والاختراع مرتبطان أكثر مع العولمة وامتزاج اختصاصات عدة وذات علاقة بالجانب التجاري ومتطلبات السوق، الأمر الذي أدى إلى بروز أهمية الماركة المسجلة (Brand) أكثر من أي فترة سبقت. وحسب إحصاء الفاينشال تايمز فإن الفلاحين على معرفة بالعلامة التجارية لكوكا كولا أكثر من رئيس الولايات المتحدة، وكذا الأمر في الماركات المسجلة لكومبيوتر مايكروسوفت أو أجهزة سوني لمعظم الطبقات الوسطى في بلدان العالم النامي))(٢٥).

لا شك أن الكلام السابق لا ينسجم مع آراء هنتنجتون الذي يقول: ((إن الصلة بين الثقافة والإقليمية واضحة جداً فيما يتعلق بالتكامل الاقتصادي))(٢٦). وليس التفنيد السابق هو الذي يرد على هنتنجتون بل يرد عليه الواقع، وخير مثال على الواقع هذا، هو العالم العربي والإسلامي. وهو الذي أشار كما رأينا إلى أن الصراعات لن تكون بين غني وفقير بل بين شعوب تنتمي إلى كيانات ثقافية مختلفة(٢٧).

إن الحروب بين الديمقراطيات ليست بالضرورة حروب صورايخ ومدافع، لذا لا نستطيع الركون إلى قوله: (الدول الديمقراطية بينها أشياء مشتركة مع الدول الديمقراطية الأخرى ومن ثم لا يحارب بعضهم بعضاً) (٢٨). لأن بعض الأشياء المشتركة لا تمنع وجود ما يختلف عليه، من مصالح متناحرة، تصنع الحروب ذات الضرر الأكبر دون أن تشارك فيها الدبابات، إنها حروب الأسواق والاعلام.

المنظمات الدولية والحوار:

إن تشابك المصالح والعلاقات الدولية، التي لم يعد ينفع معها شكل العلاقات الثنائية فقط، لأن حاجات البشرية لضمان أمنها وسلامها، ولتعيش حياة أكثر طمأنينة، تحتاج تنظيم نفسها في أشكال تؤمن التواصل من كافة الجوانب، فكانت هناك المنظمات الثقافية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو العامة، وكل هذه الأشكال التجمعية تحتاج إلى الإطار السياسي، مما جعلها أقرب إلى السياسة، إضافة إلى منظمات تعنى بمشاكل قطاعية كمنظمة التجارة العالمية. يأتي على رأس هذه المنظمات، هيئة الأمم المتحدة التي ورثت عصبة الأمم، وهذه منظمة متشعبة تعمل على تأمين حياة إنسانية أفضل من خلال حوارات الدول والشعوب والحضارات. إذاً، هي هيئة حوارية للحضارات بكل معنى الكلمة تهتم بالثقافة عن طريق اليونسكو، وبالطفولة عن طريق اليونيسيف، وبقطاعات أخرى عن طريق منظمات فرعية متخصصة. وقد ساهمت في أن يتعرف العالم بشكل أفضل على مشاكله أينما وجدت وعلى سبل حلها معتمدة على الإطار السياسي بالتمثيل الدولي فيها. هناك منظمات دولية قطاعية أخرى، كمجموعة الدول الثماني الأكثر تصنيعاً، وكمجموعة السبعة والسبعين، ومجموعة دول عدم الانحياز، وكالوحدة الإفريقية وجامعة الدول العربية، والمؤتمر الإسلامي، ومنظمة دول جنوب شرق آسيا(آسيان). بعض هذه التجمعات والتنظيمات متخصص والبعض عام، كما أن المنظمات الرياضية والفنية تشكل جزءاً من اللوحة. وكل هذه المنظمات تسعى لإيجاد حوارات في مجالها بين الجهات التي تتمثل فيها، وربما خارج هذه الجهات، مما يغني أفق هؤلاء وأفق الحوار ويزيد التعرف على البشرية وهمومها ومشاكلها وقناعاتها وتوجهاتها، ويساهم في صناعة أطر حل بعض هذه المشاكل.

من بين هذه المنظمات تبرز منظمة دول الكومنولث البريطاني والفرانكوفونيه، كمنظمتين تهتمان بإبقاء وتلميع مكانة الدولة الأم (بريطانيا وفرنسا) كامبراطوريتين سابقتين، لغاتهما أكثر اللغات العالمية انتشاراً، وثقافة الغرب تعممت عن طريقهما أولاً. إنهما تبحثان عن مكانة لا تغيب، أو تحافظان

على وجود تغيرت فيه الأقطاب، وللتأكيد على الحضور الفاعل عن طريق تنسيق السياسات على أساس ثقافي لغوي، مما يساهم بتنشيط الحوار بين دول تنتمي إلى حضارات متعددة يجمعها الانضواء تحت علم استعماري واحد مع دولة المركز، التي كانت تحكم هذه البلدان في يوم من الأيام. وتعريفاً بنشاطات هذه المنظمات أكثر، وبيان دورها، نشير إلى أن الفرانكونونية عقدت مؤتمراً في بيروت في العام ٢٠٠١/ تحت شعار ((حوار الحضارات)) وهذه تعد بادرة طيبه ولو إعلامياً، علماً أن المنظمة ذات إطار سياسي تتمثل فيها الأطراف عن طريق الحكومات. لهذه المنظمة هيئات ومؤسسات تابعة لها، تعمل على تطبيق القرارات التي تضعها مؤتمراتها وسياساتها، وتحدد لنفسها أهدافاً جميعها تستبعد الصدام وتسعى لتكريس العمل السلمي الحواري والثقافي كإطار للعلاقة بين الشعوب، وهذه الأهداف:

١ - خدمة السلام. ٢ - خدمة الديمقراطية.

٣ - حقوق الإنسان. ٤ - التعليم حيث تسهم المنظمة في خدمة جميع مراحل التعليم. ٥ - الاقتصاد والتنمية. ٦ - التنوع الثقافي.

وكان أبرز القضايا التي أثيرت في ندوة الفرانكوفونية والعالم العربي(حوار للثقافات) في معهد العالم العربي ٣٠ -٢٠٠٠/٦/٣١ موضوع اللغة الفرنسية في العالم الفرانكوفوني، وكانت المحصلة التي توقفت عندها الندوة، أن الفرانكوفونية تعد نقيضاً لعالم القطب الواحد. وفي ندوات أخرى كان تركيزها على ثقافة السلام وتعزيزها والحوار بين الحضارات. ومع أن الفرانكوفونية كما يرى محمد سيد أحمد في بحث (الفرانكوفونية في لبنان) أريد منها أن تشكل نوعاً من الكومنولث في مواجهة الكومنولث البريطاني أو الروسي، إلا أنها في نظر فرناند برودل تهدف إلى أن تحافظ فرنسا على مركزها بين الدول الكبرى بفضل اللغة الفرنسية(٢٩).ما يهمنا من كل هذه المنظمات والتوقف عندها، هو ماتسهم به من حوارات في موضوعات شتى بين جهات تنتمي إلى حضارات وخصوصيات عدة، تؤطرها السياسة ضمن العلاقات الاستعمارية السابقة ربما. هناك آراء منتشرة خاصة لدى الإسلاميين ترى أن الفارق بين الأمركة والفرنسة أن الأولى تعتمد القوة والسلاح للهيمنة على مقدرات الشعوب، في حين تعتمد الثانية على سلاح الكلمة

والفكرة والثقافة، فهما تختلفان في الأسلوب وتتفقان في الهدف. وهنا يمكن أن نلمح الجانب الصدامي الذي يبغي السيطرة، بالتالي سيكون من العسير التفريق بين الصدام والحوار في لقاء هذه الحضارات، طالما آن الأسلوب المعتمد ليس العنف المادي، إذ كلا الأمرين يتضمن الآخر وينطوي عليه ويرعاه، فتبدو الغاية والوسيلة في حال من الانسجام تكمل إحداهما الأخرى.

هوامش الفصل الثاني

١ - ول. ديورانت، قصة الحضارة، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ترجمة: محمد بدران، مج٣ ج١ ط٢ /١٩٧٢ ص٥٦

٢ - تيري ايجلتون، فكرة الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، دار الحوار للنشر والتوزيع ـ اللاذقية، بدون رقم الطبعة وسنة النشر، ص٣١.

٣ - د. أمين اسبر، الحوار والحضارة العربية الإسلامية، مرجع سابق، ص١٣٢

٤ - علي محمد اسبر، فلسفة العالم الدنيوي، النهج /٣٣/ شتاء /٢٠٠٣ ص٦٣– ٦٤.

٥ ـ المرجع السابق ص٦٥-٦٧

٦ - راجع، خليل عبد الكريم، شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، ثلاثة أجزاء، مرجع ذكر سابقاً،

٧ - ادريس هاني، حوار الحضارات، المركز الثقافي العربي ط١/٢٠٠٢ص١٧١

٨ - د.كمال عبد اللطيف، في تشريح أصول الاستبداد ـ قراءة في نظام الآداب السلطانية، دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت، ط١ /١٩٩٩ ص٥٧.

٩ - راجع، د.محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي ـ دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، في سلسلة: نقد العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١ ـ بيروت آذار /مارس/٢٠٠١

١٠ - د.كمال عبد اللطيف، المرجع السابق.

١١ - كارل ربوبر، اسطورة الإطار، مرجع سابق، ص٦٥

١٢ - المرجع السابق ص٦٥

١٣ - المرجع السابق ص٦٧

١٤ - المرجع السابق ص٧٠

١٥ - المرجع السابق ص٧٠

١٦ - محمد الخطيب، الانتولوجيا، دار علاء الدين، ط١/٢٠٠١ ص٢٦

١٧ - د.ادوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، طبعة عربية ثانية، /١٩٨٤

١٨ - د.محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية، سلسلة الثقافة القومية /٢٥/ قضايا الفكر العربي /١/ مركز دراسات الوحدة العربية ط١ تشرين الثاني /١٩٩٤/ ص١٨٩

١٩ - د.ماهر الشريف، رهانات النهضة في الفكر العربي، دار المدى للثقافة والنشر، ط١ /٢٠٠١ ص١٠٨ - ١١٣

٢٠ - المرجع السابق ص٣٥ وما بعد.

٢١ - بيتر فان هام، صعود الدولة ذات العلامة التجارية - سياسة ما بعد الحداثة للمظهر والسمعة، ترجمة: جعفر جميل أبو ناصر، الثقافة العالمية، السنة /٢٢/ العدد /١١٦/ يناير - فبراير /٢٠٠٣/ص١٠١

٢٢ - المرجع السابق، ص١٠١ — ١٠٢

٢٣ - المرجع السابق ص١٠٢

٢٤ - المرجع السابق ص١٠٢

٢٥ - د.نجاح كاظم، العرب وعصر العولمة - المعلومات : البعد الخامس، المركز الثقافي العربي - ط١ /٢٠٠٢/ ص١٠٨

٢٦ - صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، مرجع سابق، ص٢١٣

٢٧ - المرجع السابق ص٤٦

٢٨ - المرجع السابق ص٥٧

٢٩ - تم الاعتماد على بحث بعنوان ((المنظمة الدولية للفرانكوفونية - من الثقافة إلى السياسة))أعده: علي البلاونة ونشرته جريدة المجد ٢٠٠٢/١٢/١٠

❖❖❖

في الحياة الاجتماعية

كل نشاط إنساني هو نشاط اجتماعي، فلا سياسة ولا اقتصاد خارج المجتمع، كما لا ثقافة أيضاً. ولا فصل بين هذه الأنشطة جميعاً، وبين الأنشطة الاجتماعية، إلا وينطوي على شيء من العسف، إلا أنه ضرورة للدراسة والتوضيح.

من جهة أخرى، يعتبر الحراك الإنساني المجتمعي تلك البوتقة التي تنصهر فيها الخبرات الذاتية أو المكتسبة لمجموعة بشرية ما، والتي ينتج عنها منتجات وبقايا. فالمجتمعات تأخذ ما يلائمها ويناسب سيرورة حياتها، فتبقى عليه وتعمل تلقائياً على تأصيله، وبالمقابل فإن الكثير من القضايا التي تشهدها، قد يدخل عالم النسيان باعتبارها أنشطة لم تتلاءم مع روحية ووجدانية المجتمع، ولم تجد قبولاً فيه، دون أن يعني ذلك أن أفراد هذا المجتمع اجتمعوا وقرروا بعد مباحثات ماذا يأخذون ويبقون، وماذا يرفضون ويطرحون.

المشترك الإنساني:

هناك خصوصيات لكل شعب أو لكل تجمع أنساني، كما أن هناك مشترك بين الشعوب، هذا المشترك الإنساني قد يظهر نتيجة تشابه الظروف التي تعيشها الفئات الاجتماعية، كما قد يظهر التثاقف والتواصل والاحتكاك، ولمعرفة ذلك جيداً لا بد من توفر المعرفة الجيدة بتناقل الخبرات، وقنوات هذا التناقل، أو الظروف الطبيعية والمناخية وغيرها، التي تلجيء الإنسان لسلوك مسلك قد تضغط ظروف مشابهة على آخر في مكان بعيد إلى سلوك مثله.

ففي الأنساق الاسطورية والرمزية من ثقافات الشعوب نلاحظ وجود عناصر مشتركة بين ثقافتين أو عدد من الثقافات أو الحضارات، حتى المتباعدة زمانياً أو مكانياً، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على قدرة البشرية على إيجاد المشترك ورعايته وتطويره بعيداً عن أساليب القسر والإكراه، أو القرارات والأوامرية، إنما من خلال عمليات تثاقف مستمرة، أو نتيجة تشابه في الظروف ومستوى الحياة وتفاصيلها.

من أمثلة ذلك ما يذكره تهامي العبدولي عن عادة يابانية قديمة لا تزال سائدة في بعض الأوساط، وهي عبارة عن طقس يتم أداؤه لتطهير مكان بناء ما قبل الشروع في عملية البناء، ويقوم بالطقس كاهن من الشنتوكي يهدئ الأرواح الانتقامية الثأرية المقيمة تحت التراب، بصلاته لكامي (إله) التراب كي يحمي العمال والبناء والمتساكنين لاحقاً وينجيهم من الشرور، وتقضي العادة بسكب شراب الساكي (شراب الساكي شراب مسكر هو عصير الأرز المخمر) في الأرض المعدة للبناء أو في أساسة، أو يرمون بعض حبات الأرز.

تذكر هذه العادة بمثيلة لها عند العرب، تقضي بالنحر وإراقة دم الضحية على الأساس أو على الأرض يوم الحفر وقبل الشروع في البناء(١). ولا تزال هذه العادة في بعض الأرياف السورية وقد شهدت ممارستها في طفولتي (المؤلف).

ويشير العبدولي إلى أن هذه العادة موجودة عند الهنود في شمال الشيلي، فحين يدعوك الهندي للشرب. يطلب منك بعد أن يصب لك الشراب، أن تسكب بعضه على الأرض لإرضاء آلهة الأرض، كذلك في تايلندا حيث يعتمد أهلها عند تهيئة أرض جديدة للزراعة إلى سكب الشراب المعد من الأرز، لإله الأرض، ومثلها أو قريب منها موجودة عند الإيطاليين الذين يضعون سمكتين متوسطتي الحجم تحت عتبة البيت قبل بنائها، كذلك عند الأكراد الذين يقدمون ذبيحة ويتم تلطيخ جدار المنزل الخارجي بدمها(٢). كل هذا يندرج تحت ما نسميه (العادة الجامعة) التي يقول عنها العبدولي: ((إننا إزاء أنساق ثقافية مختلفة، وأمام بيئات مختلفة، وإزاء مجتمعات متمايزة، ولكننا في الوقت نفسه نقف عند عادات متشابهة أو متماثلة رياضياً. نحن إذن، من قلب المختلف نحقق قدراً من المؤتلف. وحتى نقنع أنفسنا بهذا

الممكن الغريب لا بد أن نعي أن ثمة بنية جامعة بين كل الثقافات، جوهرها نموذج أساسي، وذلك النموذج يتناسخ ويطبق في حدود معلومة حسب المجموعات واعتباراً لخصائص الاجتماع))(٣).

وسواء كانت هذه البيئة الجامعة أو العادة، هي من إملاء ظروف كل شعب بشكل مستقل أو كانت اقتباساً وتقليداً، فلا شك أن فيها مستوى معين من الحوار بين الثقافات والحضارات، سواء عبر قواعد ظاهرة وقنوات مشخصة، أو عبر عناصر إنسانية مجتمعية تحيل إلى المشاركة في المشاعر بالتالي في قواعد وتفاصيل الحياة.

وهذا الذي نراه بين مجموعة من الشعوب أو على مستوى المعمورة من المشترك الإنساني، في ظروف السكن وفي الأزياء، وفي أدوات العمل، وفي زراعة وجني المواسم، وفي الطقوس وفي الأطعمة وفي العادات والتقاليد الاجتماعية الأخرى، من المتشابهات، يشكل عناصر اتفاق إنسانية مجتمعية من الخير للبشرية أن تنميها وتعمل على إدامتها، كعناصر حوار كفيلة بالتلاقي أكثر من المؤتمرات والمباحثات المسيّسة، وإن افتقاد تنمية هذا المشترك يمكن أن يوقع البشرية في شرك الصدام.

والسؤال كيف تتم تنمية المشترك الإنساني، وعبر أية قنوات؟

للإجابة نشير إلى قنوات أثبتت دورها الفاعل، في تفاعل الشعوب وحوار حضاراتها.

الهجرة

منذ القديم أثبتت الهجرات دورها الفاعل في تنمية وإخصاب العلاقات بين الشعوب من خلال زيادة معرفتها ببعضها، بالتالي اكتشاف الممكن تطويره ليصبح مشتركاً، وزيادة فاعليته، وإذا كان لها بعض السلبيات التي تسهم في إبقاء مناخات الصدام، أو في إحداث صدامات جزئية، فربما كان هذا رهناً بظروف عدة منها التغيرات التي قد تحدثها هجرة مجموعة من البشر على حياة مجموعة مستقرة مما لا تكون مؤهلة له، ونتائج الاحتكاك تحدث مثل هذه الصدامات،

كما أن حدة بروز العناصر المميزة لكل مجموعة تجعل الاحتكاك يولد التنافر حول ما يمكن أن يكون مجتمعياً، آي للجميع، وكل يرغب بتطبيق مقاساته وقواعده المستمدة من خصوصيته. وقد ثبت صلابة الخصوصية المجتمعية التي قد تحتاج إلى وقت طويل لتزول أو تتحلل، وليس بالضرورة أن تكون قد زالت عندما نتخيل ذلك، بل ربما قد تكون تحولت شكلاً، أو أصبحت كامنة في العمق وتبرز عند ما تواتيها الظروف أو تستدعيها.

إن لتأكيد الخصوصية عند المهاجرين حدين: الأول، هو إنشاء حوار مع هذه الخصوصية البارزة، من قبل خصوصيات أخرى لتفهم كل منهما الأخرى وتتعامل معها، والثاني، الإبقاء على الأبعاد والفواصل بين الكتل الاجتماعية في مجتمع واحد. يظهر البعدان في المثال التاريخي الذي يشير إلى أن روما قد حكمها في أواخر القرن الثاني الميلادي ضابط من شمال أفريقيا اسمه سبتيموس سيفيروس، وكانت زوجته السورية جوليا دومنه من مدينة حمص السورية، وقد عرفت الأسرة التي أسسها سيفيروس بالأسرة السورية، التي أنجبت بعد مؤسسها ثلاثة من الأباطرة الذين حكموا روما، وكانت جوليا دومنه ابنة الكاهن الأعلى لمعبد الشمس في حمص.

وهذا يفسر محاولة باسيان الفتى الامبراطور الذي أراد نشر دينه أي عبادة الإله ((إيلاجابال)). وكانت جوليا دومنه عندما رحلت إلى روما حملت معها ثلة من أقاربها ومنهم أختها ((جوليا ميسا)) التي زوجت ابنتيها ((سهيمة)) و((ممايا)) إلى ضابطين سوريين فأنجبت الأولى الامبراطور ((باسيان)) والثانية الامبراطور ((الكسيان)) ويدعوهن المؤرخ جيبون بالأميرات السوريات.

وقد انتشرت عقيدة الشمس في روما برعاية الأميرة جوليا والأسرة السورية بشكل عام خاصة عندما أصبح باسيان هو الامبراطور بعد مقتل ((كركلا)) ابن جوليا دومنا الذي كان امبراطوراً، لكن زيادة تركيز باسيان على الخصوصية جعلته يهمل الحكم ويقع في مالم يغفره مجتمعه الذي أسقطه(٤).

وللهجرة أنواع، قد تكون مؤثرة في إحداثها لحوار حقيقي، فهناك هجرات قسرية كهجرة الفلسطينيين من ديارهم نتيجة الاحتلال الصهيوني، أو هجرات

الأقليات عندما تشتد الأزمات كما حدث في البلقان أو في أفريقيا أثناء الصدامات المسلحة، وهناك هجرات ترافق الجيوش كهجرة العرب المسلمين الذين استقروا في البلاد المفتوحة، وهذه الهجرة أخصبت وأحدثت حوارات لا تزال آثارها باقية في التراث العربي الإسلامي كما ذكرنا.

كما أن هناك هجرات يقودها الأمل بالتخلص من الفقر أو في سبيل حياة أفضل كالهجرة إلى الأمريكيتين وإلى أستراليا. فقد هاجر من الغرب إلى العالم بين عامي ١٨٢١ ـ ١٩٢٤ م أكثر من /٥٥/ مليون أوربي عبر البحار منهم /٣٤/ إلى الولايات المتحدة (٥).

ويشكل المسلمون نتيجة الهجرة جالية كبيرة في الدول الأوربية ففي فرنسا أكثر من أربعة ملايين مسلم، والإسلام هو الديانة الثانية فيها، وهؤلاء لهم مؤسساتهم ومدارسهم وثقافتهم .... إلخ مما يؤسس لحوار حقيقي مع باقي فئات المجتمع الفرنسي، ولا شك أن هذا الحوار مهما تعسر سيحيل إلى حوار حضاري فاعل. (وكمثال على صدام الحضارات وحوارها ما يدور الآن من جدال حاد حول حجاب المسلمات في المدارس الفرنسية)

وقد بلغ أثر الهجرة على أوربا وأمريكا أن انقسمت مجتمعات هذه البلدان بين مؤيد للهجرة ومعارض لها، وتزداد نسبتهم للتخوف من انقسام المجتمع وتغير طبيعته.

ومن بين الهجرات ذات الأثر الباقي والمتألق هجرة العرب إلى الأمريكيتين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وقد صنعت هذه الهجرة أدباً جميلاً ستبقى آثاره على الأيام، وكان الأدباء كما بقية المهاجرين رسل حضارة الشرق إلى الغرب: وسنترك لأحد أساطين هذه الهجرة أن يعبر عنها.

يقول الشاعر والأديب جورج صيدح: ((من مآتي الأدب المهجري أنه بعد أن أدى الرسالات التي ذكرناها إلى وطنه وقومه، نقل إلى الغرب ـ بلسان الغرب ـ رسالة الشرق العربي واستطاع ـ على قلة وسائله المادية والمعنوية ـ أن يؤثر في البيئة الأمريكية الغنية بوسائلها، أكثر مما تأثر بها))(٦). ويتابع : ((لقد ألّف أدباء المهجر مئات الأسفار بلغات أجنبية ضمنوها رسالة الشرق الروحية وتاريخ حضارة

الأمة العربية.... كتبوا باللغة الإنكليزية للولايات الشمالية وبالأسبانية لأمريكا اللاتينية وبالبرتغالية لجمهورية البرازيل)) (٧).

لقد كانت الهيئات الثقافية في بلاد المهجر تتسابق لدعوة العرب المهاجرين لإلقاء المحاضرات،ودور النشر تتسابق لطباعة أعمالهم. لقد طبع من كتاب النبي وحده أكثر من مليون نسخة، وترجم إلى أربعة وخمسين لغة وتكرس في مناهج التعليم في المدارس (لا ننس أن كلام جورج صيدح هذا في أواسط الخمسينات من القرن العشرين) كما نافس الريحاني جبران في الأثر الذي أحدثته مؤلفاته بالإنكليزية، كذلك ميخائيل نعيمة الذي كتب بالإنكليزية شعراً ونثراً. وكثيرون غيرهم كحبيب اسطفان ونبيه فارس وجورج خير الله، وقد نقشت الحكومة الأمريكية اسم الدكتور فيليب حتي العالم الأشهر والذي كتب ثلاثة عشر كتاباً بالإنكليزية عن الشرق العربي، على حائط المعرض العالمي في نيويورك بين اثني عشر اسماً لعظماء الرجال الذين أتحفوا الديمقراطية بآثار ذات شأن(٨).

هكذا تتجاور الحضارات وهكذا تؤثر وتتأثر، والغريب أن الأرض التي انصهرت فيها حضارات عدة لتشكل حضارتها بعد حوار طويل بينها، هي ذاتها الأرض التي تشهد انطلاق الحديث عن صدام الحضارات خدمة لمصالح من تربوا على حوارها، وكانو نتاج هذا الحوار.

التنظيمات المشتركة:

تتمتع المرحلة التاريخية الحديثة والمعاصرة من تاريخ البشرية بسمة هامة، هي سمة التنظيم أو التكتل، ذلك لأن المعترضات من القضايا والمشكلات العامة تحتاج إلى تضافر الجهود لإيجاد حلول لها، باعتبار أن آثارها أو حجم خطرها أكبر من أن يواجهه الفرد.

لقد تنبهت الشعوب إلى أن مشاكل أوطانها تحتاج إلى التكتل، فأنشأت تجمعات تعنى بشؤون هذه الأوطان سمتها الأحزاب، وقد أثبتت نجاعتها، من هذا المنطلق كان التفكير في إنشاء تجمعات تواجه حالات معينة على مستويات تتجاوز الدول المفردة، وهذه التجمعات تنسق جهود المتخصصين أو المهتمين بشأن ما.

لقد أشرنا سابقاً إلى أن الأمم المتحدة قد أنشأت منظمات متخصصة سواء بالثقافة أو الصحة أو الزراعة أو غير ذلك. وأهمية هذه المنظمات سواء على مستوى الأمم المتحدة أو التجمعات الأخرى بالنسبة لحوار الحضارات، هو توحيد النظرة إلى القضايا والحلول والجهود المبذولة عالمياً، هذا من جهة، من جهة ثانية يجري التعرف على المشترك والمختلف بين الدول والشعوب، وهذا بحد ذاته حوار بين هذه الشعوب مهما اختلفت رؤاها الثقافية.

إن الاتحادات العالمية لبعض القطاعات الشعبية كالاتحادات النسائية العالمية أو القارية وكذلك اتحادات العمال أو الأدباء أو أية قطاعات أخرى هي مثال على هذه التجمعات التي تصنع الحوارات المشتركة، فتبرز المشترك من النجاحات والاخفاقات والآمال والسلبيات، من هنا يبرز دور هذه التجمعات كقوى حضارية متحاورة ومتفاعلة.

أيضاً هناك حالات كوارثية تتعرض لها مناطق معينة في العالم تستدعي جهوداً تتجاوز القطر الواحد أو الدولة الواحدة، وهذه حالات استدعت توحيد جهود الإغاثة والمعونات، فنشأت منظمات كالصليب الأحمر، وأطباء بلا حدود، وصحافيين بلا حدود وغيرها، وقد يقول قائل ما علاقة هذه المنظمات الإنسانية بحوار الحضارات؟ هنا نشير إلى أن كل هذه الجهات والجهود تخلق المناخات لتواصل الناس من كافة الحضارات ولينبذوا التفرقة والتعصب، ولتلتقي جهودهم في سبيل خير البشرية عندما تدعو الحاجة فتثمر الخبرة المتحصلة عن الحوار والمشاركة، كما توحد الرؤية حول المشاكل العالمية المطروحة، وتكرس الشعور حول المسؤولية الجماعية.

من جهة أخرى هناك هموم عالمية المستوى، تحتاج إلى من يواجه نتائجها، وتحتاج إلى المتطوعين المتخصصين الذين يتسمون بشجاعة مواجهة السلطات، كما في حالة الدفاع عن حقوق الإنسان في وجه الانتهاكات التي تحدث لهذه الحقوق، مما دفع إلى وجود منظمات عالمية ترعى ضحايا هذه الانتهاكات في ظل سلط بلدانها، وهؤلاء يتعرضون لكثير من العسف، ومن شأن قضايا حقوق الإنسان أن تخلق حواراً حول مدى إنسانية الإنسان والقضايا التي تواجهها الحرية والنضالات في سبيل دفع الهموم المشتركة.

لقد أثبتت البشرية من خلال اهتمامها بموضوع حقوق الإنسان سواء المدنية والسياسية أو الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية أو حقوق التضامن، الحرص العالمي على توحيد الجهد لجعل حياة الناس في العالم أجمع أكثر أماناً وطمأنينة وأكثر تمسكاً بكرامة الإنسان أياً كان، وهذا يدل على حوار بين المجموعات البشرية للوصول إلى مثل هذا التوافق، كما أن هذا التوافق يعد دليلاً على الحوارات التي تمت بين الحضارات ومجموع التفاهمات التي تجعل من البشرية كلاً متضامناً يطمح لجعل حياة الناس أفضل، بل موحدة الأهداف والقضايا.

وتوصف حقوق الإنسان التي أقرتها الأمم المتحدة لصالح شعوب العالم، أو تلك التي ترعاها منظمات دولية أو قارية أخرى، بأنها ((قواعد آمره)) لا يجوز الاتفاق على خلافها فهي جزء من النظام العام الدولي(٩).

وهذه الحقوق ترعاها البشرية من خلال مؤسساتها ((وأوضحت محكمة العدل الدولية أن هذه الحقوق بمنزلة ((الأسس والركائز الدولية للإنسانية))، وأنها أصبحت التزامات عرفيه وجزءاً من القانون الدولي العالمي المفروض على الكافة))(١٠).

وتبرز قضية تكامل حقوق الإنسان بما لها من أهمية في جمع هذه الحقوق والتأليف بينها نحو مآل ((عالمية حقوق الإنسان المعبرة عن الكرامة الإنسانية))(١١).

إن وجود الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والعهدين الدوليين لحقوق الإنسان (العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، والعهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية) والبرتوكول الخاص باللجنة الدولية لحقوق الإنسان، دليل على وحدة النظرة القانونية تجاه الإنسان بعيداً عن مدى تطبيق أم عدم تطبيق، أو السلبيات الحاصلة في تطبيق هذه المواثيق الدولية، لا بل دلالة على الانسجام الحضاري تجاه هذه القضايا، هذا الانسجام الذي لا يحصل دون الحوار بين الكتل الحضارية.

وينطبق الأمر على اتفاقية حقوق الطفل والاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز، واتفاقية مناهضة التعذيب، واتفاقية مناهضة التمييز ضد المرأة، لتاريخية الحراك من أجل حياة بشرية أفضل، وهي لا تصح نسبتها لشعب واحد من شعوب البشرية، كما لا يجوز إخراجها من نسبيتها، بمعنى قبولها أو عدم قبولها

عند كافة الشعوب، ومن ثم التحفظات عليها أو على أجزاء ومواد منها تعبيراً عن الخصوصيات التي لا يحق لأي ميثاق القفز عليها وتجاهلها، ويبدو ذلك في تحفظات افريقية أو آسيوية أو إسلامية أو غير ذلك، على بعض مواد هذه المواثيق، بما لا يلغي عالميتها أو إنسانيتها(١٢).

وينقل عن بطرس غالي الأمين العام للأمم المتحدة، قوله في افتتاح المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان في ١٤/يونيو/١٩٩٣: ((إن حقوق الإنسان هي مشترك بين جميع أعضاء المجتمع الدولي، وهي تشكل اللغة المشتركة للإنسانية)) و((....فالعالمية صفة متأصلة في حقوق الإنسان)) (١٣).

فكيف لا تكون هذه الحقوق موضوعاً للحوار ومناخاً له؟!

من التنظيمات المشتركة أيضاً تلك المتخصصة في حماية البيئة، وكيف تهب لمواجهة الكوارث البيئية أينما حصلت، خاصة تلك التي لا تهتم السلطات الرسمية بها بشكل كافٍ، وتسهم في تنمية الوعي البيئي والتربية البيئية بالحوار مع منظمات منتشرة عبر العالم، من أمثلة هذه المنظمات (الخضر) في أوربا، وقد تحولوا في بعض الدول إلى أحزاب كبيرة تخوض غمار السياسة، ولها نضالاتها، وهي توحد جهودها في سبيل بيئة عالمية نظيفة وتسهم في الحوار حول شروط الحياة البشرية الكريمة في كافة الدول والحضارات.

ومنها أيضاً تلك التي نشأت في الأعوام الأخيرة لمواجهة خطر العولمة وسياساتها للاانسانية وهي تقوم بمواجهة ساخنة تقع فيها الضحايا، خلال مؤتمرات قوى العولمة، كما أن هذه القوى والمنظمات الإنسانية قد قامت بتوحيد جهودها في منتدى يعقد دورياً بالتوازي مع منتدى دافوس لقوى العولمة، وهو منتدى بورتو الليجري، يتم الحوار فيه على متسوى عالمي لتوحيد جهود فقراء العالم في سبيل درء خطر العولمة، بعولمة مضادة.

إن ما تقدم من إشارات إلى الجهود التي تبذل على المستوى الاجتماعي لتوحيد نضالات العالم لدرء أخطار الحضارة الحديثة والكوارث والعسف، هو دليل على أن الحضارات بأبنائها الحقيقيين مستعدة في كل حين للتحاور والتسيق عندما تقتضي الأمور، وأن الإنسان أينما كان، يهب بسرعة لمواجهة ما تتعرض له البشرية متحملاً

المشاق، لملاقاة الإنسان الآخر حضارياً لما فيه خير المجتمع، خاصة عند الأخطار المشتركة، وهذا من أعلى أشكال الحوار بين الحضارات،

مما يشار إليه في هذا المجال، المناخات التي سادت في العالم خلال فترة الإعداد للحرب على العراق من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، (وقد كان ذلك خلال فترة الإعداد لهذا الكتاب). إن الصورة التي نقلتها وسائل الإعلام خاصة الفضائيات التلفزيونية يوم ٢٠٠٣/٢/١٥ حيث تعم المظاهرات مئات المدن في العالم، احتجاجاً على الحرب المتوقعة على العراق (والتي حدثت وكانت كارثة على الحضارة العالمية)، دليل على التفاعل الحضاري بين الشعوب.

هذه المظاهرات والاحتجاجات على مشروع الغزو، ومناهضة فكرة الغزو، كانت رداً على الهنتنجتونية، ذلك أن الجهة التي ستغزى هي العراق المسلم، والعريق في حضارته الإسلامية، كما في غيرها، بينما الغازي هم الانكلوساكسون المسيحيون المغرقون في غربيتهم، هذا الاحتجماج يظهر في قلب المجتمعات الغربية، فالمظاهرات التي قد يسير في الواحدة منها ما يزيد على المليون شخص (مسيحي ومسلم وغير ذلك) في لندن وغلاسكو وكامبيرا وروما ومدريد وغيرها، تحتج على الشيء الأساسي في صدام الحضارات، وهو تحويل المصالح المادية إلى أسباب جوهرية للنزاعات العالمية، فأغلب الشعارات المرفوعة في هذه المظاهرات تشير إلى رفض الحرب من أجل النفط أو رفض تقديم الدماء وإراقتها في سبيل الثروة أو البترول.

من جهة أخرى تبرز هذه المظاهرات أن صدام الحضارات هي فكرة سياسية تناسب السياسيين ذوي الأطماع، وقد وضعت لتبرز تصرفاتهم، والأكيد أن الشعوب ليست منسجمة مع هذه الفكرة بالضرورة بدليل وقوف الشعوب في وجه حكامها الساعين إلى الحرب.

ما تقدم يبرز أهمية المجتمع المدني والمنظمات التي يشكلها أو تنتمي إليه، ويبرز دور سلطات البلدان في ضرورة إفساح المجال لهذه المنظمات في أن تعمل وتقوم بواجبها بحرية، وكيف يتم التعاون والتنسيق بين جهود السلطات وجهود المجتمع المدني، كعلاقة بديلة للضغط والنفي.

وهذه المنظمات أصبحت ضرورة عالمية، حيث تتلاقى جهودها في كل بلدان العالم لإنجاز مافيه خير التكتلات والفئات الاجتماعية دون أن تشكل خطراً إلا على الفساد، وعلى أعداء حرية الشعوب ومثيري الفتن والحروب، وهذا الدور لا تستطيع القيام به منظمات المجتمع الأهلي لضعف امتدادها العالمي، وتمركزها حول أهداف ذاتية جداً.

دور العلم والتكنولوجيا:

منذ الأزمان السحيقة كان للعلم دور بارز في الحوار بين الحضارات، والعلم يقوم على أساس التجربة التي تحول الفكرة إلى تكنولوجيا، فأولى المخترعات البشرية الهامة تم تعميمها بين الشعوب والحضارات، ولم يكن في وسع التطور الذي نراه في عالمنا أن يتجاوز اللبنات البدائية في بناء الحضارة الإنسانية، إذ لا يستطيع كل جيل أو لا تستطيع كل حضارة أن تعود إلى الإنطلاق من درجة الصفر، وإلا ما حصل التراكم بالتالي ما حصل التقدم، ينقل د. أمين إسبر عن أدونيس قوله: ((إذا لم تر في المركبة الفضائية الدولاب السومري فأنت لست حديثاً)) (١٤).

هكذا كانت كل مرحلة في تاريخ البشرية تضيف إلى هذا التراكم ما استطاعت أن تصل إليه، حتى إذا وصلنا إلى عصر النهضة في أوربا تسارعت الاكتشافات العلمية وتسارعت القدرة على تحويل الأفكار العلمية والنظريات إلى تكنولوجيا، والأهم في هذه القواعد الأساسية هو اختراع الطباعة وتعميمها، مما سمح لانتشار الأفكار والمعلومات وكذلك اكتشاف قوة البخار.

لن نبدأ بتعداد ما أوجدته البشرية بدأبها وحرصها على تطوير الحياة، حتى لو لم يكن الهم العام هو الذي يقود الجهود فقط، بل ربما كان هم تطوير الإنسان لنفسه وأسرته أو لبيئته الضيقة، لكن هذا ما لبث أن تعمم وأصبح العالم أو التكنولوجي، يضع في اعتباره كيف سينتشر عالمياً من خلال ما يقدم. إن الشواهد على ما قدمه العلم للبشرية لا تحتاج إلى أي شرح أو بيان، فهي واضحة كما الشمس الساطعة.

لكن لنعرف إلى أين وصلنا، يجب أن نبدأ من الأخير. وما نحن فيه الآن يقدم أكبر الأدلة على الحوار الفاعل بين الحضارات والشعوب.

إن وسائل النقل أصبحت قادرة وخلال أزمنة وجيزة أن تنقل الناس والبضائع عبر القارات المتباعدة، فتكون بذلك ساهمت في إيجاد المناخات الملائمة ليعرف البشر بعضهم بسرعة أكبر وليتلاقوا ويتحادثوا ويتبادلوا الأفكار والبضائع والهموم والأفراح.

لقد أصبح ما يجري في أية بقعة منعزلة في العالم يصل إلى كل بيت في المعمورة لحظة وقوعه، فمحضّر الأطعمة (الشيف) يقوم بعمله على الشاشة، وربة المنزل أو الآخر في طرف المعمورة المقابل، يقوم بتطبيق الخطوات التي يشرحها، ويصنع كل منهما الطبق ذاته، فيأكلان طعاماً واحداً، فيصبح عالمياً ولو أنه ينتمي إلى شعب معين، ويتم ذلك بسرعة لم تكن معهودة. ومصمم الألبسة أو التسريحات أو منتج العطور والأصبغة والاكسسوارات للنساء يقدمها على شاشة التلفزيون، نجد المرأة ترتديها أو تستخدمها في شوارع العالم وخلال زمن قصير، فيزداد ألقها واستعبادها أيضاً. والجيوش تحارب، فينطلق الصاروخ من الطائرة أو القنبلة من المدفع فترافقها الكاميرا ويراها المشاهد كيف تتوجه إلى الهدف، أو إلى المقاتل في الطرف المقابل أو إلى المدني البريء شيخاً كان أو طفلاً أو امرأة، فتقتله، وترينا الكاميرا الدماء والدموع والندب والمقابر الجماعية وأعقد التكنولوجيا في قتل الإنسان في اللحظة ذاتها التي يقع فيها الحدث.

ويقوم الناس بالتعرف على كل ذلك، والحديث عنه فرادى وجماعات، وتقوم المظاهرات تنديداً أو تأييداً، فأي حوار يمكن أن يفوق ذلك؟!

وأود أن أشير هنا إلى أن الحوار، قد يجلب سلاماً وقد يجلب حرباً، قد يغير الواقع وقد لا، لكنه ينقل الأفكار والمنتجات، ويجعل الناس أينما كانوا يعيشون ظروفاً مشابهة، أو يعرفون أموراً واحدة ويصلون إلى معلومات واحدة، فيتعاطى كل منهم انطلاقاً من اهتماماته وتوجهاته وتربيته وبيئته وحاجته.... إلخ.

لقد أصبح الهاتف والفاكس يصلان الإنسان بالإنسان في أية لحظة صوتاً، أو صوتاً وصورة أينما كان المتواصلان أو المتحاوران، وتنتقل الهموم والاهتمامات والتوجهات عبر الحديث، أليس في هذا حوار الحضارات؟

ثم تأتي الانترنت، هذه الشبكة العالمية للاتصال والتواصل، والتي أصبح عقل الكبار سناً لا يكاد يصدق ما تقدمه في حقل التواصل بين الناس في كل أنحاء العالم، حيث تطرح الآراء والأفكار والصور والتحليلات والمخططات والعداوات والقيم الروحية والانتهاكات والرغبات ولكل منهم أن يأخذ البضاعة التي يريد، أو يناقش ما يريد، أو يعرض ما يريد دون حواجز، أليس في هذا حوار للحضارات؟ أم أننا تعودنا أن ما لا يقدمه القادة والسياسيون ليس حواراً؟ لقد تغير العالم ويتغير بسرعة كبيرة.

تعميم نظم الحياة:

كان ولا يزال أهم نتائج الحوار بين الحضارات، اكتشاف الآخر، ليس بجسمه، بل بأفكاره وقيمه وطرائق عيشه، والتعرف إلى جزئيات حياته، وهذا ما يجعل بعض هذه الجزئيات ينتقل من شعب إلى شعب، ومن حضارة إلى حضارة، حتى أن بعضها يعمم الكون بأكمله، كما في نتاجات الحضارة الصناعية الغربية والتكنولوجيا المعممة.

لم تكن الاكتشافات العلمية وتطبيقاتها مهما كانت بسيطة هي التي تنتقل فقط، بل كانت العادات والطبائع تنتقل، وقد تتسالم كما قد تتصارع انتصاراً لمواقف الشعوب. أشير هنا إلى ما سمي في تراثنا بالحركة الشعوبية، حيث وجدت مجتمعات مختلفة العادات والطبائع نفسها تعيش الظروف ذاتها وكل منها يطمح أن يعمم وجهة نظره، فالعرب أصحاب الشوكة والدولة ومادة الدين والسياسة يرون أن حقهم أن يعمموا نظرتهم إلى الحياة وعلى الآخر أن يقبلها، باعتبارها الأفضل، والفرس أصحاب الحضارة والدولة الإمبراطورية المندحرة، يرون أن نصيبهم في سلم الحضارة أرفع، بالتالي على الأقل تحضراً أن يقبل ما هو أفضل، وينتصر كل فريق لوجهة نظره، فيبين عناصر الشرف والعزة والمجد والرقي في قيمه وعاداته، وينفي عن نفسه النقص والعيب، ثم يرزل الطرف الآخر مبيناً قلة فضائله، وتهافت مقولاته، وشحة علاقته بالحضارة الرفيعة والقيم الشريفة، مما دعا كبار علماء وأدباء العصر للكتابة في الموضوع وأبرزهم الجاحظ الذي كتب في الرد على الشعوبية(١٥).

وإذا كانت الشعوبية تعبيراً عن صراع وصدام بين حضارتين احتكتا بعضهما، فإن هذا الاحتكاك كان من خلال معركة حوارية بين حضارتين كان نصيب السيف فيها ضعيفاً، والمتحدث هو العقل والقلب والقلم، مما يعطيها البعد الحواري.

يقودنا هذا إلى جانب حواري آخر هو الأخلاق، فقد تأثر هذا الحقل نتيجة احتكاك الكتل الحضارية ببعضها أكثر من أية منظومة حياتية أخرى، ولا أريد الخوض في ذلك بل أحيل إلى كتاب د. محمد عابد الجابري ((العقل الأخلاقي العربي)) ضمن مشروعه الفكري ((نقد العقل العربي)). ففي هذا الكتاب يتعرف القارئ على حوار حضاري متسع، حيث يرصد الجابري انتقال منظومات القيم الأخلاقية لدى شعوب كالفرس واليونان إلى العرب وحياتهم السياسية والاجتماعية اليومية، وكيف أن مفردات النظم الأخلاقية الفارسية واليونانية كانت عماد المؤلفات في مجال الأخلاق لدى العلماء والمفكرين في الحضارة العربية الإسلامية، على مستوى الثقافة العالمة، وهذا لا يترك مجالاً للشك حول أن حواراً حضارياً كبيراً وفاعلاً قد حدث فسمح لحضارات ناهضة أن تستوعب القيم الأخلاقية لحضارات متوارية، وتدرجها في مسيرة حياتها وفكرها وتصبح منطلقاً لها، والجابري يستعرض أمهات الكتب والمؤلفات العربية في هذا الموضوع ويرد ما فيها إلى أصوله(١٦).

من الشواهد ذات الدلالة في هذا الجانب ما تركته وما تتركه الشعوب على أرض غيرها عندما تحل فيها غازية، أو بأي شكل كان، ففي بلداننا العربية آثار شعوب كثيرة مرت على أرضنا، إضافة إلى الآثار التي تركتها شعوب هذه الأرض والتي تعد من أقدم وأرقى ما قدمته البشرية في أحقاب وجودها.

على أرضنا آثار يونانية شاهدة على مرور اليونان، ومدن كإنطاكية والإسكندرية وأفاميا وغيرها شواهد على الدور اليوناني، كما أن هناك آثار رومانية في طرازها ومرجعيتها، وهي وإن كانت من إنتاج إنسان هذه الأرض إلا أنها تحمل بصمة الثقافة الرومانية كما في بعلبك أو تدمر أو بصرى وغيرها. وهناك آثار للمماليك وللأتراك وغيرهم، وكلها شواهد على حضارات تركت آثارها في أرض

غيرها، وهذه أيضاً صورة من صور الحضارات وتفاعلها، فالآثار العمرانية من شأنها أن تحمل بصمة العقل والذوق والمستوى الحضاري، كما تحمل دلائل على طرائق العيش والحياة اليومية والمعتقدات.

كما ترك العرب بصمات حيث حلوا، ولا يزال قصر الحمراء في غرناطة بالرغم مما لحق به من أذى يشهد على قوة الدور والوجود العربي في الأندلس، والكثير من هذه الآثار أثرت في الشعوب فحاورتها بطريقة حضارية، أي قلدتها، أو قلدت بعض عناصرها.

يقول غارودي: ((إن مسجد (ابن طولون) أعجوبة مثل كاتدرائية (شارتر). وقد يبدو أن بناة (شارتر) استوحوا من مسجد (ابن طولون)، وإن ((دنتيلا)) الأحجار التي تزين الكاتدرائية تنتمي حقاً إلى الفن الإسلامي))(١٧). أليس في هذا دليل على حوار حضاري.

من جهة ثانية تعد العمارة الدينية شاهداً على التمازج الحضاري وقبول الآخر، فارتفاع المآذن على المساجد في كثير من مدن الغرب شاهد ودليل على الحوار وعلى أن زمن الرفض قد تعرفه السياسة لكن لا تعرفه الحياة الأخرى التي تضج بالحركة والمشاعر.

في العصر الحديث تبدو إمكانات وآثار التأثر والتأثير أكبر مما كانت في الماضي بفعل التكنولوجيا الحديثة، وقوة النموذج الحضاري الغربي الذي يتسلح بهذه التكنولوجيا، أداة المعرفة، ومضمونها أحياناً.

إن نظاماً للحياة المدنية العمرانية واحداً يستجيب للنموذج الغربي يكاد يعم مدن العالم وبعض قراه ومراكزه الحضارية، وطرازاً واحداً للباس يكاد ينتشر في أرجاء المعمورة مخلفاً وراءه شيئاً فشيئاً ما كانت الشعوب ترتديه، ونظام التعليم الغربي أيضاً يكاد يعم الكون باعتبار أن العلم المقدم علم غربي الطابع، مما يجعله ينقل وسائله وأساليبه معه.أسلحة القتال وأسلوب خوض المعارك هي أيضاً مما يعم الكون. النظم السياسية والدبلوماسية من تنظيم الحكومات إلى المجالس النيابية التمثيلية إلى المجالس المحلية (البلدية) إلى السفارات والبعثات الدبلوماسية،

كل ذلك يكاد يكون واحداً بفعل التأثير الحضاري، وحوار الحضارات دون النظر إلى قضية الأقوى والأضعف، الملقن والمتلقن بينهما،

أساليب حياة الناس في بيوتهم، وسائل نومهم، وسائل طعامهم، وسائل مواصلاتهم، أدوات القراءة والكتابة، المنظفات المستخدمة..... إلخ، تكاد تكون واحدة أو ذات نظام واحد في أغلب بقاع العالم. ثم نقول إن الغالب على علاقة الحضارات هو الصدام؟ هذا غير معقول.

صحيح أن الغالب على مفردات الحياة وطابعها وأدواتها هو أسلوب الحياة والحضارة الغربية، التي تضج بها كل شوارع العالم وأزقته وأبنيته. وصحيح أن المطاعم الغربية مثلاً، كما كدونالد وكنتاكي وغيرها تنتشر في معظم دول العالم، إذ أن لماكدونالد ما يزيد على خمسة وعشرين ألف مطعم على امتداد العالم، لكننا لا نزال نسمع عن المطعم الصيني مثلاً والإيطالي أو العربي الشرقي وحتى المطعم اللبناني آو السوري، حتى في شوارع الغرب، وصحيح أن الآلات الموسيقية الغربية التي أفسد بعضها الموسيقى والذوق الموسيقى، قد انتشرت في العالم لكننا نعلم أن الموسيقا التي يعتز الغرب بإيجادها وباختراع أدواتها، كموسيقا الجاز أو الروك هي تطوير لموسيقا الشعوب الأفريقية بطبولها وإيقاعها السريع، وبالرقصات المرافقة. وصحيح أن الطب الغربي تقدم لكن لا نزال نسمع عن دور الابر الصينية في شفاء الأمراض العديدة، وأن مصممي الأزياء يطورون ويحورون أزياء شعوب معروفة، كتطوير الساري الهندي أو العباءة العربية وغيرها من الأزياء.

لقد تأثرت الفنون الغربية الحديثة بكثافة بفنون الشعوب المختلفة، كالانتشار الكثيف للقناع الإفريقي في مجالات فنية(١٨). وهو انتصار لحضارة وثقافة، منظور إليها بعين النقص، وتأكيد حضورها في مواقع أعتى الحضارات في العالم، كما أن انتشار رياضة اليوغا الهندية على مستوى واسع في الغرب، وهي رياضة بدنية نفسية روحية، مرتبطة بالبوذية، هو أيضاً دليل تثاقف وحوار بين الحضارات، وتأكيد حضور الحضارات جميعاً على ساحة الوجود.

كل هذا يجعلنا نؤمن أن الحضارة هي المشاركة، وهذه المشاركة العالمية الحضارية لها طريق واحد فاعل هو طريق حوار الحضارات الفاعل والحاضر دائماً، وزيادة تفعيله، وإفساح المجال له ليزداد ويتطور.

الرياضة وحوار الحضارات:

واكبت الرياضة الوجود البشري، وتأثرت بالبيئات، فانطبعت بطابعها، فأصبحت البيئات البحرية هي الأكثر اهتماماً بالألعاب المائية، وفي الصحارى كان ركوب الخيل والجمال وغيرها، وفي مناطق الجبال كانت ألعاب القوى، وفي المناطق المثلجة كان ألعاب التزلج وغيرها، وألعاب الكرات في مناطق العمران الكبرى. ..... إلخ.

لكننا في هذا العصر نشهد كل الشعوب تمارس كل الألعاب، فالألعاب المائية في الصحراء وركوب الخيل في البيئات البحرية... إلخ. وهذا أمر له دلالته، وهذه الدلالة تنسجم مع مقولة حوار الحضارات، فما إن تعرفت الشعوب على رياضات غيرها حتى تأثرت بها ومارستها وأصبحت تزاحم على بطولاتها.

إذن، إننا نجد في تعميم هذا العدد الكبير من الرياضات لدى كل الشعوب في وقت واحد، دليل على ما بين هذه الحضارات من تواصل وتفاعل يؤدي إلى انتقال الأنشطة التي قد لا تعد من القضايا الحياتية الضرورية. وهذا يوحي أن الاختيار لم يكن لضرورة ملزمة، بل كان تأثيراً متأنياً وحراً، يؤدي إلى الانخراط في التجمعات العالمية، حتى لو لم يكن حول القضايا الحياتية الملحة، كي لا يبقى المجتمع خارج إطار هذه التجمعات والتنظيمات التي تأخذ الصفة الدولية.

فكثير من الدول التي تكون واثقة من أنها لن تنال الكؤوس أو الميداليات والمراتب في ألعاب معينة، ومع ذلك تشارك فيها من قبيل التفاعل الإنساني، الذي هو شكل من أشكال الحوار بين الشعوب والحضارات.

إن تعميم الألعاب التي كانت من عوالم شعوب متعددة، وممارسة كل شعب لرياضات غيره من الشعوب، ، جعلت هذه الألعاب عالمية المستوى والانتشار، تنظم لها

المسابقات والدورات العالمية الكبرى، وتنفق عليها النفقات الكبيرة، حتى إذا كانت الشعوب لا تجد ما يسد رمقها فلا بد لها أن تنفق على الرياضة ما تستحقه وتريده كي لا توصف بأنها شعوب غير متحضرة، فعصرنا هذا يصم من لا يهتم بالرياضة بأنه متخلف، ذلك لأن الرياضة، كما تمارس وينفق عليها، وكما تبدو في الإعلام، هي ترف الشعوب الغنية، فمن لم يواكبها فلن يكون منتمياً إلى التحضر، حتى لو لم يكن يعرف من الرياضات إلا اسمها، ولا يمارس أياً منها سوى رياضة الكلام والأخبار.

إن الدورات الرياضية القارية أو العالمية عموماً، هي ميدان هام في عصرنا لحوار الحضارات، لأن لقاءات كثيرة، واحتكاكات بين عناصر من شعوب العالم وحضاراته، تتم خلال هذه الدورات والجهود لتقديمها طازجة للناس أينما وجدوا، مما يجعلها مناسبة لتقديم الشعوب إلى بعضها ويكاد شبابنا يعرف أحدهم عن لاعب كرة قدم وعن بيئته الأمريكية اللاتينية مثلاً، أكثر مما يعرف عن جاره في البيت أو قريبه في العائلة. ومعرفة اللاعبين والنوادي والدورات وظروفها، ما يتم من بطولات، خاصة تلك التي تتعلق بالغرب، هو جزء في التكوين الثقافي لشبابنا.

والرياضة في زماننا تفتح آفاقاً جديدة وكبيرة للإعلام والاقتصاد والأزياء التي يرتديها الناس و التي تحمل الإشارات الدالة على الأنشطة، وعلامات الفرق وقد نشأت شركات عالمية كبرى للأزياء الرياضية، تقدم الألبسة للرياضيين وغيرهم في العالم، ومن يجهلها أو لا يلبس منتجاتها بعيد عن التحضر، كما في شركتي: نايكي وأديداس. وقد ذكرت وسائل الإعلام أن أرباح اليابان من البطولة العالمية لكرة القدم (المونديال) التي جرت مناصفة بينها وبين كوريا الجنوبية /٢٠٠٢/، بلغت /٦.٢٤٠/ مليار دورلار، وإن صافي أرباح كوريا هو /٨،٨/ مليار دورلار، وإن حجم الاستثمار خلاله بلغ /٢٢٠/ مليار دولار، وسيؤمن للصناعة الكورية /٤٤/ ألف وظيفة(١٩).

إن عالمية الحركة الرياضية، اقتضت عالمية قوانينها ونظمها وقواعدها ومواسمها، فهي تجري بإشراف وتنظيم اتحادات عالمية ومحلية، ولها قوانين صارمة في تطبيقها، ولا يساوم عليها، بينما نجد تهاوناً في تطبيق القوانين التي تحفظ السلم العالمي وحياة ومقدرات الشعوب. القوانين الدولية حتى التي ترعاها هيئة الأمم

المتحدة عرضة للانتهاك، لكن قوانين الألعاب الرياضية لا تنتهك. أيضاً في هذا جانب من جوانب الحوار والاتفاق عالمياً على قدسية هذه الأنظمة وضرورة عدم المس بها، وصرامتها لا تعني بلداً دون غيره، ولا لاعباً دون آخر، وإذا كانت طائرات ودبابات معتد ما، يمكنها أن تتجاوز حدود الآخر مئات بل آلاف الكيلومترات، فإن اللاعب الرياضي لا يستطيع أن يتجاوز السنتمترات أو الأجزاء من الثانية. وهذه قواعد عالمية لا يجادل فيها أحد.

هكذا تبدو الرياضة دليلاً على حوار لا ينتهي بين الحضارات.

الحوار والتحرر الاجتماعي:

إن حصول بعض الشعوب على حريتها بطريقة ما، جعل غيرها من الشعوب لا يتوانى عن سلوك الطريق الذي سلكته تلك المتحرره، فكانت العدوى واقتباس الأشكال النضالية نتاج التعرف على أساليب الآخرين وممارساتهم.

على أن هناك فئات اجتماعية نالت حظاً أكبر من غيرها في الدعوة إلى تحررها وتحريرها، لأهميتها الاجتماعية، ولبؤس واقعها وما تعانيه من عسف وتخلف.

أبرز هذه الفئات العمال الذين كانوا يعملون في ظروف قاسية، وتحت وطأة استغلال عنيف من قبل أرباب عملهم الرأسماليين وبأجور زهيدة كي يكون حاصل ربح رب العمل أكبر، وكانت مطالباتهم بحقوقهم تقمع قمعاً عنيفاً. حتى التعبير عن هذه الحقوق لم يكن متاحاً. وعبر مراحل عديدة من النضال حصل العمال في بعض مناطق العالم على بعض الحقوق، كحق الإضراب وتشكيل النقابات المدافعة عنهم والمنظمة لحياتهم.

وقد لعبت الماركسية كفكر، دوراً كبيراً في نقل النضال من أجل حقوق العمال إلى مستوى أرفع، فتم رفع شعارات تعبر عن عالمية النضال العمالي مثل ((ياعمال العالم اتحدوا)) وهو الشعار الشهير الذي يجري نضال الشيوعيين العالميين في ظله، وقد أخافت هذه الشعارات الرأسماليين العالميين، خاصة بعد نجاح الثورة الروسية وظهور الاتحاد السوفييتي الذي أعطى دفعاً عالمياً كبيراً لنضال الطبقة

العاملة، فلم يكن آثر ذلك وقفاً على العمال في المنظومة الاشتراكية، بل سبقهم إلى ذلك الرأسماليون في الغرب، حيث ظهرت دولة الرفاه. فقد أصبح العامل ينال جزءاً لا بأس به مما يستحق من قبل رب عمله، يساعده على حياة فيها بعض ما يحفظ الكرامة الإنسانية، وذلك خوفاً من أن يتأثر هؤلاء العمال بالدعوات الشيوعية في ظل هيمنة الفقر عليهم فتحدث الكوارث على مستغليهم، وهكذا ظهر الأثر الإيجابي لهذا التوجه العالمي، وأصبح عمال العالم جميعاً ينقلون تجاربهم إلى بعض ويطالبون بحقوقهم، وينظمون صفوفهم، والفضل في ذلك للحوار بين الحضارات الذي يعمم المقولات والآراء والتنظيمات والأفكار، فكيف إذا وجدت منظمات عالمية ترعاها الشيوعية الدولية، همها الأساسي تعريف عمال العالم بحقوقهم وحشد طاقاتهم في ظل الأحزاب الاشتراكية العالمية، في سبيل هذه الحقوق، وبيان وحدة الطبقة العاملة على مستوى العالم. هذا المكتسب بالرغم من تراجع الحركة الشيوعية العالمية، لم يتراجع، وبقيت اتحادات العمال ونضالهم العالمي قائمة، ولا أعتقد أن مثل هذا المكتسب سيتم التخلي عنه، إذ تبرهن الحركة المتصاعدة ضد العولمة ومفاعيلها على عولمة نضال الفئات الكادحة أيضاً(٢٠).

القطاع الاجتماعي الثاني الذي نقدمه شاهداً على حوار الحضارات في المجال الاجتماعي، والذي تأثر كثيراً بأفكار التحرر، هو قطاع المرأة، هذه الفئة المنتهكة الحقوق والمظلومة. لقد حصلت المرأة على جزء من حقوقها في أوربا بشكل متدرج عبر عصر النهضة، وأصبحت مواطنة ومشاركة للمواطن الذكر في شؤون الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها.

وبما أن واقع المرأة في بلادنا كان ولا يزال إلى حد ما ـ مأساوياً، فقد كان هذا الحقل جاهزاً للتأثر بالأفكار الوافدة، ولما كانت نهضتنا الحضارية قد بدأت ونمت بالاحتكاك بالغرب ومعرفة ما لديه ومستوى تطوره عن طريق وفود الغربيين إلى بلادنا، وحضور أبناء بلادنا إلى الغرب للدراسة والتجارة والتداوي والسياحة وغير ذلك من الأسباب.

وقد أتاح هذا التواصل التشبع والاقتناع بكثير من الأفكار التحررية من قبل بعض المتغربين وكان من أهم هؤلاء رواد النهضة في مصر.

لقد استشعر قاسم أمين، هذا النهضوي الفذ، خطورة بقاء المرأة على تخلفها، ومدى ما يسببه وضعها من ضرر، بعد اطلاعه على وضع المرأة في الغرب، فكانت مقارناته دائماً تنصب على وضع المرأة في مصر والشرق مقابل المرأة الأوربية، وبدأت مطالبته بتحرر المرأة انطلاقاً من ذلك الذي يعد حواراً واضحاً بين وضع اجتماعي نسوي في الشرق ومثيله الغربي.

لقد قدم قاسم أمين جهداً كبيراً في سبيل تحرر المرأة ظهر في كتابيه ((تحرر المرأة)) و((المرأة الجديدة)) على تخوم القرن التاسع عشر والقرن العشرين، مقتحماً ميداناً وعراً، بجرأة فكرية وعملية كبيرة، سلاحه في ذلك قناعاته المتشكلة بالاحتكاك بالثقافة الأوربية، ونظرته التجديدية التي لا تخرج على مبادئ الدين وإن خرجت على قناعات من يدّعون تمثيله، وعلى التقاليد السائدة.

وقد تتابعت هذه المعركة (معركة تحرر المرأة) وأنتجت الكثير من الأدبيات، وكان لها الكثير من الأعوان والكثير من الأعداء حتى يومنا هذا. وإذا كنا نرى أنها حصلت على بعض حقوقها فلا تزال تفتقد البعض الآخر على أمل الحصول عليه، ومع ملاحظة بطء حركة تحررها لصلابة الوضع الذي تتم مواجهته، ولسلبية المرأة في كثير من الأحيان، وهي التي يجب ألا تنتظر من يحررها، فمن يحررها سيحررها من أجل نفسه، أي إنها تنتقل من عبودية إلى أخرى. إذاً عليها أن تحرر نفسها، ولا سلاح لذلك كالعلم والثقافة.

ومما لا شك فيه أن حركة التحرر هذه كانت نتاج الاحتكاك بالحضارة الغربية وبالفكر الغربي العقلاني الذي عمل عمل المحرض ودوره التنويري، وبالمستوى الذي وصلته المرأة في مجتمعاتها هناك، وهذا ما يسمى بحوار الحضارات، وهذه نتائجه، سواء جاء عن طريق المؤتمرات والمباحثات أو بدونها.

❖ ❖ ❖

هوامش الفصل الثالث

١ - د.تهامة العبدولي، حوار قديم بين الثقافة العربية واليابانية: في دراسة عادة جامعة، النهج /٣٢/ شتاء /٢٠٠٣ ص٤٢ ومابعد.

٢ - المرجع السابق.

٣ - المرجع السابق ص٥٤

٤ - فراس السواح، دين الإنسان، دار علاء الدين، ط١ /١٩٩٤ ص٩٧ ومابعد.

٥ - صامويل هنتجتون، صدام الحضارات، مرجع سابق، ص٣١٨ ومابعد.

٦ - جورج صيدح، أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، دار العلم للملايين. بيروت ط٢ /١٩٦٤، ص٩١

٧ - المرجع السابق ص٩١

٨ - المرجع السابق ص٩٢ ومابعد.

٩ - د.محمد خليل الموسى، تكامل حقوق الإنسان في القانون الدولي والإقليمي المعاصر، مجلة: عالم الفكر، عدد خاص (حقوق الإنسان)، مجلد /٣١/العدد /٤/ أبريل - يونيو /٢٠٠٣ ص١٤٩ ومابعد.

١٠ - المرجع السابق، ص١٦٤

١١ - المرجع السابق ص١٦٦

١٢ - راجع: د.محمد يوسف علوان، القانون الدولي لحقوق الإنسان، العدد السابق ذكره من عالم الفكر (حقوق الإنسان).

١٣ - المرجع السابق ص٢٠٥

١٤ - د. أمين اسبر، الحوار والحضارة العربية الإسلامية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١/٢٠٠٣ ص٢٣٣

١٥ - راجع: شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط٢ ص٧٤

أيضاً: شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، ط٢ ص٩٧

أيضاً، أحمد آمين، ضحى الإسلام، ج١ ط١٠، دار الكتاب العربي، ص٤٩

١٦ - راجعد.محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، مرجع سابق.

١٧ - روجه غارودي، حوار الحضارات، مرجع سابق ص١٧٣

١٨ - راجع مجلة الثقافة العالمية، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ملف: جماليات الفن الإفريقي ص٣٨ - ١١٣ السنة /٢١/ عدد/٢٠٠٢/١١٢

١٩ - المعلومات عن فضائية الجزيرة خلال البطولة.

٢٠ - راجع، حسن ابراهيم أحمد، الماركسية والعولمة بين المقاربة وصراع النقائض، مجلة (الطريق)، السنة /٥٨/ العدد /١/ ١٩٩٩ ص٥٦ ومابعد.



في الحقل الثقافي

هنا، ولكي يكون تحديد المجال أكثر دقة، نشير إلى أن المعنى المقصود من كلمة ثقافة ليس المعنى الانتروبولوجي الذي يشير إلى حالة الخروج من الطبيعي، ولا المعنى الشامل المتماهي مع مفهوم الحضارة كما يرى البعض، إنما المقصود هو المعنى الذي يشير إلى المعارف الفكرية والآداب والفنون والعقائد، وما يحيط بها من حراك، بالمعنى الذي قصده د.نصر حامد أبو زيد.

لقد تماهت فنون الشعوب مع جوانب حياتها الأخرى. وقد جرى التعبير بواسطتها عن الهموم والمشكلات والنشاطات الحياتية كالاقتصاد وغيره. إن ما بقي معبراً عن حياة الشعوب القديمة ومصوراً لها هو مجموعة النقوش والتماثيل والرقصات والأغاني والأشعار والأساطير والعقائد، وهذه الفنون التعبيرية لم تحمل المعرفة فقط، إنما ضمنتها الأحاسيس الجمالية فلا أظن أن ملحمة جلجامش أو الرامايانا أو الإلياذة والأوديسة، تقرأ ككتاب للتاريخ يتضمن أخبار الأقدمين، ومن طمح إلى هذا الجانب الهام فيها فقط، فقد أخطأ. إنها شكل تعبيري جامع، يعمل على تقديم صورة عن شعب وحضارة، لكن ليس بالمعنى الفوتوغرافي إنما بالمعنى الفني.

واللافت للانتباه في هذا المجال، رحابة انتشار هذه الفنون، خاصة تلك الرموز التي تخص الآداب الدينية والتي تعد الأسطورة الحامل الأساسي الأول لها، سيبدو ذلك واضحاً من قراءة آداب ديانات الخصب والاطلاع على رموزها في منطقة الشرق الأوسط، بل امتداداً من حوض السند وصولاً إلى حيث استطاعت عقائد الخصب أن تجد من ينشرها، والتي وجدت آثارها في الآداب اليونانية والرومانية.

ولما كان هدف هذا البحث إثبات تلاقي الحضارات وحوارها عبر مجالات الحياة جميعاً، فإننا لن نعمل على التقصي بل على الإشارة للاستدلال على أن الحضارات لم تعجز، بل لم تتوقف عن الحوار.

الدراسات المقارنة:

فرضت الدراسات المقارنة نفسها لزيادة الاهتمام بتوضيح كثير من الأصول في مجال بعض فروع المعرفة، حيث كان يتوقف على هذه الدراسات تحديد انتماء الكثير من العناصر في ثقافة ما.

لقد شملت الدراسات المقارنة كثيراً من المجالات، منها علم الأديان المقارن والذي يهتم بانتقال العقدية أو العبادات والطقوس من دين إلى دين آخر. كما أن منها علم اللغات المقارن الذي ساعد في توضيح الأسر اللغوية وتفرعاتها وأصولها، كاللغات المعروفة بالسامية أو الهندوأوروبية، ويتم ذلك بالمقارنة بين أنظمة هذه اللغات ومفرداتها، وقد برز فرع من الدراسات الاستشراقية يهتم بذلك حيث تم تتبع الأسر اللغوية.

لكن أبرز حقول الدراسات المقارنة هي الأدب المقارن، الذي يدرس تأثير الآداب وتأثرها ببعضها متتبعاً العناصر التي يمكن الاعتماد عليها في معرفة هذه الآثار. وللأدب المقارن مؤتمراته العالمية وجمعياته التي يستعرض فيها بين الدارسين أهم ما وصلوا إليه بتحديد قنوات التواصل وجزئيات التأثر والتأثير، كما أن له متخصصيه الذين يعملون في كليات الآداب في الجامعات، والمعاهد العالية، وقد أدت حركة الترجمة التي سنتناولها قريباً، وتوسع هذه الحركة إلى مساعدة العاملين في مجال الأدب المقارن في تطوير أبحاثهم، يقول د. عبده عبود:((ومن خلال الترجمة الأدبية يستطيع الأدب المقارن أن يساهم في توضيح ما يسود بين الحضارات من علاقات. فحركة الترجمة الأدبية في الوطن العربي قد كانت على الدوام في مدها وجزرها ومراحلها المختلفة مرآة لعلاقات الحضارة العربية بالحضارات الأخرى))(١).

إن الترجمة الأدبية ودراسة صور الشعوب في آداب شعوب أخرى وأدب الرحلات والدراما التلفزيونية والسينمائية والخلفيات الفكرية، هي بعض ما يدرسه عبود ويشير إليه في حديثه عن الأدب وحوار الحضارات من خلال مناهج الأدب المقارن(٢).

كما أنه يعتبر غوته مثالاً غربياً للاهتمام بالشرق و آدابه، فقد درس آداب الشرق (العربية والفارسية) وكتب عنها بكل حب وإعجاب. وروجه غارودي أيضاً يشير إلى دور غوته هذا بحيث بلور في عمله صيغة للأدب العالمي خاصة في تأثره بسعدي وحافظ الشيرازيين(٤).

إن من شأن الدراسات المقارنة في الأدب أن تبحث قنوات التأثر والتأثير بين الآداب العالمية والتي أصبح العالم مهيأ لها أكثر، وقد كان هذا واضحاً منذ القديم فقد تأثر الشعر الفارسي بالشعر العربي فأخذ أوزانه قديماً، مثلما تأثر الشعر العربي بالأوربي في العصر الحديث فأخذ بعض إيقاعاته.

لقد أثبتت الدراسات المقارنة تأثر الشعر العربي القديم بالشعر الأوربي والبيئة الأوربية، وسواء كانت هذه الدراسات قديمة (أي قبل أن يظهر الأدب المقارن) أو حديثة، فقد كان من أهم القضايا التي بحثت عن تناول الموشحات والأزجال الأندلسية، تأثرها بلغات الأندلس المحلية، وورود الكثير من المؤشرات على ذلك حتى أن (الخرجه) في الموشح كان من المستحب أن تتضمن ألفاظاً أعجمية، وهذا كثير، كذلك في الأزجال، عدا التأثر بالمناخ والعادات وأساليب الحياة الغربية.

من جهة أخرى درست الآداب المقارنة أثر الأدب العربي في الآداب الأوربية، والتي وجدت من أبرز هذه الآثار ما عرف بشعر التروبادور(٥).

ويشار إلى أن الكلمة من جذر عربي طرب + دور، أي إنها تنتمي إلى عالم الغناء كالموشحات والأزجال،وقد درست كثيراً منذ ظهورها في القرن التاسع الميلادي، وهذا المجال من الشعر العربي والأوربي يوضح تأثر الحضارات ببعضها وحوراها الفاعل.

ومن الإشارات إلى تأثر الآداب العالمية بالأدب العربي، ما وضحته دراسة الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي الشهير دانتي من تأثر بقصص المعراج القرآنية،

وخاصة عندما تم إثبات ترجمة بعض هذه القصص إلى اللاتينية قبل ظهور الكوميديا، وهناك إشارات إلى تأثرها برسالة الغفران للمعري، أو محاولات لإثبات ذلك.

ومن هذه الآثار الدور الذي لعبه كتاب ألف ليلة وليلة، الذي لا يزال يدهش القراء في العالم، ويدفع الدارسين للتوقف عنده، وهذا الأثر العالمي كاف لإثبات حوار الحضارات فقد ظهر في الهند ثم ترجم إلى العربية وتبيأ فيها ،وأخذ أبعاده فيها حيث اعتبر كتاباً عربياً، ثم ترجم إلى معظم لغات العالم حاصداً إعجاب واهتمام الناس، من هنا تأتي عالميته ودلالته على الحوار بين الحضارات.

وفي إطار إثبات دور الأدب المقارن في التعرف على الحوار بين الآداب والثقافات بالتالي بين الحضارات. نشير إلى دراسة د.احسان عباس ((ملامح يونانية في الأدب العربي))(٦).

والتي يرصد فيها بعض الملامح اليونانية كما ظهرت في الأدب العربي، مؤكداً بذلك ما يزيد على الآثار الفلسفية التي تركتها الفلسفة اليونانية على العقل والفكر العربيين والإسلاميين، منذ بدأ العرب يتعرفون على اليونان حتى فن ما قبل الميلاد، أيام الحضارة أو الثقافة الهلنستية. يرصد د. عباس أولاً موقف العرب من الشعر اليوناني ومدى معرفتهم به، ويؤكد هذه المعرفة مشيراً إلى أوميروس وأثره عند العرب، وينتقل إلى أثر اليونان في الشخصيات والأمثال العربية، ثم أثر الشعر الخمري اليوناني وترجمته إلى العربية واستخدام الفكر اليوناني السياسي في مادة الرسائل الأدبية، وكيف أن الحكم والأمثال اليونانية تحولت إلى نظم عربي، وأن الشعر استطاع أن يصهر معاني الحكمة اليونانية، وغير ذلك من الأبحاث. ثم يورد ملاحق ترصد الخرافات على ألسنة الحيوانات ويقدم نماذج منها، كما يقدم مراثي الحكماء في الاسكندر.

وإذا كان جهد عباس قد انصب على دراسة الآثار اليونانية في الأدب العربي قديماً، فإن الرصد الدقيق لهذا الأدب في العصر الحديث يؤكد استمرار التأثر بل ازدياده، خاصة في عصر النهضة فما بعد، وتكاد الأسطورة اليونانية تكون من المواد التي درج معظم شعراء العرب على الإفادة منها واستخدامها كرموز، مثل السياب الذي تؤرخ أعماله لبداية الشعر العربي الحديث.

كذلك تمت الإفادة من الإرث الأرسطي في مجال النقد الأدبي وتكاد المصطلحات اليونانية كالتراجيديا والكوميديا ونظرية المحاكاة، وما تم استخدامه من مصطلحات في علم النفس كعقدة أوديب والكترا وانيتغونا وغيرها أن تشكل مفاتيح نقدية لمن يعمل في مجال الفكر والأدب والنقد، وهذا يثبت كم كان حوار الحضارات فاعلاً وحاضراً عبر العصور، متجاهلاً ما كان يجري من صدامات على مستويات أخرى وفي حقول أخرى.

مجال الأدب المقارن واسع جداً وهو وحده قادر على إثبات حوار فاعل بين الحضارات، لكننا نكتفي بإثبات وجهة نظرنا من خلال الإشارات المتقدمة.

الأدب والفن ومناهجهما:

هناك قنوات أدبية وفنية تبرز فيها آثار الحضارات وعلاقاتها الحوارية ببعضها، مما لا يقع في مناهج الدراسات المقارنة، وإذا كان الأدب المقارن قد صب اهتمامه على إثبات تأثر الآداب ببعضها وما تركه كل منها في الآخر كما رأينا من تأثر وتأثير بين العربية واليونانية والفارسية وغيرها، فإن هذا الأثر لم يقتصر على أن تنتقل بعض أوزان الشعر العربي مثلاً إلى الفارسي وأن نجد فنوناً فارسية في شعرنا العربي كالدوبيت وغيرها، لقد فتح العصر الحديث المجال واسعاً لإحداث تأثرات ناتجة عن حوار حضاري شمل كل جوانب الحياة بين حضارات عدة، خاصة بين حضارات الشرق والغرب.

لم يكن أدبنا العربي غائباً عن الرواية كمضمون، أقصد الحكاية ذات الموضوع والتي تدور حول حدث، والرواية في العربية كانت من الكلمات المعهودة. لكننا لم نعرف الرواية أو القصة بشروطها الفنية كما قررها النقاد كفن أدبي قبل التواصل مع الأدب الأوربي، وسواء كانت رواية زينب لمحمد حسين هيكل/١٩١٤ هي الرواية الفنية الأولى في العربية أو غيرها من روايات فرانسيس مراش أو غيره، فإن هذه كلها لم تكن لتظهر لولا الاحتكاك بالحضارة الغربية واقتباس هذا الشكل الفني وهذا الحقل الأدبي بكل ما نرى له من أبعاد عندنا حالياً.

ومع عدم غياب الأشكال المسرحية عن أدبنا وحياتنا العربية فإننا أيضاً لم نعرف المسرحية والمسرح كما هي حقيقة، إلا بعد الاتصال والحوار مع الغرب وحضارته، ولم يكن مارون النقاش الذي قدم المسرحية الأولى في العربية، وهي مسرحية البخيل /١٨٤٨/ ليقوم بذلك لولم يكن تاجراً أتاحت له ظروف عمله الإطلاع على النشاط المسرحي الأوربي.

ولتقدير أثر هذين الفنين (القصة والمسرحية) في أدبنا وحياتنا الثقافية، والدور الذي لعبه احتكاكنا بالغرب في اقتباسهما، لنا أن نتخيل، خلو آدبنا منهما مثلاً، كم كان ذلك سيبدو شنيعاً ودالاً على البؤس الثقافي؟!

لنا أن نقول ذلك في مجالات أخرى، كالفنون الموسيقية، والفنون التشكيلية،وإذا كانت لدينا فنوننا الشرقية، العربية والإسلامية، سواء في مجال الموسيقى أو التشكيلي، فإننا كنا سنبدو خارج التاريخ وخارج عصورنا تماماً لولا الاعتماد في تطوير هذه الفنون عن طريق دراستها في الغرب وإدخال المناهج الغربية عليها، يضاف إلى ذلك التكنولوجيا الغربية في هذا المجال، كالآلات الموسيقية، المردوفة بالمؤلفات الموسيقية الغربية، كذلك في مجال النحت والرسم وغيرها، فهي في مناهجها، وأدواتها غربية الطابع، استوردناها لنعبر بواسطتها عن واقعنا وبيآتنا ،ولنا أن نتصور أيضاً أننا بدون هذه الموسيقا وهذه الفنون لنقدر حجم التأثر بالغرب وفنونه، عبر حوار حضاري، قلنا سابقاً إنه يعتمد مبدأ سد الفراغ كمبدأ الأواني المستطرقة.

لم نستورد هذه الفنون فقط، بل استوردنا مناهج دراستها والتعاطي معها ونقدها. فالفلسفات والمناهج الكبرى التي ولّدها الغرب الحديث، تحولت إلى مايشبه الإيديولوجيا يعم طيفها الكثير من الحقول، وتطبق في مجالات كثيرة من الحياة، هذا إذا لم تكن أيديولوجيات كاملة كالماركسية التي صنعت حقلها، من السياسة الماركسية، إلى الفن الماركسي والاقتصاد الماركسي... إلخ وأصبحت المقاييس الماركسية في الأدب والفن والنقد، وهي غربية الطابع - هي أدواتنا ومقاييسنا المعتمدة في تقييم الأعمال الأدبية والفنية، كما أصبحت لدى الكثير من

شعوب العالم، حتى أصبحت الواقعية الاشتراكية هي المسطرة الصارمة التي تقاس بواسطتها الآداب والفنون، وحتى الأخلاق عند بعض النقاد عالمياً.

هنا ومن قبيل تقرير الواقع، نشير إلى أننا وتأثراً بالغرب، أصبحنا منذ زمن غير يسير نعتمد المقاييس الغربية النابعة من مناهج ومذاهب غربية في لحمتها وسداها، ووجدت لتقييم وقياس الأعمال الغربية. فالكلاسيكية مذهب غربي في الأدب والنقد، أصبحنا نقيس به آدابنا وفنوننا وحياتنا، وكذلك مناطق العالم الأخرى، فنقول : أدب كلاسيكي، فن كلاسيكي، موسيقى كلاسيكية، أسلوب كلاسيكي، حتى أصبحت هذه الكلمة (المصطلح) من الكلمات الشعبية التي يعبر بها عن كل تقليدي قديم.

أيضاً نجد مصطلحات مثل الرومانتيه والواقعية والوجودية وغيرها، وهذه كلها مصطلحات بعضها تحول عن فلسفة كالوجودية، نستخدمها نقلاً عن الغرب في توصيف الآداب والفنون، وهي بمقاييسها وضوابطها الصارمة المنقولة عن الغرب، أصبحت مقاييس وضوابط لنا مما يؤكد الأثر الذي يحدثه حوار الحضارات.

هذا يذكرنا بأن المقاييس المعتمدة في حياتنا المادية والمعنوية كلها تعود إلى الغرب، حيث استبدلنا مقاييسنا السابقة بها، فالمتر لقياس الأطوال، والكيلوغرام لقياس الأوزان واللتر لقياس السوائل، وتلاها بعد ذلك مقاييس لما استوردناه من الغرب كالكهرباء والحرارة والرطوبة.... إلخ.

ولا نزال حتى يومنا هذا، وبالرغم من التقدم الذي حصل لدينا في مجال الدراسات الفكرية والفنية، نستورد ما ينتجه الغرب من فنون ومناهج، أوجدها في الأساس لدراسة فنونه، فنعمد - مهما كان التعسف - إلى تطبيقها في دراسة آدابنا وفنوننا، كما فعل من أخذوا بتطبيق البنيوية من أمثال كمال أبو ديب وغيره، وكما يفعل علي حرب في تطبيقه لمناهج التفكيكية والدعوة إلى تطبيقها في مجال الدراسات الفكرية والفنية والحياة العربية(٧). وقد أوضح بعض ذلك د.عبد العزيز حمودة في كتابه ((المرايا المحدبة))(٨).

وإذا كنا في القديم، وفي عصر النهضة، وصولاً إلى عصرنا، مضطرين إلى أن نتعاطى مع الأسماء اللامعة في مجال الفكر والثقافة الغربيين نتيجة فقرنا الثقافي،

مثل: أفلاطون، أرسطو، وغيرهم من فلاسفة اليونان، فإن هذه الضرورة رافقتنا، ووجدنا أنه لا غنى لنا في العصر الحديث عن التعاطي مع أسماء، مثل: ديكارت، كانت، هيجل، ماركس وعشرات غيرهم، ثم استمر ذلك إلى يومنا هذا، حيث لا نحيل إلى مفكرين محليين، بل نحيل إلى أمثال: فوكو، دريدا، بوبر وأمثالهم.

أليس في ذلك دليل على أن هذا الحقل من الحوار بين ثقافتنا وثقافة الغرب لا يزال مفتوحاً وخصباً وفاعلاً، بالنسبة لنا على الأقل، ولا يحق لنا إغلاقه طالما لم نوجد البديل.

إن عشرات الدارسين العرب في الغرب وفي الشرق كادوارد سعيد ومحمد أركون وبرهان غليون وكثير غيرهم، لم يغنونا أن نتزين في دراساتنا بالإحالة إلى الأسماء الغربية اللامعة، مما يدل على أثر حوار الحضارات الواضح في هذا المجال، والمستمر بعيداً عن منطق التبعية أو عن القوي والضعيف، ومن يأخذ ومن يعطي.

لو تركنا الفنون والآداب القديمة أو بصورتها التقليدية جانباً، ونظرنا إلى الفنون الحديثة كالسينما والتلفزيون، لرأينا أنفسنا أمام حقل غربي بالكامل بهويته وفكرته وأدواته ومناهجه وأساليبه، وأننا نجهد مع كثير من الشعوب التي لها الوضع ذاته، لنواكب هذه التطورات، ونثبت أننا قادرون على التعاطي مع ما تستحدثه الحضارة من فنون وقضايا، بالتالي جديرون بالحياة، لكننا نظل في حراكنا عالة على الفكر الغربي وحيثياته. وهذا حوار مع الحضارة الغربية يصل حد الإملاء والفرض علينا، باعتبار أن هذه الحقول جديدة، ولم يكن لها وجود في ثقافتنا، ولو كان لها جذور لسمينا ذلك تطويراً وإغناء، لكن لما لم يكن لدينا ما نطوره، أصبح ذلك نقلاً كاملاً للفن ومجاله، أو أن هذا الفن فرض نفسه علينا فأصبح ذلك كالغزو، ويحلو للكثيرين أن يسموه غزواً. وهو يعود إلى ما نشير إليه من حوار بين الحضارات.

الدين

نعود للحديث في أثر الحوارات الحضارية في مجال الدين، ذلك لأن الدين أحد أبرز مكونات ثقافة الشعوب، ويختلف ذلك بين شعب وشعب، ودين ودين، ومنطقة

ومنطقه، ومرحلة وأخرى لكن لا خلاف على الدور البارز للثقافة الدينية كمكون ثقافي له طيف واسع وأثر بارز.

تحدثنا في فصل سابق عن الدين الذي هو في الأساس لا يحتمل إلا الحوار، هذا إذا أخذنا بالمعنى النبيل الذي يجب أن يكون له، بل يجب ألا يفارقه، لأن الدين متى فارقه معنى النبل والرحمة والسلام وتحقيق أحلام الإنسانية في حياة حرة وكريمة فقد مشروعية وجوده ومبرره. ولقد أشرنا إلى أن الله قال عن نفسه إنه غني عن العالمين، إذاً هو لم يرسل الرسل من أجله لغناه عن ذلك، وإنما أرسلهم لتنظيم حياة الناس وجعلها أكثر رقياً ونبلاً ورحمة وأكثر مقدرة أن تعاش دون ضغوط ومشاكل.

من هذا الجانب نرى أن جميع الأديان تتفق في أساس وجودها وفي صلب مبادئها على القيم السامية والدعوة إلى السلام والمحبة والخير، وإلى الوقوف ضد الشر ومحاربته، أياً كان شكله، وأي دين ليس في صلب مبادئه التحزب للخير والدعوة إليه وفعله، ومحاربة الشر والتحزب ضده ونبذه، يفقد كونه ديناً.

هل جاءت الدعوة إلى المبادئ والقيم العليا عفواً، أو أثرت الأديان ببعضها، السابق باللاحق في انتهاج هذا الطريق؟ ليس من السهل أن نثبت أن مبادئ الدعوة إلى الخير ومحاربة الشر كانت اقتباساً من دين لآخر. عبر عملية حوار بين الحضارات أو الثقافات أو الأديان خاصة. فوجود من يدعو إلى الخير في عصر ما وأرض ما، لا يعدم أن يوجد من يدعو إليه في عصر آخر وأرض أخرى وشعب آخر. إنما باستطاعة الباحث في مجال علم الأديان المقارن، أن يشير إلى عناصر جزئية وردت في دينين أو مجموعة أديان، كالاعتماد على حكايات وأخبار وأساطير معينة. فحكاية الطوفان كما رأينا هي أثر انتقل بين الأديان السماوية والثقافات الموجودة في الشرق، وربما كان المصدر هندياً كما سبق وأشرنا. أيضاً حكاية كحكاية الملك سرجون الأكادي التي تشبهها حكاية النبي موسى وكيف نجا كل منها من الموت بوضعه وهو طفل في صندوق على مياه النهر تسير به، وكيف تم التقاطه وتربيته، وكان الخلاص على يديه.

أيضاً حكايات أخرى كالحديث عن أثر أديان سابقة في بعض الشخصيات، كأثر ديانات الكنعانيين في الملك (النبي) سليمان، حيث تحدثت التوراة عن انحرافه إلى ديانة نسائه (زوجاته ومحظياته) الصيدونيات الكنعانيات.

أيضاً يبدو أثر الأديان في حوار الحضارات، في الأشكال التي اعتمدتها للانتشار، فالكثير من هذه الأشكال كان يعتمد التبشير، ولقد رأينا أن رجال الدين المسيحي المتحمسين لنشر المسيحية قد رافقوا رجال الكشوف الجغرافية لهداية الشعوب المكتشفة إلى المسيحية، أيضاً فعل ذلك التجار والدعاة المسلمون، فبعيداً عن الأرض التي وصلتها جيوش الفتح الإسلامي، كان التجار يذهبون ببضائعهم للتجارة والتسوق، وكانوا يحملون معهم بضائع من نوع آخر، إنها مبادئ الدين والعقائد التي يؤمنون بها، وهكذا تم انتشار الدين عبر الحوار بينهم وبين هؤلاء الشعوب التي عرفوها في حراكهم الاقتصادي، خاصة في جنوب شرق آسيا وأفريقيا جنوب الصحراء.

ولقد كان للتحولات والانقسامات الطائفية دور في حماس أبناء الطوائف لنشر مذاهبهم خاصة وأن أغراضاً أخرى داخلت الانقسامات الدينية، وجرت تحولات كبيرة على مسار الأديان، ففي ٣٠٦ - ٣٧٧م، أي في عهد قسطنطين الذي اعتنق المسيحية وجعلها الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية: ((تحولت الكنيسة من كنيسة يسوع المطلوب إلى كنيسة الله القادر على كل شيء))(٩). وهو ما جعل السياسة تفعل في الحديث وجعلته مركباً سهلاً لها، كان له الأثر في الانقسامات الطائفية والحروب.

لقد أصبح رهبان المذاهب والفرق الدينية المسيحية، وأبناء الطوائف الإسلامية أكثر حماساً في العمل على نشر مذاهبهم، وأصبح واحدهم لا يسابق على ذلك أبناء دين آخر بل أبناء طائفة أخرى من دينه. حيث أبرز التاريخ الكثير من التحولات والانقسامات في الأديان، والصراعات الحادة بين الفرق المتشكلة حديثاً وتلك السابقة لها. ولقد جهد المتأخرون لتصحيح بعض النظرات أو المفاهيم لكن دون كبير نتيجة، كما فعل إبراهيم متري رحباني لتصحيح فهم الأمريكيين وبيان

الفهم المسيحي الشرقي المخالف لما هو سائد في أمريكا مما يعد انحرافاً عن المسيحية في منبعها الأول، من خلال كتابه (المسيح السوري) كما ورد سابقاً.

ربما كانت مثل هذه المحاولة في رد فهم الدين إلى الجذور، وهي محاولات تجري في كل الأديان (بعضها وصل إلى ما يعرف حالياً بالأصولية في كل الأديان الإبراهيمية، مع ما في رؤيتها من أصول أو انحرافات) ناتجة عن رؤية الاختلافات التي أبرزها حوار الحضارات أو حوار الطوائف والمذاهب. يقول غارودي: ((ونحن اليوم ندرك أن الجانب الأصيل في المسيحية هو الجانب الشرقي.... فقد أدخلوا إلى (الغرب) مسيحية أفسدتها تماماً الثنائية اليونانية على الصعيد الفكري النظري، وأصابت بنيات الإمبراطورية الرومانية تنظيمها بتحول جذري))(١٠).

وإلى هذا الحوار المنحرف عن الأصل أو المتفق معه يمكن أن نرد عمل الإرساليات التبشيرية، وهي عمل طائفي تبشيري، تسابقت عليه الطوائف المسيحية الغربية مدعومة من حكومات بلدانها وكنائسها، وقد أقامت المدارس والكليات في كثير من مناطق العالم، والملاحظ في المنطقة العربية أنه تركز في المواقع التي تنتشر فيها المسيحية، بدل أن يركز في مناطق يتم جذبها إلى المسيحية، وهذا يثبت صراع الطوائف المسيحية على تجيير هذا الحوار إلى الحقل الطائفي بدل إبقائه في الحقل الديني.

إن إنشاء المدارس والكليات في بلاد كثيرة من الشرق، من قبل طوائف مسيحية، جعل هذه المدارس ـ على اختلاف في المستوى ـ تقدم الخدمات التعليمية إلى الكثيرين من المسيحيين والمسلمين، والملاحظ أن من تخرجوا من هذه المدارس من المسلمين كانوا أوضح علمانية، وهذه وإن كانت قضية نسبية فإنها تدل على ما يحدثه الحوار بين الحضارات أو الشعوب أو الأديان من آثار واضحة، باعتبار أن المناهج التي كانت تدرسها هذه المدارس هي مناهج غربية الحضارة والفكر، وهناك من يقول إن المبشرين كانوا مقدمات استعمارية.

أخيراً لا نريد أن نكرر ما قدمناه سابقاً، من أن هناك مؤثرات كثيرة، عقدية وعبادية طقوسية، أحدثها الحوار بين الأديان وتجاورها وتساكن وتعايش أبنائها. لكننا نشير إلى أن أكبر أثر قدمه حوار من هذا النوع هو التسامح بينها. يذكر سمير عبده أن أهل لواء اسكندرون من المسيحيين قدموا كنائسهم للمسلمين

يصلون بها الجمعة لأن لجنة للتحقيق في انتماء لواء اسكندرون إلى تركيا أو إلى سوريا، قد قدمت يوم الجمعة، مما دفع الأتراك إلى إغلاق المساجد أمام العرب المسلمين ومنعهم من أداء الصلاة والتظاهر أمام اللجنة الدولية تأكيداً لعروبة اللواء، وكان ذلك عام ١٩٣٧م(١١)

كما أن القس سرجيوس انطلق للمشاركة في مظاهرات ثورة ١٩١٩/ من الأزهر، بعد خطبة ألقاها هناك وبدأها بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم. وهذا يشير إلى مناخ التسامح الذي يتيحه ويساعد عليه التساكن الذي يخلق حواراً واسعاً. كما يعتبر التعايش الإسلامي المسيحي في الشرق دليلاً على ما بين المبادئ العقدية من تسامح ورحمة، عكس ما يريد هنتنجتون التدليل عليه.

الترجمة والبعثات العلمية:

لم تتأخر الحضارات في اكتشاف الترجمة كطريق للتواصل والحوار بين الحضارات، ولا شك أن ما أوردناه سابقاً عن العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وما نحن بصدده من العلاقات الثقافية بين الشعوب والحضارات، يوحي بأهمية الترجمة كطريق لابد منه لإتمام هذه العمليات، والتي لا يمكن أن تتم دون تواصل لغوي، ومتى استطاعت اللغات أن تتفتح على بعضها من خلال إتقان أعداد متزايدة من متكلميها لأكثر من لغة، عندها نقول إن قناة هامة جداً لحوار الحضارات قد فتحت، وبازدياد مثل هذا النشاط اللغوي يزداد مفعول وأهمية الحوار.

تتحدث الأخبار عن أن مترجمين عرباً كانوا في بلاط كسرى ملك الفرس، ومن أبرزهم عدي بن زيد، وكان هؤلاء يقومون بتأمين التواصل الضروري بين بلاط كسرى والعرب لكن هذا النشاط شهد قفزة هائلة بعد الإسلام، فقد أصبح المؤمن يتعبد ربه بتلاوة القرآن الذي نزل بالعربية. إذاً كان على هذا الطيف من المؤمنين من غير العرب أن يتعلموا العربية كي يحسن إيمانهم، وهذا يفسر كثرة الذين تميزوا في علوم العربية، وعلوم ذلك العصر المكتوبة بالعربية وهذا يفسر أيضاً الترجمات

التي تمت على يد أعلام الفكر والأدب كابن المقفع الذي ترجم كليلة ودمنة وغيره عن الفارسية.

إلا أن حركة الترجمة الواسعة إلى العربية، حصلت منذ عهد المأمون فما بعد، يقال إن رجلاً مهيباً تجلى للمأمون في نومه وأوحى له بأن يستخرج كل ما سبقه من فلسفة وعلوم لينقلها إلى العربية، ولهذا أنشأ المأمون بيت الحكمة ٢١٧هـ ٨٣٢م والذي يعد أبرز مؤسسة علمية شهدها التاريخ العربي الإسلامي على امتداده، وكان في زمن بلوغ الإشعاع الحضاري العربي عصره الذهبي أو الذروة، وكان مترجمو ذلك الزمن من أبرز مفكريه. (١٢)

إننا من أنصار عقلنة هذه الحركة التي لم تحصل دفعة واحدة بل بالتدريج، ببيان ما اكتشفه العرب أيا مذاك من ضرورة الإطلاع على نتاج الحضارات السابقة خاصة الحضارة اليونانية، وما تنطوي عليه من كنوز، وهذا يبعد التفسيرات اللاعقلانية عن دوافع تطور الترجمة كرؤيا المأمون، الخليفة المفكر.

وأياً كان الهدف والسبيل إلى هذا المشروع (مشروع الترجمة) فإنه قد آتى أكله فتم نقل كنوز اليونان المعرفية وخاصة في مجال الفلسفة، بشكل واسع إلى العربية، وأصبحت أسماء أفلاطون وأرسطو وغيرهم، وكأنهم مفكرون عرب يعيشون بين ظهراني إخوانهم، ومن أبرز المترجمين العرب للتراث اليوناني إلى العربية: يحيى بن عدي وحنين بن اسحق. (١٣)

إن حركة الترجمة إلى العربية في تلك الحقبة التاريخية قد أنشأت حوارات بين الحضارة العربية والحضارات الأخرى، خاصة اليونانية، بحيث أن توفر كنوز الفلسفة اليونانية باللغة العربية قد وسع نشاط الفكر والمفكرين وأصبح واضحاً في كل ما كتبه المفكرون العرب بعد ذلك أثر الفلسفة اليونانية، كما نرى لدى الفارابي وابن سينا وغيرهم.

وهذا أيضاً ما جعل العربية لغة فكر، أو اللغة الأكثر نشاطاً في هذا المجال بحيث أنه عندما بدأ الغرب يتلمس طريقه إلى النهضة وبدأ يحيي تراثه لم يكن له مناص من التواصل مع العربية والمفكرين العرب الذين توجهم ابن رشد الذي وصل بحركة الفكر العربي إلى المدى الأبعد، بحيث أنه: ((هو الذي سيطر على الفلسفة

المدرسية من خلال أنصاره اللاتين)).(١٤) وقد((بدأ الرافد الإسلامي وأثره في الفلسفة المدرسية في القرن الثاني عشر بحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية)).(١٥)

ويعدد د. حسن حنفي مجموعة من أشهر المترجمين الغربيين الذين عملوا على ترجمة التراث الإسلامي إلى اللاتينية ومن أبرزهم: يوحنا الاسباني وريمون السوفيتاتي (اسقف طليطلة) وجون ساليفي(جوند سالينوس) وسليمان اليهودي وابن داود(افنداوث) وجيرار الكريموني.(١٦)

ويشير غارودي إلى أن سان جان دي لاكروا، اطلع على تصوف المسلمين ودنا منه بعد أن وجده مترجماً إلى اللاتينية في جامعة ((سالامنكا))(١٧). مما يؤيد انتشار الترجمة التي أصبحت رافداً ثقافياً لأهل الغرب.

إن عملية الترجمة المتبادلة، بين لغتين(حضارتين) أو لغات(حضارات) هي من أبرز أشكال حوار الحضارات هذه، التي تنبه إليها المهتمون بالشأن الفكري والثقافي منذ أقدم العصور.

من هنا ينبع اهتمام الحضارات الناهضة خصوصاً بموضوع الترجمة، حيث تعتبر الطريق الممهد لنشأة وتطور حضارة فاعله. فكل حركة نهوض عبر التاريخ ترافقت بحركة ترجمة نشيطة، دفعت بوشكين إلى القول: ((المترجمون خيول بريد التنوير)). (١٨)

كما يعتبر البعض ومنهم الباحث عبد الكريم ناصيف أن حركة الترجمة تسبق حركة التأليف وتمهد لها، وتعد المرحلة الانتقالية بين مرحلة الجدب ومرحلة الابداع. (١٩)

من هذا المنطلق جاء التفكير العربي ابتداء من عصر النهضة بتنشيط حركة الترجمة، عبر تنشيط حركة التواصل مع الغرب باعتباره صاحب الحضارة الأقوى في هذه المرحلة، وهكذا بدأت البعثات العلمية التي ترسلها الدول منذ عهد محمد علي باشا إلى الغرب، لتتشبع بعقل وفكر وعلم الغرب، ولتكون قادرة على نقل هذه العلوم إلى اللغة الأم وقد رأينا أثر ذلك في نتاج رفاعة الطهطاوي الذي رأس أول بعثة مصرية إلى فرنسا، وكيف كان تأثره بالحضارة الغربية قوياً، وفي كل المجالات كما يخبر كتابه(تخليص الابريز في تلخيص باريز) وكيف أن أسماء

لامعة أخرى على هذا الطريق كعلي مبارك وخير الدين التونسي، أصبحوا مثالاً للتواصل مع الحضارة الغربية عن طريق التعلم في الغرب كأعضاء في بعثات علمية موفده، وهناك أيضاً ما قدمته الارساليات التبشيرية من منح علمية وايفاد إلى آوربا للتعلم فيها خاصة من لبنان يضاف إلى ذلك النشاط التجاري والخاص في التواصل وتعلم اللغات الأوربية، ومن أبرز الاسماء في هذا الجانب، أحمد فارس الشدياق.

وإذا كانت نهضتنا العربية الحديثة قد بدأت في وقت واحد مع النهضة اليابانية كما أشرنا، فإن النهضة اليابانية قد أتت أكلها وأنشأت دولة وحضارة عصرية تنافس الغرب صناعياً، وهي تعتبر أكبر بلد مترجم في العالم، وربما كانت بعض أسباب نهضتها تكمن في ذلك(٢٠)، ويراهن هاشم صالح على أن نهضة العرب المقبلة تتوقف إلى حد كبير على مدى نجاح مشروع الترجمة أو فشله، بالقياس إلى الدور الذي لعبته الترجمة في العصر الكلاسيكي حيث كانت تقع في الصميم من المشروع الحضاري العربي ـ الإسلامي. (٢١)

وينبه المشرفون على الحركة الثقافية العربية ـ وإن كانوا قد تأخروا ـ إلى أهمية دور الترجمة في إحداث حركة نهوض نحو الأمام بعد ملاحظة الفقر المعرفي في بيئتنا العربية، وهذا الفقر الذي يشير إليه تقرير التنمية الإنسانية لعام ٢٠٠٢ بالإشارة إلى أن العالم العربي يترجم سنوياً ما يقرب من /٣٣٠/ كتاباً وهو خمس ما تترجمه اليونان، والاجمالي التراكمي للكتب المترجمة منذ عصر المأمون حتى الآن بلغ /١٠٠٠٠/ كتاب، وهو ما يوازي تقريباً ما تترجمه اسبانيا في عام واحد.(٢١)

هذا الواقع البائس للترجمة هو ما يدفع إلى تلمس الطريق إلى تدارك الموضوع وتنشيط حركة الترجمة، فقد أقيمت ندوة في دمشق حول الموضوع برعاية وزارة الثقافة، افتتحتها وزيرة الثقافة ((نجوه قصاب حسن)) بكلمة موحية العنوان ((الترجمة أداة المثاقفة والتفاعل الحضاري)) ويوحي هذا العنوان بمدى ما يتعلق من آمال على الترجمة في تواصل الحضارات وحوارها، وتقول الدكتورة عن دور الترجمة عن العربية إلى الغرب قديماً والترجمة إلى العربية في العصر الحديث: ((وكما ساهمت الترجمات في نهضة الغرب واطلاعه على تلك الكنوز المعرفية،

وساهمت حركة التعريب في نقل معارف الغرب وثقافتهم وعلومهم، وتوسيع آفاق المعرفة في الوطن العربي)). (٢٢)

وإذا كان الثناء على ما حصل من جهود في مجال الترجمة وارداً، فيجب أن لا يجعلنا نغفل عن التقصير الحاصل من قبلنا في هذا المجال وضرورة النهوض بحركة الترجمة عبر دعم هذه الحركة حكومياً وشعبياً وإزالة العقبات والرقابة الصارمة وإفساح حيز أكبر من الحرية والانفتاح، كما يجب ألا ينسينا المشكلات المتوالدة عن حركة الترجمة، خاصة مشاكل المصطلحات.

لقد كانت مشكلة المصطلحات إحدى العقبات التي وجب تذليلها، وهي مشكلة مزمنة، فمنذ القديم لم يستطع العرب تقديم المصطلح بلغتهم فقد ترجمت بعض المصطلحات وبقي الكثير منها يشار إليه بلفظه الأجنبي مثل: تراجيديا وكوميديا وذلك لعدم وجود نشاط مشابه لا في الحياة ولا في الأدب العربيين، أما العصر الحديث فإن سيل المصطلحات متدفق بشكل كبير، والملاحظ أننا استسهالاً لذلك التناول السريع نترك الكثير منها بلفظه الأجنبي في الاستعمال حتى لو كان له مقابل بلغتنا، وهذا يجعل الترجمة منقوصة وبعيدة عن أن تجعل العلوم تتبيأ في بلادنا، وهذا ما دفع وزيرة الثقافة السورية إلى القول: ((لابد... من مجابهة العقبات التي تعترض تلك المهمة المعرفية الحيوية والتي تتمثل في كثرة المصطلحات العلمية والفنية.. التي تزخر بها العلوم والمعارف ومبتكرات التكنولوجيا.... تشكل عقبة كبيرة تواجه المختصين في مجال الترجمة والتعريب)).(٢٣)

إن التحسس لأهمية الترجمة والتعريب في وقتنا الحاضر ناتج عن التقدم التقني وانتشار وسائل الاتصال وضرورة تبادل الخطاب الثقافي والإعلامي والسياسي بين الأمم(٢٤)

وهذا يشير إلى أهمية الانتشار اللغوي وضرورة تعلم لغات الشعوب خاصة تلك التي لها حضور كبير في مجال التكنولوجيا، التي دفعت بعض اللغات العالمية كالإنكليزية إلى انتشار يعم الكرة الأرضية لضرورة تعلمها في حقول الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . (٢٥) وقد أصبح شكلاً من أشكال الأمية عدم إتقان لغة أو لغات أجنبية، كما أصبح أحد أشكال الأمية المعرفية والتقنية الغياب عن عالم المعلوماتية في عصر تدفق المعلومات.

هكذا تبرز الترجمة كقناة من أهم قنوات الحوار بين الحضارات، وتدفع رأي من يقول إن لغة الحضارات هي الصدام دون غيره.

الاستشراق والاستغراب:

ليس الهدف هنا دراسة الاستشراق، فقد تمت دراسته من قبل أعلام الفكر والثقافة العرب، مثلما فعل د. محمد أركون وآخرين في كتاب بعنوان ((الاستشراق بين دعاته ومعارضيه)) وكذلك تناوله في كتاب آخر له بعنوان((تاريخية الفكر العربي الإسلامي))، كما درسه المفكر د. ادوارد سعيد في كتابه الشهير((الاستشراق))، والذي أثار ولا يزال مناقشات بين المهتمين بالموضوع في الشرق والغرب، وذلك لما في الكتاب من آراء، ولجرأة وشهرة صاحبه الفكرية، ونحن نهدف إلى الإشارة لدور الاستشراق الكبير في إحداث شكل من أشكال الحوار بين الحضارات.

الاستشراق من ((المستشرق)) أي المنشغل بدراسة الشرق، وهو شبكة معقدة من الصور عن الشرق(٢٦)، وهو يهدف إلى معرفة الآخر عن طريق الحوار مع منظوماته الثقافية وقيمه الحضارية والحياتية.

والاستشراق منظم ومرتبط بمؤسسات دينية أو سياسية، وكلها ذات أهداف تريد المعرفة لتوظيفها في خدمة نفوذها وسيطرتها أو انتشارها، ونابليون كان يقنع الناس بأنه كان يقاتل من أجل مصلحة الإسلام لا ضده، وقد استخدم كل المعرفة المتاحة عن القرآن والمجتمع الإسلامي التي كان بإمكان الباحثين الفرنسيين الحصول عليها، وهذا برهان على نحو شامل على السلطة الاستراتيجية والتكتيكية للمعرفة.

وقد أعطى تعليمات لنائبه كليبر عند مغادرته مصر بأن يدير البلاد عبر المستشرقين ورجال الدين الإسلامي. (٢٧)

بعد دراسة ادوارد سعيد للاستشراق كشف عن غايتين الأولى معرفة العالم المستعمر والثانية هي السيطرة عليه. (٢٨) ويرى مؤلفا كتاب ((ادوارد سعيد – مفارقة الهوية)) أن كتاب((الاستشراق، إذن، يدور على برهنة الترابط بين المعرفة

والسلطة ذلك لأن خطاب الاستشراق ينشئ ويهيمن على الشرقيين في عملية ((معرفة)) هم)).(٢٩)

لقد شملت دراسات المستشرقين معظم جوانب الحياة في مجتمعات وبلدان الشرق وفي تراث هذه البلدان، ويقال إن عدد الكتب التي صنفها المستشرقون بين عامي ١٨٠٠ - ١٩٥٠م قد بلغ أكثر من ستين ألف كتاب تبحث في الشرق الأوسط وحده، حسب المعلومات التي أوردها ادوارد سعيد، وهذا يبرز الدور المعرفي الكبير لحركة الاستشراق بعيداً عما أثير حولها من شكوك واتهامات، ولا شك أن هناك دراسات استشراقية ومستشرقين منصفين، كما أن هناك دراسات مغرضة.

ويؤكد د. نصرحامد أبو زيد أن الاستشراق - وهو شكل من أشكال حوار الحضارات - كان خطاباً رديفاً للهجمة الاستعمارية على الوطن العربي، يقول: ((وهناك أسباب كثيرة تقف وراء محاولات التمييز بين (الإسلام) والمسلمين، أو على الأصح التمييز بين (الديني) و(الدنيوي) لعل أقرب هذه الأسباب زمانياً ضغط الهجمة الاستعمارية الشرسة ضد العالم الإسلامي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وهي هجمة ما زالت توابعها مستمرة في الوجود الصهيوني في فلسطين. تزامن مع الاحتلال العسكري والسيطرة السياسية والاقتصادية خطاب عربي سياسي - أكاديمي فيما عرف بظاهرة (الاستشراق) فحواه أن (الإسلام) هو العقبة الرئيسية التي تعوق المجتمعات الإسلامية عن تحديث أنفسها كما فعلت أوربا)).(٣٠)

وواضح أن الكلام السابق يدخل في مناخ الصدام وليس الحوار بين الحضارات، خاصة عندما تبرز المعرفة وكأنها تقوم بدور التمهيد للغزو، وهذا يشكل أيضاً محور ما أراد ادوارد سعيد قوله، واتفاق هؤلاء المفكرين على الدور الاستعماري للمعرفة التي توخاها الاستشراق لا ينفي أن الاستشراق كان حواراً بين حضارات لأن الحوار ليس مرهوناً بالنتائج الايجابية التي تتمحض عنه، علماً أن هناك من لايوافق على رؤية الاستشراق أنه كان ذا أهداف استعمارية بحتة، وإذا كان المستعمرون قد أفادوا منه فإن ذلك يأتي على هامشه وليس في صلب أهدافه. وهناك من يرد الهجوم الذي يستهدف الاستشراق من هذه الزاوية، يقول فرد

هاليداي: ((أرفض من جانب أول، الرسالة الأدبية والقومية المعادية التي يبديها بعض الكتاب العرب تجاه (الاستشراق) وأرفض من جانب ثانٍ موقف صموئيل هنتنجنون الذي يقود إلى النتيجة ذاتها بهذا القدر أو ذاك)).(٣١)

وهناك الكثير من الدراسات التي كانت محل تقدير من قبل العرب، وضعها مستشرقون في بعض جوانب الحياة العربية أو التراث العربي، فقد وضع المستشرق ((مونتغمري وات)) كتاباً بعنوان: الفكر السياسي الإسلامي، كما وضعت المستشرقة ((آن لامبتون)) بحثاً بعنوان : الفكر السياسي عند المسلمين. وكلا المستشرقين اهتم بدراسة مصنفات الآداب السلطانية والفكر السياسي الإسلامي بشكل عام لدى المؤلفين المسلمين القدامى، كما ناقشوا أعمال من سبقهم من المستشرقين الذين كتبوا في الموضوع ذاته،وقد أشار المستشرقون إلى إطلاعهم الوثيق على التراث الفارسي والتقاليد الاسلامية. (٣٢)

وإذا كان كتاب ادوارد سعيد عن الاستشراق قد أثار الكثير من المواقف والانتقادات، فإن أحد هذه الانتقادات التي وجهت كانت حول إهمال سعيد للاستشراق غير الموظف استعمارياً: ((إنه يحذف إلى حد كبير المدرسة الألمانية للمستشرقين وتأثيرهم المهم في هذا المجال، لأن ألمانيا لم تكن قوة استعمارية ذات سلطة كبيرة في الشرق، ويفشل في ذكر الشعور القوي بين الكثير من الباحثين الاستشراقيين الذي ينص على أن الثقافات الشرقية كانت إلى حد ما أكثر تفوقاً من الثقافة الغربية)). (٣٣)

أياً كانت المواقف أو الاتهامات والردود والمناقشات، فإننا في مجال حوار الحضارات يصعب علينا ان نتجاوز حركة الاستشراق وما قدمته ثم نقول إن الحضارات تتحاور أو لا، ومن الصعب في هذا المجال نسيان أسماء كثيرة في عالم الاستشراق كهاملتون جب وبروكلمان ونولدكه وغيرهم، ولكننا فيما يبدو نحتاج إلى ما يسميه ادوارد سعيد ((القراءة الطباقية)) في كتابه ((الثقافة والامبريالية)).(٣٤) في مجال حوار الحضارات أو الثقافات، وهي قراءة تمنح الحضور لأولئك الغياب، أو نمط من القراءة وإعادة القراءة للأعمال الإمبريالية من زاوية نظر المستعمر. (٣٥)

من غير الممكن أن تستكمل الصورة من خلال الإشارة إلى حركة الغرب في سعيه للتعرف على الشرق وحضاراته واهتماماته بهذا الموضوع الذي ولد كل هذه الحركة الاشكالية ((الاستشراق)) ولكي تكتمل هذه الصورة لا بد من التعرف أو الإشارة إلى الخطوات المقابلة التي خطاها العرب أو الشرق للتعرف على الغرب وهو ما يطلق عليه ((الاستغراب)) كشكل من أشكال الرد.

لقد كانت حركة التعرف على الغرب وفهم حضارته خشبة الخلاص كما تم تصورها بعد عصر النهضة ولا نريد الدخول في جدل الآراء المرافقة أو الرافضة لهذه العلاقة، لكننا نشير إلى أن حركة العرب في التعرف على الغرب قطعت أشواطاً وهي تحتاج إلى المزيد لإنجاح حوار حقيقي بين حضارتين أو حضارات، ويعتبر د. حسن حنفي من أكثر المتحمسين لزيادة المعرفة بالغرب، ويبدو ذلك من خلال كتابه ((مقدمة في عالم الاستغراب)) فهو يشير إلى الاستغراب بقوله : ((الاستغراب هو الوجه المقابل والنقيض من ((الاستشراق))، فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا (الشرق) من خلال الآخر (الغرب) يهدف (علم الاستغراب) إذن إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر، والجدل بين مركب النقص عند الأنا ومركب العظمة عند الآخر)). (٣٦)

إذن الاستغراب هو عودة لتبادل الأدوار، أي أن نقوم بدور مشابه للدور الذي قام به الغرب تجاهنا، وهذا يعني توجيه الحوار بين الحضارات ليأخذ أبعاداً جديدة، وأن ننظر من زوايا جديدة، وهذا ولا شك يقدم خدمات جلى للحوار فيضعه على الطريق الصحيح بحيث يكون متبادلاً أكثر، ويكون كل طرف محاوراً للطرف الآخر بالفعالية ذاتها، يتابع حنفي: ((فالاستشراق القديم يعني رؤية الأنا اللاأوربي للآخر الأوربي، علاقة الذات الدارس بالموضوع المدروس .. أما الاستغراب فقد انقلبت الموازين، وتبدلت الأدوار، فأصبح الأنا الأوربي الدارس بالأمس هو الموضوع المدروس اليوم كما أصبح الآخر اللاأوربي المدروس بالأمس هو الذات الدارس اليوم)). (٣٧)

إن رد الاعتبار للشرق وتبادل الأدوار بين الدارس والمدروس لا يعطي علم الاستغراب الاستقلالية في نظرته وتوجهه ومناهجه وهدفه، بل إن رائحة الثأرية

تشتم منه، وربما يرى الشرقي أن ذلك من حقه، يقول حنفي : ((مهمة عالم الاستغراب هو القضاء على المركزية الأوربية)) وليس صناعة مركزية مقابلة، و((رد ثقافة الغرب إلى حدوده الطبيعية)). (٣٨) وذلك لأن الغرب قد تخطى حدوده بشكل واسع وهو متهم بالعدوان على الشرق بكل الأشكال وعلى كافة الأصعدة والمستويات.

والملاحظ أن حنفي يرى أن الاستغراب ليس جديداً، أو بالأحرى فقد كان موجوداً من يوم اتصلت الحضارة العربية الإسلامية بالفكر اليوناني: ((تمتد جذور الاستغراب إذن في نموذجه القديم في علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارة اليونانية)). (٣٩)

إذن لكل حضارة تحركاتها الهادفة إلى التعرف على الآخر المجاور أو البعيد المتقدم عليها أو المتخلف عنها، العدو أو الصديق، وهذه الحركة تسمى تغريباً أو تشريقاً حسب موقع الدارس والمدروس، فقد كان للعرب استشراقهم القديم ولهذا الاستشراق مظاهر وشواهد منها:

- دراسة البيروني عن ديانات الهند ((أبو الريحان البيروني - تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة)).

- دراسة ابن مسكويه عن حكمة فارس ((ابن مسكويه - حكمة فارس (جاويد خرد))) . (٤٠)

هكذا نعود إلى مقولتنا حول التمدد الحضاري، أو سد الفراغ، وكيف تنتشر الحضارة الأقوى ويبرز تأثيرها على غيرها، وفي هذا المجال فإن الدراسات التي يذكرها حنفي في مجال الاستشراق العربي القديم ليس سوى غيض من فيض في هذا المجال، بدأ مع عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وتتابع عبر القرون.

ويمكن أن نعد من أشكال الاستغراب هذا العدد الكبير من المفكرين والأساتذة والدارسين العرب والإسلاميين في جامعات الغرب ومعاهده، والكثير منهم من أعلام الثقافة في العالم، وهم يسهمون بجهودهم في حوار الحضارات الشرقية التي ينتمون إليها مع حضارات البلدان التي يتواجدون فيها، خاصة أولئك الناشطون في مجال الدراسات الإنسانية مثل: ادوارد سعيد، محمد أركون، برهان

غليون، وغيرهم كثير، وكلهم يجعل الحوار يتجلى في تطبيق المناهج الغربية الحديثة على دراسة الحضارة الإسلامية، وهؤلاء الذين نسميهم العقول المهاجرة خير من يمثل الحوار بين الحضارات والثقافات والشعوب، خاصة إذا كانوا يعملون في أرقى البرامج العلمية الغربية، كغزو الفضاء أو الذرة أو المعلوماتية وغير ذلك.

لقد قام الكثير من العرب بدراسة الغرب و أحوال الغرب، فالدكتور عبد الرزاق عيد يشير إلى قول توفيق يوسف عواد عن كتاب ((حريات في الغرب)) لسليم خياطة، إنه ((يدرس الغرب بعد أن درس الشرق مئات الغربيين)) . (٤١)

وإذا كان الاستشراق أو الاستغراب يأخذ شكل الدراسات البحثية الفكرية أو العلمية، فإن هناك استغراباً أخذ أشكالاً أخرى، خاصة الشكل الأدبي، فكثيرون هم الذين أبدعوا أعمالاً أدبية وفنية بعد حياة طويلة أو قصيرة في الغرب، واستوحوا هذه الأعمال من خلال علاقتهم بهذا الغرب، وهي أعمال تفيض بوصف الغرب والتعرف عليه، صحيح أن ذلك كان بلغة الأدب وبهدف الإمتاع، لكن الجانب المعرفي فيها والدقيق حول الغرب وتكوينه وظروفه واضح في هذه الأعمال.

ومن أمثلتها ((عصفور من الشرق)) لتوفيق الحكيم، ((الحي اللاتيني)) لسهيل أدريس ، ((موسم الهجرة إلى الشمال)) للطيب صالح، والكثير الكثير غيرها، خاصة في مجال السينما والتلفزيون. وهذه تقدم معرفة بالغرب ومناخاته الاجتماعية وعلاقاته وظروف حياة أبنائه وعلاقته بالآخر، ويمكن أن تقدم رفداً لحوار الحضارات الذي تعددت أشكاله وقنواته، ولم يتوقف عند آراء المفكرين ولا خطط السياسيين والمنظرين الاستراتيجيين، وهو لا يخضع لضابط صارم، بل ينبثق حيث تتوفر ظروف ملائمة لأي شكل أو مستوى من الحوار، مخلفاً الصدام للمصالح والأطماع.



هوامش الفصل الرابع

١ـ د. عبدة عبود، الأدب وحوار الحضارات، مجلة المعرفة السورية، السنة/٤١/ العدد /٤٧٢/ سباط ٢٠٠٣ ص٣٢.

٢ـ المرجع السابق.

٣ـ المرجع السابق.

٤ـ روجيه غارودي، حوار الحضارات، مرجع سابق ص١٢٨ ومابعد.

٥ـ يشير إلى ذلك د. أمين أسبر، الحوار في الحضارة العربية الاسلامية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١ /٢٠٠٢ ص٢٣٦.

٦ـ د. احسان عباس، ملامح يونانية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت/١٩٧٧.

٧ـ راجع بعض كتب علي حرب، مثل: العالم ومأزقه، حديث النهايات، الأختام الأصولية والشعائر التقدمية، الممنوع والممتنع... وغيرها.

٨ـ انظر، عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة: عالم المعرفة./٢٣٢/نيسان/١٩٩٨.

٩ـ د. عبد الله إبراهيم، المركزية الأوربية، مرجع سابق، ص٣١.

١٠ـ روجيه غارودي، حوار الحضارات، مرجع سابق ص٣٥.

١١ـ سمير عبدة، المسيحيون السوريون خلال ألفي عام، دار علاء الدين، ط١/٢٠٠٠ ص١٠٨.

١٢ـ د. تغريد نصر أحمد، تعريب التعليم الجامعي، عالم الفكر، مجلد/٢٨/ عدد/٣/ يناير ـ مارس/٢٠٠٠ ص١٩٣.

١٣ـ د. حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط١/١٩٩٢ ص١٥١.

١٤ـ المرجع السابق ص١٥٠.

١٥ـ المرجع السابق ص١٥١.

١٦ـ المرجع السابق ص١٥١.

١٧ـ روجيه غارودي، المرجع السابق ص٣٦.

١٨ـ د.تغريد نصر أحمد، المرجع السابق ص١٩٥.

١٩ـ المرجع السابق ص١٩٥.

٢٠ـ د.هاشم صالح، من مقدمة ترجمته لكتاب د. محمد أركون: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، دار الساقي، ط١٩٩٥/١ ص٢.

٢١ـ تقرير التنمية الإنسانية/٢٠٠٢ الصادر عن هيئة الأمم المتحدة ص٩٠.

٢٢ـ د.نجوى قصاب حسن، مجلة المعرفة السورية، السنة/٤١/ العدد/٤٧٣/ شباط/٢٠٠٢ ص٧.

٢٣ـ المرجع السابق ص٧.

٢٤ـ المرجع السابق ص٧.

٢٥ـ راجع، صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، مرجع سابق، ص٩٨.

٢٦ـ بيل آشكروفت وبال أهلواليا، ادوارد سعيد، مفارقة الهوية، ترجمة: سهيل نجم، مراجعة: د. حيدر سعيد، نينوى للدراسات والنشر+الكتاب العربي، ط١/ ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٢ ص٨١.

٢٧ـ المرجع السابق ص٨٦.

٢٨ـ المرجع السابق ص٦٩.

٢٩ـ المرجع السابق ص٧٥.

٣٠ـ د.نصر حامد أبو زيد، تجديد الخطاب الديني ضرورة معرفية وليس استجابة لاستحقاقات ١١ سبتمبر، جريدة الزمان ١١ و ٢٠٠٢/٩/١٢.

٣١ـ فردهاليداي، صدام الحضارات أو حين يلتقي هنتجتون مع غلاة القوميين، نص محاضرة ألقاها بالفرنسية في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، ترجمة: مرام المصري ونشرت في العدد الرابع ١٩٨٨ من مجلة internationales etuoes

٣٢ـ د.كمال عبد اللطيف، في تشريح أصول الاستبداد، قراءة في نظام الآداب السلطانية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ط١٩٩٩/١ ص٣١.

٣٣ـ بيل آشكروفت وبال أهلواليا ، المرجع السابق ص٩٨.

٣٤ـ راجع مقدمة المترجم د.كمال أبو ديب، لكتاب الثقافة والامبريالية، لادوارد سعيد، دار الآداب بيروت، ط١/١٩٩٧ ص٢٠.

٣٥ـ بيل آشكروفت وبال أهلواليا ، المرجع السابق ص١٢٨.

٣٦ـ د.حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق ص٢٣.

٣٧ـ المرجع السابق ص٢٤.

٣٨ـ المرجع السابق ص٢٨.

٣٩ـ المرجع السابق ص٤٤.

٤٠ـ المرجع السابق ص٤٥.

٤١ـ د. عبد الرزاق عيد، الثقافة الوطنية/الحداثة ـ اشكالية الهوية/ مرجع سابق ص٩٧.



العصر ومستقبل الحوار

لقد تمت هندسة العالم اجتماعياً بطريقة أفسحت المجال لكل الجهات والمشاريع، سواء كانت مشاريع حوار أم صدام، فلم يعدم مالكو القوة وشهوة السيطرة الأسباب والأساليب للضغط على الآخرين في سبيل الحصول على الامتيازات، فكانت صناعة المآسي ممتدة عبر التاريخ، منذ قابيل وهابيل، إذا أخذنا بالأساطير الرمزية لمشاريع القداسة، وكانت أنهار الدماء فياضة باستمرار.

وإذا كانت سمة الحياة هي الصراع فإن المراحل التي لا يصل فيها هذا الصراع إلى الصدام إنما يكون هادئاً حيث ينتعش دور اللغة، فهي التي نطلق عليها أوصاف الحوار.

وإذا كانت محطات الصدام معالم بارزة في تاريخ البشرية، حيث أن للصدام صوته المسموع، وضجيجه الذي لا يخفت، ويمكن تحديده زمنياً (من - إلى)، فإن الأزمنة المتبقية هي أزمنة الحوار، وهي تتميز بصوتها الخافت وقلة ضجيجها، بل قد يكون الحوار جارياً في حمأة الصدام، لأن الإفادة من دروسه وتعرف كل طرف إلى تقنيات ومعارف وأساليب الطرف الآخر خلال الصدام المسلح، هو شكل من أشكال الحوار مع عقله الذي أنتج هذه التقنيات والمعارف والأساليب.

وإذا كان الصدام قد توقف قليلاً ليعاود نشاطه، فإن الحوار لم يتوقف، بل كان دائم النشاط، وهذا ما جعلنا نقول إن تاريخ البشرية يغلب عليه الحوار، وإذا كانت بؤر الصدام تنتقل من مكان إلى آخر فكل الأمكنة كانت ميداناً للحوار.

لقد أشرنا إلى ارتباط الصدام بالمصالح، بالتالي كلما اشتدت وتيرة المصالح بروزاً، كانت أدعى إلى الصدام، ولهذا وجدنا أن الحضارة الحديثة لم تخفف من

الصدامات، بل زادتها لازدياد عمل المصالح وقدرتها على تحريك القوة لحمايتها، والمصالح مرتبطة بالأطماع والمبررات تجري فبركتها عند الحاجة.

كان تطور العلم وتقنياته يترافق باستمرار بتطور على المستوى المجتمعي، ويبدو انعكاس التطور في الانتقال من المجتمع الأهلي الذي يعتمد في تنظيمه على القرابة، سواء كانت قرابة الدم(عائلة، عشيرة، قبيلة، قوم...الخ) أو قرابة العقيدة(طائفة، مذهب، ملة، دين...الخ) والحوارات في هذا المجتمع حوارات مغلقة تجري غالباً بين الفئات والكتل الصلبة.

كان التطور الذي تم الانتقال إليه مع بداية عصر النهضة في أوربا هو طور المجتمع المدني، ولم يكن ذلك ممكناً لولا التطورات التي أحدثتها النهضة على مستوى الحياة والمجتمع، وقد أخذ ذلك فترة امتدت على مجمل القرون التي استغرقتها النهضة ولا تزال، فالمجتمع المدني ليس ضربة لازب.

لقد أثبت المجتمع المدني حتى الآن فاعلية واضحة في تنظيم المجتمع، كما أثبت فاعلية في تطوير الحوارات بين الكتل الاجتماعية المتشابهة الأسس والقيم والمصالح حتى، فالأحزاب والنوادي والاتحادات والجامعات والقوى الأخرى، تسعى دائماً لإقامة الروابط مع مثيلاتها في بلدان أخرى وهذا ما ساعد على إنجاز حوارات كان لها دور كبير في تلطيف المناخ وتقليل الصدامات.

والمجتمع المدني بكتلته الصلبة المتمترسة بمصالحها وميزاتها وآفاقها الفكرية ذات الحدود الواضحة، يستدعي الدولة أو السلطة لتكون حارسة لحدود هذه الكتل، وضابطة لإيقاع الحراك الذي تقوده، كي لا تشتط في امتداد مصالحها وحدودها فيكون لا بد من الصدام.

يقول تيري إيجلتون: ((ففي المجتمع المدني، يعيش الأفراد في حالة من العداء والخصومة المزمنة، مدفوعين بمصالحهم المتعارضة، أما الدولة فهي ذلك العالم المتعالي الذي يمكن فيه التسوية بين هذه الانقسامات وإحلال نوع من الانسجام بينها، وكيما يتم هذا، لابد للدولة من أن تكون فاعلة في المجتمع المدني ومؤثرة فيه أصلاً مخففة من أحقاده ومهذبة لحساسياته، وهذه العملية هي ما يعرف باسم الثقافة)). (١)

إن معطيات أخرى تبرز في الحياة توحي بتراجع القدرة على السيطرة على هذه الكتل وضبط الحدود، في ظل تجاوز العمل على الأرض للعمل في الفضاء، وعبر شبكات المعلوماتية التي تصعب سيطرة السلطات عليها، بالتالي فستكون مدعاة للتحلل من الضوابط التي تمت الإشارة إليها والمحروسة من قبل الدولة، مما يؤدي إلى انفلات المصالح والغرائز والأطماع.

بالتالي، فإن ما بدأ يشير إلى أنه سيتحرر من القيود، أو بدأ فعلاً بالتحرر منها، هو الحوار، ليدخل مرحلة لا تستطيع أية قوة أن تضبطه، خاصة عندما يكون مجاله الفضاء الرحب، وشبكات المعلوماتية، باقمارها الصناعية، أو بالأحرى عصارة جهد العقل البشري في ايجاد تواصل بلا عوائق.

لم تعد الباخرة والطائرة والسيارة وغيرها أدوات جمع الإنسان بالإنسان، لقد أصبح الاجتماع افتراضياً على شبكة الانترنت، وهذا يحدث دون جهود تذكر، بالتالي يمكن أن يكون مستمراً دون انقطاع ودون سفر وتذاكر وجوازات ومواعيد، بالتالي تكون إمكانية الحوار مع أكثر من طرف أو جهة واردة خلال وقت واحد تقريباً.

هذا المناخ الجديد يفترض تطوراً يوازيه على مستوى المجتمع وتواصله الحواري، هذا البديل للمجتمع المدني هو (المجتمع التداولي)، ويرى علي حرب أن((تحولات هائلة ومتسارعة تقابلها أزمات مفاجئة ومتلاحقة)) تحدث في العالم، يحاول أن يرصد أشكالها وأعراضها ومظاهرها بالتالي المتغيرات والاستجابات، في كتابه((العالم ومأزقه ـ منطق الصدام ولغة التداول)). (٢)

لقد أصبح الواقع الذي تتيحه الثورة الرقمية واقعاً افتراضياً يتحكم بسير العالم، وقد أصبح الزمن زمناً فعلياً يجري فيه البث من مكان إلى آخر بسرعة الضوء، مما يجعل المرء على عجلة من أمره، بالتالي فقد تغير المكان كما تغير الزمان، فقد انطوت المسافات وتآكلت الحدود، و((بهذا المعنى تحول المكان من موطن مسيج إلى فضاء سبراني مفتوح لتدفق المعلومات بصورة متواصلة)) كل هذا ساعد على إحداث تغير في الهوية لأن إمكانية إحداث روابط جديدة بين بشر جدد هو أمر مفترض إلى جانب العلاقات العادية القائمة على اللغة أو العرق أو الدين

والأرض، لقد أصبح الاقتصاد معرفياً بفعل ثورة المعلومات وتم استبدال الموارد المادية بالموارد المعلوماتية اللامتناهية، كما أصبح العالم الأداتي مختلفاً تقوده الحاسبات الذكية والأدمغة الآلية وتطغى فيه برامج المعلومات وشبكات الاتصال وأصبحت إمكانية خلق عالم من الخيال عبر الوسائط الفائقة والمتعددة والروابط الافتراضية، وأصبحت اللغة هي لغة الأرقام بدل اللغة المكتوبة والمقروءة والمنطوقة، اللغة الرقمية ((هشة وعابرة لكنها ذكية وذات طاقة إعلامية هائلة)) متناهية الصغر وغير متناهية الموارد وهي صناعية وعالمية. (٣)

هذه التحولات الجذرية ((تخريط)) علاقة المرء بمفردات وجوده بقدر ما تزعزع مرجعياته وتجاربه، فتخلق عالماً جديداً، تبدو أزماته بكثرة الحديث عن النهايات، من نهاية التاريخ والجغرافية إلى نهاية المثقف والأيديولوجيا أو الملكية...الخ وهذا دليل أزمة. (٤)

هذه الأزمة تبدو مظاهرها في عدم الاستقرار، أي ((الحركة الدائمة التي تجعل من المتعذر السيطرة على قوانين التغير أو التحكم بنظام الأشياء)). تبدو في الاقتلاع أي تفجير علاقة المرء بالمكان، الأمر الذي يدمر العلاقة التقليدية القائمة، وتتزعزع الثقة عندما تفقد الأشياء ثباتها وصلابتها وتتزعزع أسسها وركائزها، ثم تضعف السيطرة على المشكلات من قبل الدول والحكومات، ويسيطر على الجو رعب تقني نتيجة عدم القدرة على التنبؤ والتوقع لآفاق التطور، إن مأزقاً وجودياً حقيقياً ينتج عن انهيار المشاريع الأيديولوجية وتصدع الروايات الكبرى حول العالم بسبب الطفرات المعرفية، مما يؤدي إلى قلق وجودي بسبب فقدان البوصلة المعرفية والوقوع في الدوامة العملية. (٥)

((إننا إزاء عالم يتحول في خريطته وبنيته أو في نظامه وايقاعه أو في قواه وفاعلياته، وبصورة تبدو معها الأزمات كأنها الظاهرة وليس الاستثناء)) .(٦)

كل هذا يشير إلى أن المجتمع المدني في مأزق مفهوماً وشعاراً ومضموناً. (٧) بالتالي فإنه يصعب الإصلاح باعتبار تغير الأسس التي قام عليها هذا المجتمع كما حدث مع تغير الأسس التي كان يقوم عليها المجتمع الأهلي، وهذا ما يفرض التوجه نحو المجتمع الذي يطلق عليه ((المجتمع التداولي))، وكلمة تداولي تحيل إلى الحوار

ومناخاته ومفاهيمه، وبالتالي فالحوار أهم أسسه، لكن ليس بالضرورة الحوار الذي تعودنا عليه سابقاً، إنه الحوار الذي يستغل متغيرات العصر والوسائط.

يوضح عالم الاجتماع البريطاني أنطوني جيدنز طبيعة الحوار الجديد المطلوب وهدفه، فيقول:

((فالديمقراطية الليبرالية هي مجموعة من المؤسسات النيابية التي تهتدي بقيم معينة، ولكن ديمقراطية المداولة تهيء طريقة للحصول، أو لمحاولة الحصول، على اتفاق بشأن السياسات في المضمار السياسي، ويرى دافيد ميلر على سبيل المثال أن المثل الأعلى للمداولة((يبدأ من مسلمة تفيد أن الأفضليات السياسية سيجري بينها نزاع))، ويقول مردداً كلام جورغن هابرماس، ((لكي يكون حسم النزاع ديمقراطياً يجب أن يجري من خلال مناقشة صريحة وغير قسرية للقضية موضوع الخلاف بهدف الوصول إلى حكم متفق عليه))، وليس القصد أن يتم الاتفاق مباشرة من خلال هذا النقاش، ويمكن أخذ الأصوات ولكن الشيء المهم أن يصل المشاركون إلى حكم على أساس ما سمعوه من حوار وما قالوه)). (٨)

ليس هدف المداولة الوصول إلى نتيجة حاسمة وصحيحة كما يوضح عالم الاجتماع البريطاني جيد نز، المهم من حيث الشكل إتاحة الفرصة لكل وجهات النظر أن تجد طريقها عن طريق الحوار إلى الآخرين، وهذا ما لم تكن تتيحه الديمقراطية سابقاً: ((ويفيد مفهوم المداولة التأكيد على الطريقة التي يجري بها الحوار الصريح ليشمل جميع وجهات النظر والاستماع إليها لكفالة شرعية النتيجة حين يبين للمتحاورين أنها تعكس حوارهم فيما سبق، ولن يكون التأكيد على المداولة من حيث هي إجراء استكشافي بحثاً عن إجابة صحيحة)). (٩)

وخصائص المجتمع التداولي عند علي حرب تبرز في اعتباره له ((مجتمعاً وسيطاً)) لا نخبوياً، حيث تردم الهوة بين عمل يدوي وعمل فكري مع عمال المعرفة، وفي المجتمع التداولي لا يفكر واحد عن آخر، ومن ليس عنده فكرة يصنع بها نفسه وواقعه، يشهد على عجزه ويخسر فاعليته، ويعطي الفرصة لسواه للسيطرة، مما يفقد الشعارات والرموز مضمونها وألقها، وتتغير العلاقة بين الأفراد والمؤسسات كما بين بعضهم، والمجتمع التداولي لا يعمل بعقلية الطوبى المفارقة والأدلوجة المغلقة والقيم المتعالية على التاريخ، بقدر ما يعمل بمنطق المساومة والتسوية.

والمجتمع التداولي تعددي لا أحادي، ولا اتفاق فيه إلا على حرية المناقشة حيث لا تسحب فكرة من التداول، ولا إجماع فيه يصادر حرية التفكير والتعبير، والمجتمع التداولي تعددي، بمعنى أن الفاعل البشري ذو كينونة مركبة من تعدد الوجوه والأصوات، كما من تداخل الأطوار والأبعاد، والمجتمع التداولي مجتمع ميديائي لا تمارس فيه الحرية من خلال الديمقراطية كما في المجتمع المدني، إنه الانتقال من الديمقراطية التمثيلية إلى الديمقراطية الإعلامية بفضل ثورة المعلومات وانفجار وسائط الاتصال، وهو عالم معاش بقدر ما هو وسط مفتوح يتغذى من المختلف في الداخل كما يتغذى من الآخر في الخارج، وهو منفتح على الخارج بشكل تداولي يعني الإفادة من الخبرات المتوفرة لدى الآخرين (١٠).

((من هنا فإن مفهوم الاستقلال كما يمارسه أصحاب الفكر القومي والأدلوجات الوطنية، بات مفهوماً عقيماً ينتمي إلى مرحلة تاريخية يجري تجاوزها الآن)).(١١)

هذه الفكرة السريعة والمجتزئة والمبتسرة عن المجتمع التداولي كما يعرضه علي حرب وغيره لا تغني عن العودة إلى حيث يمكن التعرف على هذا الطرح الغني واللافت، بما يحمله من آفاق، ولا شك أن العودة للتعرف عليه في مصادره ذات إغراء، إلا أن الإشارة إليه هنا بهذا الشكل للإحساس بأن هناك أفقاً جديداً للحوار، ليس في البيئات الضيقة فحسب، بل على مستوى العالم، أفراد وجماعات، دون أن تقف في وجهه الحواجز والمسافات، وتكاد تكون وسائطه متشابهة من حيث القدرات الفائقة واعتماد التقنيات الجديدة، وغياب الخصوصية.

إن استشراف مثل هذا الأفق يدفعنا إلى التحذير، من تغييب ذاتية الفرد وخصائص الجماعة والاستسلام للوسائط التكنولوجية المتحكمة بقدر الإنسان ومصيره وعواطفه، كما نحذر من مفاعيل الإشارة السابقة التي يطرحها علي حرب حول مفهوم الاستقلال، بالتالي خطر التبعية، بل ازدياد هذه الظاهرة وازدياد خطرها لأن من يمتلك ناصية التكنولوجيا سيكون قادراً على امتلاك ناصية الحياة، وهذا أمر واعد بصدامات لا تنتهي لأن التاريخ أثبت عدم استعداد الشعوب للتخلي عن خصوصياتها وهوياتها بالسهولة التي تفترضها فكرة المجتمع التداولي.

لا يغيب عن بالي أن الطرح جديد وهو لم يتخمر، ولم يستتبع ما يحتاجه من نقد، وما يفتحه من آفاق للتداول فيه أولاً، لكن الفكرة راقت لي بما تحمله من إمكانية للحوار وآفاقه، والتطور الممكن للإنسانية على مستوى العلاقات المجتمعية، دون أن يغيب عني ما فيه من سلبيات.

هوامش الخاتمة

١ـ تيري إيجلتون، فكرة الثقافة، مرجع سابق ص٢٤.

٢ـ علي حرب، العالم ومأزقه ـ منطق الصدام ولغة التداول، المركز الثقافي العربي، طبعة أولى، ٢٠٠٢.

٣ـ المرجع السابق، ص١٠٥ فما بعد.

٤ـ المرجع السابق، ص١١٠.

٥ـ المرجع السابق، ص١١١.

٦ـ المرجع السابق، ص١١٤.

٧ـ المرجع السابق، ص١٣٨.

٨ـ انطوني جيدنز، بعيداً عن اليسار واليمين، مرجع سابق، ص١٤٨ـ١٤٩.

٩ـ المرجع السابق، ص١٤٩.

١٠ـ علي حرب، العالم ومأزقه، المرجع السابق، ص١٤٤.

١١ـ المرجع السابق، ص١٤٩.



المحتويات

هذا الكتاب

يبحث الكاتب حسن ابراهيم احمد في الجدلية الكونية بين الصدام والحوار - بين القبول والرفض - بين التسامح والتزمت.

ان عناوين فصول الكتاب تبين مدى اهمية الموضوعات التي يناقشها الكاتب ومثال ذلك :

الذات العملاقة والآخر القزم

الدين والابواب المفتوحة

الصدام ترعاه المصالح

الحضارات تتأسس على الحوار ... إلخ

يندرج الكتاب في تلك المجموعة النادرة من الكتب التي تستشف الواقع فترسم صورة للمستقبل مبرزة الاحتمالات واتجاهات تطور الحضارة الإنسانية.

